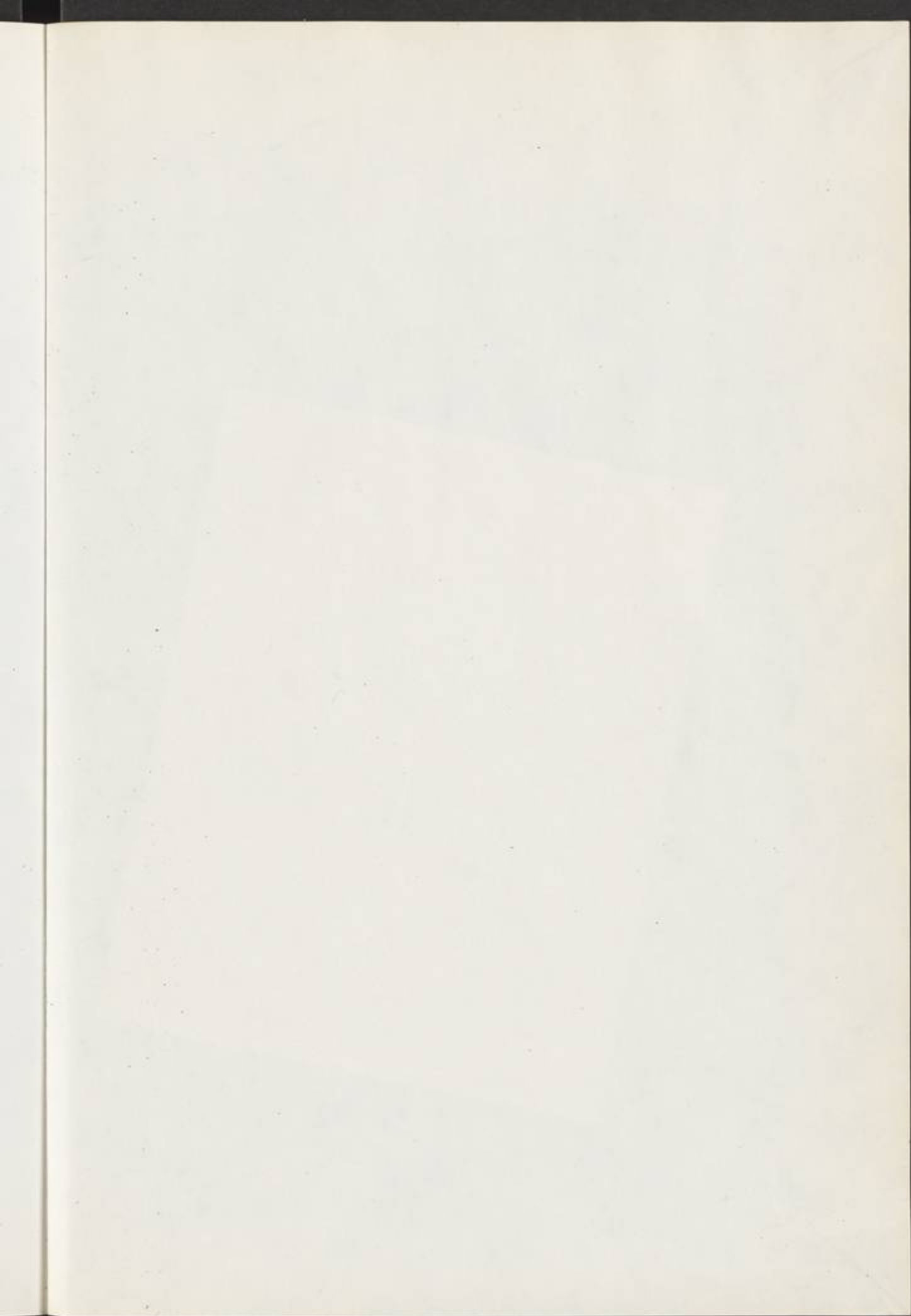


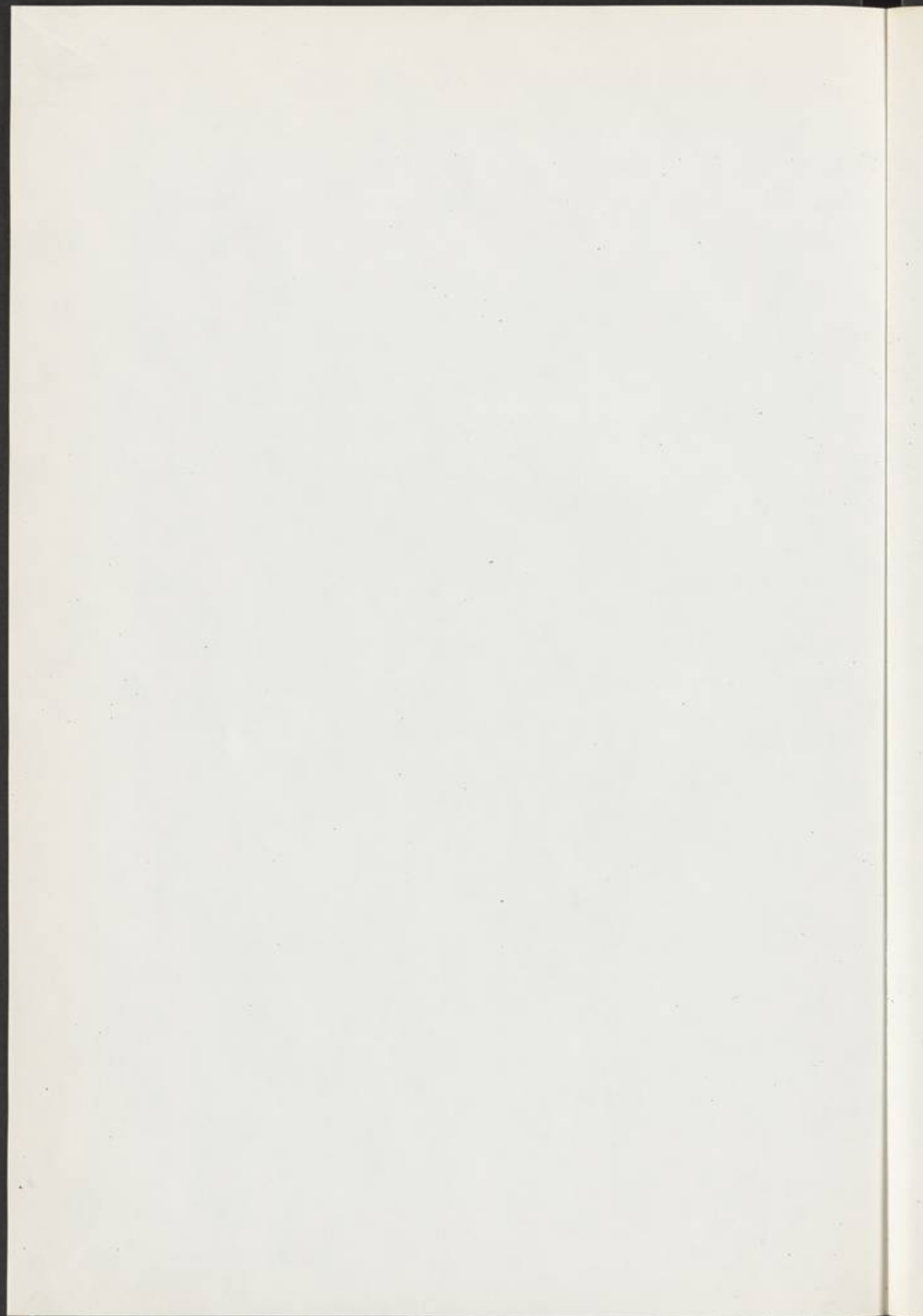
BOBST LIBRARY
3 1142 01570 1520

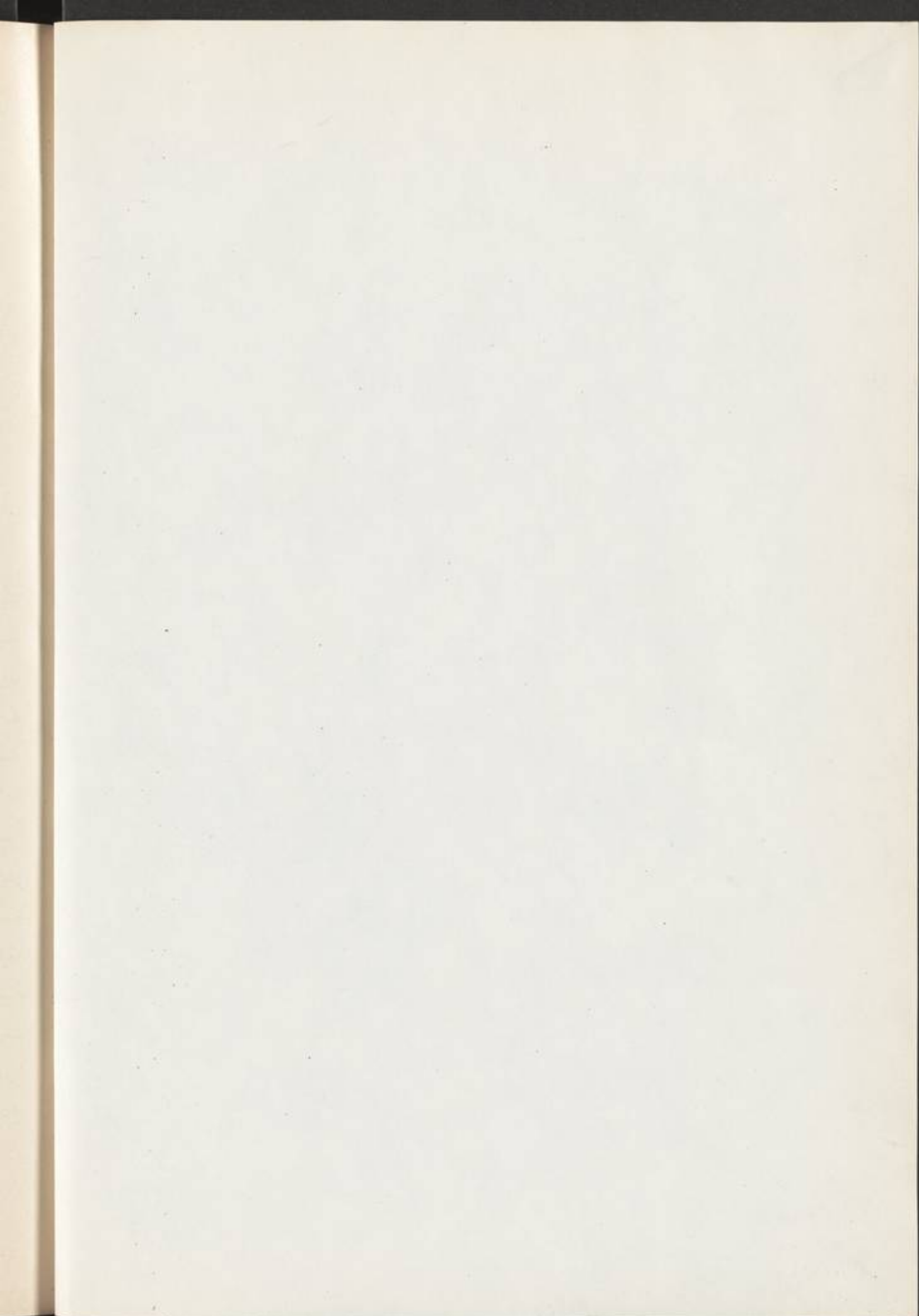


GENERAL UNIVERSITY
LIBRARY

DATE DUE	DATE DUE
<p>NEW YORK UNIVERSITY BOBST LIBRARY</p> <p>MAR 26 1992</p> <p>70 WASHINGTON SQ. S. NEW YORK, N.Y. 10012</p> <p>CIRC</p>	<p>NEW YORK UNIVERSITY BOBST LIBRARY</p> <p>MAR 24 1992</p> <p>70 WASHINGTON SQ. S. NEW YORK, N.Y. 10012</p> <p>CIRC</p>
<p>NEW YORK UNIVERSITY BOBST LIBRARY</p> <p>JUL 23 1992</p> <p>70 WASHINGTON SQ. S. NEW YORK, N.Y. 10012</p> <p>CIRC</p>	







Faraj Fu'ad
al-Qāhira
al-Qāhira

المدن المصرية

وتطوراتها مع العصور
مجموعة فنية تاريخية
المجلد الرابع

المتاهرة

٧٠٢ (٢)



تاريخ المدن القديمة ودليل المدينة الحديثة

١٩٤٤

فؤاد فراج

مهندس بالبلديات بمصر

NEW YORK UNIVERSITY LIBRARIES
NEAR EAST LIBRARY

منشور مطبعة وشركة
مطبعة المعارف وكتبها بمصر

7821 10-3

Near East

DT

143

.F3

v. 2

c. 1

NEW YORK UNIVERSITY LIBRARIES
NEAR EAST LIBRARY

1981

تصريح

يسرني أن أسجل على هذه الصفحات آراء الكتاب والجرائد وقادة الفكر في الجزء الأول من كتاب « القاهرة » الذي ظهر في ٧ رمضان الماضي سنة ١٣٦٢ هـ تحية لعيد عاصمة المملكة المصرية الألفية

المؤلف

رأى مجدى همدى الإسلام :

نشرت مجلة « هدى الإسلام » في العدد ٤٧ من السنة التاسعة الصادر يوم الخميس ١٤ أكتوبر سنة ١٩٤٣ بقلم الأستاذ حسن قاسم مدير المجلة تحت عنوان « المدرس المصرية » - « القاهرة » ما يأتي :
القاهرة هي المدينة العظمى ونهاية العواصم المصرية ، ولها تاريخ حافل مجيد ، وماض زاهر - بيد أنه محفوظ بشيء من الغموض - وبالرغم من هذا الستار الكثيف الذي أسدل عليها ولم يستطع الباحثون كشفه حتى هذه الساعة ، فقد اشترك في الكتابة عن تاريخها من نواح شتى ، العدد الكثير من الكتّاب ، وهم على اختلاف منازعهم ومشاربهم يقصدون وجهة واحدة هي (القاهرة) دار الخلافة الإسلامية ، ونهاية العواصم المصرية . ففريق تصدى للكتابة عن تراجم من أنجبت من علماء وأدباء وأمرء وكتاب في كل عصورها الماضية . وفريق كتب عن حياة مؤسسها ونحاتهم وسياستهم إلى غير ذلك . وفريق نحا ناحية تخطيطها فذكر معالمها وآثارها إلى غير ذلك مما لها من تاريخ عمراني مجيد تطور بدورة الزمن . وفريق وقف قلمه عند هذا الستار الكثيف الذي أسدل عليها زهاء عشرة قرون كاملة ، فطرق باب الكتابة عن الأسباب الصحيحة التي من أجلها تسمت بالقاهرة ، ومن أجلها اختيرت لها هذه المنطقة مع بعد الشقة بينها وبين الفسطاط والعسكر والقطائع ، وهي العواصم التي سبقتها وكان لها شأواً بعيداً في الحضارة والتمدن ، وأين هي العواصم التي سبقتها ، ومن أسسها ، وما يحيط بها من ضواحي ومدن ، وطبيعة أرضها ومناخها ، وتحول نيلها وآثار أممها السابقة ، إلى غير هذه النواحي التي يجدر بالكتّابين في تاريخ القاهرة أن يبحثوها على ضوء العلم الصحيح ، هذا بوصف ما غير من تاريخها ، وأما الحاضر منه ، فهذا ما لا يحيط به إلا كاتب واسع الاطلاع ، فيستطيع أن يكتب عن مدى عمرانها وعن التطورات الزمنية التي تسير بالقاهرة بخطى سريعة فتحولها من صورة محدودة النطاق إلى صورة أوسع مدى وأكثر عمراناً ؛ والجبال في هذه الحقبة مترامي الأطراف مشعب النواحي ، ولا يحيط به كما قلنا إلا كاتب قدير .

هذه النواحي من تاريخ القاهرة العظمى - كما كانت تسميها دول أوربا في عصورها الماضية - كانت تجيش

في نفسى ، وأتمنى أن لو يحقق الله هذه الفكرة بهمة من تصدى للكتابة عن القاهرة من الكتاب المعاصرين ؛ لكن شيئاً من هذا لم يظهر ، تتحقق معه هذه الأمنية .

حتى ظهر كتاب (القاهرة) للأستاذ فؤاد فرج المهندس بإدارة البلديات ، فأخذت أتصفح الكتاب ، ثم استوعبته قراءة ودرسا ، وإذ ذلك شعرت بأن الأستاذ قد وفق إلى ما كانت تصبو إليه نفس كل باحث في تاريخ القاهرة ، ذلك لأن تاريخ القاهرة بوضعه الحالى مبتور أقطع ، ويجب أن يوصل لتم الحلقة المفقودة منه .

وهذا ما تصدى له الأستاذ فؤاد فرج في كتابه هذا ، ففي الجزء الأول منه الذى صدر فى ٢٠٠ ص يزيناها ١١٣ صورة من الصور المختلفة التى ير بطها بصلة تاريخ القاهرة رباط وثيق ، قد بحث هذه الحلقة المفقودة ؛ فأظهرها فى بسط من القول وتحقيق دقيق لم يضطلع به سواه ، فى إثني عشر فصلا ، عن عواصم القطر المصرى فى العصور المختلفة وعن موقع مدينة القاهرة من الناحية الطبيعية ، وعن صحراوات القاهرة ، ووديانها ، ومقطعها ، وعن ضواحيها : حلوان المدينة الصحية العظيمة ، وهى الوطن الثانى لكاتب هذا المقال ، ثم مرقا طرا وشهران (المعصرة حالياً) وهى القرية المشهورة بمعاصرها العظيمة فيما غبر من الزمان ؛ ثم منية السودان (المعادى حالياً) وهى القرية الطولونية ، إحدى القرى المصرية القديمة التى أقطعها أحمد بن طولون لاثني عشر ألفاً من غلمانه السود ، فعرفت بهم بعد تسميتها بالعدوية (سيدة من الطائفة النسطورية) وتعرف الآن بمعادى الخبيري نسبة إلى الرئيس حسين بن حماد الخبيري المستشهد فى يوم الأحد ٤ من المحرم سنة ١٢٢٤ هـ . وقد انشطرت هذه القرية إلى شطرين : القسم الشرقى وهو سكن الطبقات الراقية ، ويتصل من شماليه بقرية بسانين الوزير و ببعض أرض بركة المعافر (الحبش) ، والقسم الغربى ويقع على النيل مباشرة ، وهو سكن الطبقات الفقيرة والمتوسطة . ثم ذكر قرية دير مارى حنا (دير الطين حالياً) وهى القرية التى اشتهرت بتصدير الطين الأصفر لعمل الخزف بمصانع العدوية (المعادى) وغيرها - وبه عرفت منذ عهد سحيق إلى غير ذلك من المباحث التى لا تجدها فى كتاب غير مؤلف « الأستاذ فؤاد فرج » . وهذا الجزء بمجموع ما فيه مما أشرنا إليه فى هذه العجالة الصحفية ، يعتبر كمدخل للأجزاء التالية . وسيتناول الجزء الثانى الكلام عن عواصم مصر : الفسطاط ، العسكر ، القطائع وسواها . ويخصص الجزء الثالث للناحية العمرانية وغيرها فى القاهرة من أقدم عصورها حتى الآن .

وستكون من مجموع هذه الأجزاء الثلاثة ، سفر عظيم عن (القاهرة) سيبقى أثراً خالداً تعتزه الأجيال القادمة . والقاهرة من الناحية العمرانية غنية بهذا التراث فمجموع ما تبقى لدينا من آثارها وعددها حول ٦٠٠ أثر من ألف أو تزيد ، قد جعل منها مدينة مقدسة ذات حرمة ومهابة . ثم دارت دورة الزمان عليها . فبلغت مبلغاً عالياً من التقدم والسعة .

وهذا ما دعانا لأن نفرّد لهذا الباب بنوع خاص مؤلفاً ضخماً في اثني عشر جزءاً أستوعبنا فيه كل ما يتعلق بالقاهرة من الناحية الطبوغرافية والأثرية وصححنا به أغلاط من كتب في هذه المباحث منذ عصر المقرئ حتى اليوم ، مستدركين ما فات على الكتّابين مما جهل أو غمض عنهم من هذه المعالم والآثار ، بصورة بسطنا فيها القول وأوسعنا المدى .

فكتاب (القاهرة) إذ يأتي اليوم محققاً لفكرتنا ، قد أدى فيه الأستاذ فؤاد فرج مجهوده خير أداء ، وليس بدعاً أن يوفق الأستاذ في كتابه هذا ، فقد وفق في كتابيه (الإسكندرية) و (منطقة قنال السويس ودرسه القنال) أيما توفيق .

ولقد سدت هذه الكتب فراغاً كبيراً ، وأضافت إلى المكتبة العربية ذخراً باقياً وكنزاً ثميناً . والكتاب مطبوع طبعاً أنيقاً بمطبعة المعارف الشهيرة ، وقد أصدرته في الوقت المناسب ، فشكر الله سعي القارئ عليها ، وشكر الله الأستاذ فؤاد فرج ، وبيض وجهه ، فقد ملأ قلبي سروراً بكتابه هذا ما
ص من قاسم

رأى جريدة المصرية :

ونشرت جريدة « المصرية » الغراء في عددها الصادر بتاريخ ٦ سبتمبر سنة ١٩٤٣ تحت عنوان :
« العبد الألفى لمدينة القاهرة » ما يلي :

وضع الأستاذ فؤاد فرج المهندس بإدارة البلديات كتابه الثالث عن « المدن المصرية » وقد عني في هذا الكتاب خاصة « القاهرة » عاصمة الديار المصرية فتناول فيه بالبحث والتفصيل الدقيق عواصم القطار المصري قديماً ومقارها ومؤسستها وما لعبته هذه العواصم من أدوار في تاريخ مصر القديم مستنداً في بحوثه الممتعة إلى عمد التاريخ العربي والأفريقي وثقافته مستعيناً بالخرائط والرسوم ولوحات الآثار المودعة كثيراً من المتاحف وقد عقد لذلك إثني عشر فصلاً تناول فيها وادي النيل من أقصاه إلى أقصاه .

وقد جاء فيه عن العيد الألفى لمدينة القاهرة أنه ينعقد صحیحاً في يوم ٧ من رمضان الحالى سنة ١٣٦٢ هـ (٧ سبتمبر سنة ١٩٤٣) لأن القاهرة المعزية لم تعتبر عاصمة للدولة الفاطمية إلا بعد أن اكتملت فيها عناصر ثلاثة : أولها المنشآت الدينية والسياسية والمدنية ، وثانيها ، الملك ، وثالثها ، الشعب . ولا عبرة بتاريخ ١٧ شعبان سنة ٣٥٨ هـ الذى بدأ جوهر الصقلی قائد المعز لدين الله الفاطمی في وضع أساسها فيه لأن العواصم لا تقوم إلا على الاعتبار السابقة لا على تاريخ الانشاء .

وقد عرض المؤلف في بحث من بحوثه لمسألة خلو المدينة من بلدية تنظم شئونها ، وتعنى بعمرانها ، مع اتساعها

و بلوغها منزلة رفيعة بين مدن العالم ، وعجب لهذا التخليط والتنافى البادى فى تخطيط جاردن سقى ، والزمالك ، وقيام عمارات شاهقة بجوار فلات متواضعة مما يتنافى مع مظاهر الجمال والذوق والفن معاً .
ومن طريف ما عرض له الدعوة إلى إنشاء مصيف فى القاهرة للعمال ومتوسطى الحال يقوم على الطريق البديع الممتد على النيل من مصر القديمة حتى حلوان ، وهو عمل سهل لا يكاف الحكومة جهداً كبيراً ولا عناء عظيماً فضلاً عن أنه يجعل هذا النهر الحزين الكئيب مرحاً سعيداً كنهى الدانوب فى فيينا ولا ينهض بمثل هذا العمل الفنى الكبير إلا (مجلس بلدى) .

رأى جريدة المقطم

ونشرت جريدة « المقطم » الغراء فى عددها الصادر بتاريخ ٧ سبتمبر سنة ١٩٤٣ تحت عنوان :
« القاهرة فى ألف عام » ما يلى :
عنيت مطبعة المعارف ومكبتها بمصر بتسجيل تحيتها الطيبة للقاهرة عاصمة المملكة المصرية اليوم ٧ رمضان سنة ١٣٦٢ بمناسبة عيدها الألفى لأن العاصمة أنشئت فى مثل هذا اليوم منذ ألف عام فاصدرت كتاب « القاهرة » لمؤلفه البارع الأستاذ فؤاد فرج المهندس بالبلديات بمصر فى حلة جميلة وعناية فائقة .
ولقد أجلتنا الطرف فى هذا السفر النفيس فوجدنا صاحبه المفضل جهزه بخير المواد وأدق البحوث ورجع إلى ٨٦ مصدرأ عربيا و ٦٨ مصدرأ إفرنجيا فجاء متحليا بالانقان والإجادة وقسمه إلى ١٢ فصلا فيها وصف دقيق لعواصم المملكة المصرية فى العصور المختلفة وموقع القاهرة جيولوجيا والصحراء الغربية أو صحراء ليبيا وغور القطارة ووادى النظرون والصحراء الشرقية أو صحراء العرب وما فيها من معادن ، وجبل المقطم ، ومحاجر طره ، والمعصرة ، وصناعة الأسمت ، وعيون حلوان المعدنية ، وحلوان اللد ، وحلوان الحمامات ، وتأثير سكة الحديد فيها الخ . .
وصدر الكتاب بصورة وسيمة لجلالة الملك وزين بكثير من الصور التى استلزمها البحث فجاء كتاب (القاهرة) هذا تحفة فنية تفخر بها المكتبة العربية .

وعنيت مطبعة المعارف بالفجالة بمصر باصداره بالانقان اللائق وجعلت ثمنه ٥٠ قرشا فنوجه إليه الأنظار .

رأى جريدة الأهرام

ونشرت جريدة « الأهرام » الغراء فى عددها الصادر بتاريخ ٨ سبتمبر سنة ١٩٤٣ تحت عنوان :
« مدينة القاهرة ٧ رمضان ٣٦٢ - ١٣٦٢ هجرية » ما يلى :
تلقينا من الأستاذ فؤاد فرج المهندس بإدارة البلديات العامة ومؤلف سلسلة كتب « المدن المصرية » كلمة لمناسبة مرور ألف عام على اتخاذ القاهرة عاصمة سياسية لمصر ، قال فيها :

في ٧ رمضان سنة ٣٦٢ هـ قدم الخليفة المعز لدين الله الفاطمي من بلاد المغرب ، بعد رحلة طويلة شاقة ونزل في القصر الكبير الذي أعده لنزوله في القاهرة قائده الحنك جوهر الصقلي .

لم يكن قد مضى على إنشاء القاهرة — تلك المدينة الجديدة التي أنشأها جوهر في ١٧ شعبان سنة ٣٥٨ هـ ، غداة فتح مصر واختراق جيوشه لمدينة الفسطاط — إلا أربع سنوات كاملة ، ومع ذلك ظهرت أمام أعين المعز ، كأنهم ما تكون مدينة ملكية حسنا ورونقا .

ولقد كان يبدو في اختيار موقع هذه المدينة ، وفي تخطيط شوارعها وميادينها ، وفي اختيار موقع القصر الكبير وطريقة بنائه ، وفي توزيع الحارات أو الأحياء الجديدة بين وحدات الجيش الفاطمي المختلفة الأجناس والمشارب ، وكذلك في اختيار موقع جامع القاهرة إلى جوار مقر الحاكم ، وهو الذي سمي فيما بعد الجامع الأزهر ، وكان أهم منشآت العاصمة الجديدة دينياً وسياسياً ، كان يبدو في هذا كله أن جوهر الصقلي لم يكن مجرد قائد عسكري وحسب ، بل كان فوق ذلك مهندساً مبدعاً وفناناً اجتماعياً .

قلنا إن المعز قدم في يوم ٧ رمضان سنة ٣٦٢ هـ ونزل في القصر الكبير وتولى شئون مملكته الجديدة بنفسه وعند ذلك فقط ، أصبحت القاهرة عاصمة البلاد السياسية ومقر الخلافة الإسلامية . وبذلك تكون القاهرة قد سلخت اليوم — ٧ رمضان ١٣٦٢ — ألف عام هجرى من عمرها ، وهي العاصمة السياسية للبلاد .

وقد أهدى إلينا الأستاذ فؤاد فرج ، لهذه المناسبة ، الجزء الأول من كتابه « القاهرة » ، الذي اعتزم إصداره في ثلاثة أجزاء .

وهو يشتمل على اثني عشر فصلاً ، أفرد فصلاً منها للحديث عن عواصم مصر وتاريخها ، هذا إلى دراسة دقيقة لموقعها ، والظواهر والعناصر الطبيعية التي تتعاقد بها . ثم أورد دراسة وافية لمدينة حلوان ووصف البلاد الواقعة بينها وبين القاهرة . واختتم كتابه ببحث في تنقل مراكز العواصم المصرية القديمة ، تبعاً لتطورات حالة النهر وانتقالات رأس الدلتا .

وقد أخرجت مطبعة « المعارف » هذا الكتاب في ثوب قشيب ، مزدان بالصور والخرائط ، تحية منها لعاصمة المملكة المصرية في مناسبة عيدها الألفي .

ويقع الكتاب في ٢٠٠ صفحة من الورق الجيد المصقول .

القاهرة

٢

مقدمة الجزء الثاني

ظهر الجزء الأول من كتاب « القاهرة » في ٧ رمضان الماضي سنة ١٣٦٢ هـ ، تحية لعيد عاصمة المملكة المصرية الألفية .

وطبيعى أنه ما دام موضوعنا هو « المدن المصرية » وما دمنا نتكلم عن مدينة « القاهرة » فأول ما كان يجب علينا ، هو دراسة المنطقة التى نشأت فيها هذه المدينة !

فخصصنا الجزء الأول من هذا الكتاب لدراسة منطقة القاهرة وجيولوجيتها والصحراوات المحيطة بها ومقطمها وغاباتها المتحجرة ووديانها ونيلها الخ

أما الجزء الثانى ، وهو موضوع كتابنا الحالى ، فقد خصصناه ، كما قلنا فى مقدمة الجزء الأول ، لدراسة العواصم القديمة التى قامت فى هذه المنطقة قبل القاهرة مع ذكر ما امتازت به حضارات تلك العواصم وثقافتها من ظواهر كان لها أثرها الاجتماعى الواضح فى حياة عاصمتنا الخالدة .

ثم خصصنا الجزء الثالث لدراسة مدينة « القاهرة » بمعناها التاريخى وتتبع تطوراتها من يوم إنشائها إلى الآن .

ولما كان كتاب « القاهرة » بأجزائه الثلاثة وحدة وثيقة الارتباط ، يتم بعضها البعض ، فإن المراجع التى ذكرت فى صدر الجزء الأول من هذا الكتاب كانت بالطبع هى مراجع الأجزاء الثلاثة . وإذا كنا وضعناها هناك بدون ترتيب خاص فإننا نعيدها هنا معدلة ومنسقة ومرتبطة طبقاً للحروف الأبجدية كترغبة الكثيرين من أصدقائنا الكرام .

ولا يفوتني هنا أن أقرر أنني توسعت عن قصد في دراسة الظواهر الطبيعية المحيطة بمدينة القاهرة وفي موارد الثروة الموجودة بها وفي دراسة حلوان وضواحيها والكنوز الهائلة الكامنة في جوفها ، وسأستمر في إبراز هذا الجانب من موارد بلادنا الطبيعية وذلك لألفت النظر إلى ناحية من نواحي الثقافة التي ننشدها للشباب المصري ليتطلع إلى الأعمال الحرة في مستقبل حياته ، لأنه إذا ما ألمَّ إلماماً طيباً بما تحويه بلاده من هذه الموارد ، وإذا ما تعلم طرق استغلالها ، وعرف ما تدره من ثروات هائلة على المشتغلين بها ، لا شك أنه سيقبل عليها في مستقبل حياته العملية ويستفيد منها أيما فائدة .

وإني أرجو صادقاً أن يكون في عملي هذا ما يحفز رجال وزارة المعارف العمومية على تقرير مادة « جغرافية المدن التاريخية » *Geographie Urbaine* كمادة أساسية في التعليم ، تدون في كتبنا المدرسية ، وتعم في معاهدنا ومدارسنا ، لما يترتب على ذلك من فتح أبواب رزق واسعة في المستقبل ، وإعداد طرق مهيأة للعمل الحر المثمر أمام الألوف من رجال مصر المتعلمين .

وإليك مثلاً ما وصلت إليه في دراستي لإحدى الظواهر الطبيعية المحيطة بمدينة القاهرة ، فمجرد



مكان بديع فوق جبل المقطم

يصلح لإنشاء مدينة صحية وغابات جميلة ومصيف جذاب بالقاهرة !!

رفع مياه النيل العذبة فوق جبل المقطم يكفي لتجميل هذا الجبل ولإنشاء مدينة صحية فوق أسناده ، وزرع غابات جميلة فوق أنجاده ، وتحويله من جبل صخري قاحل إلى حدائق غناء ، وإلى مدينة مرتفعة *Super-Town* تشرف من على النهر والوادي والأهرام ، وتضارع في جمالها وتخطيطها ونظامها ومبانيها وفنادقها وملاهيها أنغر وأبدع المدن الجبلية الشهيرة في العالم .

وكم في هذا المشروع وحده من جهود تستنفد نشاط الشباب المتعلم لمدة جيل كامل ، ومن ثروات تتدفق على من يعمل في مجاله المتسع !!

وإليك الآن بيان هذا المشروع .

مشروع تجميد جبل المفطم

يبلغ عدد سكان القاهرة الآن طبقاً للإحصائيات الرسمية مليوناً ونصف مليون نسمة ، ولكن هذه الإحصائيات لا تتضمن عاملين مهمين يعملان باستمرار في زيادة عدد سكان القاهرة :

العامل الأول - هو الزيادة الناتجة من تقاطر العمال الذين جاءوا من الريف ليشتغلوا في الصناعات الحربية التي خلقتها الحرب الحاضرة واحتياجات الجيوش التي تستعمل الآلات الميكانيكية المتحركة .

والعامل الثاني - هو الزيادة الناتجة من وجود السكان الذين هاجروا من المدن الأخرى أثناء الغارات الجوية وأقاموا نهائياً في القاهرة .

وبما أنه من المنظور أن هؤلاء وأولئك سيظلون في العاصمة حتى بعد أن تضع الحرب أوزارها ، كما أنه من المنظور أن تتحول هذه الصناعات الحربية إلى صناعات مدنية لتعمير بعد الحرب ، وسيظل يشتغل فيها هؤلاء العمال ، فلا بد إذن من إضافة عددهم إلى عدد سكان المدينة الحالية ، وبذلك يصبح عدد سكان القاهرة الآن حوالى مليوني نسمة .

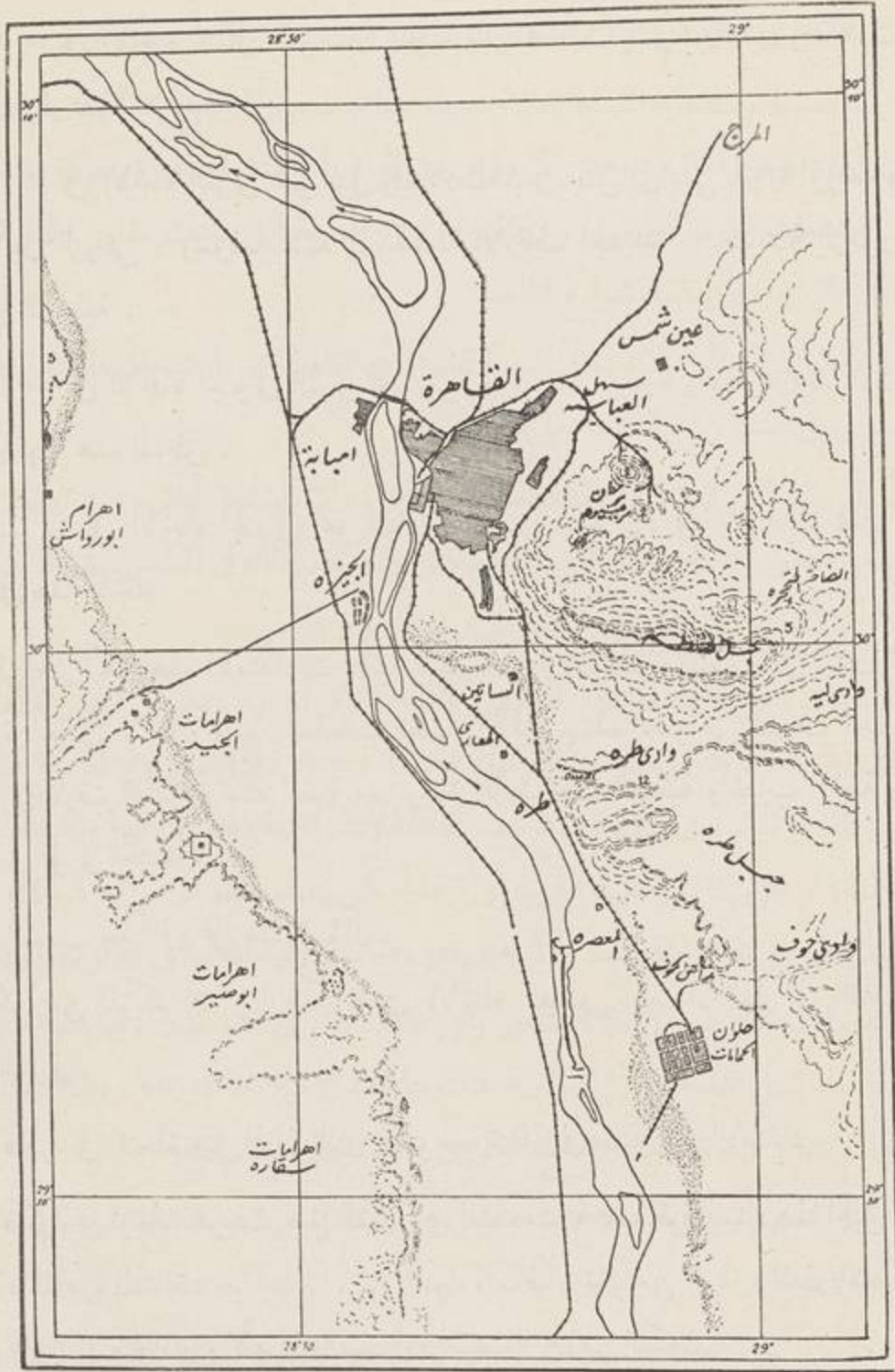
وتبدو القاهرة اليوم على اتساعها المفرط ومساحتها الهائلة وقدرها ٤٠ ألف فدان مكتظة اكتظاظاً هائلاً بهذين المليونين من السكان . فليس هناك مكان خال في طريق أو مبنى ولا في سيارة عمومية ولا في ترام ولا في قطار من قطارات الضواحي .

فإذا استمرت الزيادة في عدد السكان تسير بالنسبة التي هي عليها الآن ، سيبلغ عدد سكان هذه العاصمة أربعة ملايين نسمة في سنة ١٩٦٠ أى في أقل من عشرين عاماً .

فأين تذهب هذه الزيادة ، وما مصير هذه العاصمة ؟

يتمدد العمار بمدينة القاهرة الآن في خمسة اتجاهات مختلفة :

أولاً - في الاتجاه الشمالى الشرقى نحو العباسية ومصر الجديدة وقد كادت هذه المناطق يتصل بعضها ببعض من تلاحق المباني واتساع العمران .



خريطة لبيان اتجاهات العمار الخمسة بمدينة القاهرة

كن
في
ت
بناء
ما،
ب،
لك
ظاً
ولا
مذه
صل

ثانياً - فى الاتجاه الشمالى نحو شبرا الخيمة المعروفة أيضاً باسم شبرا البلد وقد كادت المباني تصل إلى فم ترعة الإسماعيلية .

ثالثاً - فى الاتجاه الغربى نحو الدقى وقد كادت المباني تصل إلى مبنى وزارة الزراعة ومتحف فؤاد الأول الزراعى . وسوف تمتد إلى مدينة الأوقاف الجديدة - مدينة الزهور والنور والشمس الساطعة .

رابعاً - فى الاتجاه الجنوبى الغربى نحو جزيرة الروضة والجزيرة والأهرام وقد كادت المباني تصل إلى نهاية هذه المناطق .

خامساً - فى الاتجاه الجنوبى نحو المعادى والمعصرة وحلوان ، ولا زال هناك مجال لامتداد العمران فى هذا الاتجاه .

ولكن هل تكفى هذه الامتدادات الخمسة لاستيعاب الزيادة الهائلة المنظورة فى سكان القاهرة ؟ أو بعبارة أخرى ، هل تتسع المساحات الفضاء الباقية بهذه الضواحي لضعف عدد السكان الحاليين فى ظرف العشرين سنة المقبلة مع مراعاة الاحتياجات الصحية وأسباب الراحة والرفاهية المطلوبة فى المباني الحديثة ؟

من الصعب جداً الرد على هذا السؤال .

ولكن من المؤكد أننا إذا فكرنا فى الاتجاه الطبيعى لامتداد العمار فى القاهرة وهو الاتجاه الشرقى .

إذا فكرنا فى اقتحام جبل المقطم الذى يقف حجرة عثرة فى سبيل هذا الامتداد .

إذا فكرنا فى ارتقاء مدرجات جبل المقطم وفى إنشاء مدينة صحية فوق أسناد هذا الجبل ، لأضفنا إلى أحياء القاهرة الممتازة ، حياً جديداً ، نقى الهواء ، صافياً ، خالياً من الغبار والقاذورات ، يشرف من على النهر والوادي والأهرام والصحراء ويتسع لملايين من السكان .

ويخيل لنا إن أنجاد الجبل ومرتفعاته أوفق وأصلح مكان لتحقيق الاتجاه الجديد الملاحظ فى العمارات الحديثة بالقاهرة وهو الخاص بإنشاء الحدائق السطوحية « Roof Gardens » فوق أسطح

العمارات الشاهقة مثل عمارة الچنقواز وعمارة توفيق دوس باشا وعمارة الأنبون دى باريس وسواها . فالجبل ، بطبيعة مسطحاته المتسعة العالية حديقة سطح طبيعية لا تحتاج إلا لتمهيد طرق بسيطة تتصل بشوارع القاهرة الحالية . وهذا أمر سهل ، بل الواقع أن هذه الطرق موجودة فعلاً الآن ، وأوجدتها احتياجات الحرب الحاضرة وحركات الجيوش المحاربة التي مهدت مفاوز الجبل ودروبه واخترقتها في كل اتجاه وأوصلتها بشوارع العاصمة .

فمدينة المقطم إذن ليست إلا امتداداً طبيعياً للعمران في القاهرة تفي باحتياجات المستقبل لعاصمة القطر المصرى في العشرين سنة المقبلة وما يليها .

ومجرد رفع مياه النيل العذبة بواسطة الطلمبات الحديثة ، ذات الضغط العالى ، فوق الجبل ، يحوّل هذا الجبل من صخور قاحلة جرداء إلى جنان وحدائق وغابات ، وذلك في المناطق المشرفة على المقابر والجبانات ، كتلك التي تطل على الإمام الشافعى وباب الوزير والخفير .

أما المرتفعات الجبلية المشرفة على الوادى والنهر والأهرام والممتدة من مصر القديمة إلى العباسية فتصلح جداً لإنشاء مدينة جبلية مرتفعة Super-Town تتصل بشوارع القاهرة عند نفق دير النحاس المقابل لكوبرى الملك الصالح بمصر القديمة وعند القلعة وعند العباسية بواسطة خطوط السيارات العامة ، حتى إذا ما وضعت الحرب أوزارها أمكن إنشاء خطوط هوائية للسكك الحديد الجبلية تربط هذه المدينة الناشئة بنقط مركزية في قلب العاصمة وتوصلها بها في دقائق معدودة .

هذا وقد دلت التجارب على أن الأشجار والزرعات الأخرى تنمو فوق الجبل نمواً بديعاً متى وصلت إليها مياه النيل العذبة ، وعلى أن التربة هناك صالحة صلاحية تامة للزراعة ، وهناك مثال حتى على ذلك في الأشجار الباسقة المحيطة بجامع المغاورى بجبل المقطم خلف القلعة .

وإنى أترك لتصور رجال الإصلاح ما سيعود على مدينة القاهرة من المنافع بسبب إنشاء هذه المدينة الجبلية :

فأولاً - من جهة تجميل العاصمة ، سوف تختفى صورة هذه الصخور القاحلة وتلك التلال الجرداء الموحشة التي تجعل من المشارف البعيدة لهذه المدينة منظرًا صحراويًا منفراً ، وترسم محلها في الأفق صوراً فيها من الجاذبية والجمال والروعة ما يدهش .

فهنا حيث لا يرى المسافر المقبل على القاهرة من بعيد إلا جبلاً صخرياً قاحلاً سوف ترسم أمام ناظريه قبيلات وعمارات نغمة تحيط بها الأشجار الباسقة والغابات الجميلة والحدائق الغناء .

هنا حيث لا يرى المسافر المقبل على القاهرة من بعيد إلا تلالاً موحشة تربض فوق صدر المدينة وتكتم أنفاسها وتمنعها من الحركة والانتشار شرقاً ، سوف ترسم أمام عينيه الفنادق بنوافذها الزرقاء والملاعب بأعلامها الخضراء والملاهي بجاذبيتها الساحرة ، والمآذن بقدها المشوق .

هنا حيث لا يرى المسافر المقبل من بعيد إلا صحراء وفناءً وشقاءً ، سوف يرى دنيا منيفة وحياة يانعة ونعياً مقيماً .

وثانياً - أما من الوجهة الصحية فسوف تتخلص القاهرة بهذا المشروع مما ينتشر في أجوائها أيام الخمسين ، من الرمال السافية التي تسد الأنفاس وتقبض الصدور ، سوف تتخلص من هبوب الصحراء الملتهبه وحرارتها المحرقة التي تلحف الوجوه صيفاً ، سوف يتمتع من يرقى مرتفعات هذا الجبل صيفاً في ظلال الغابات المورقة بنسيم منعش لا يتوفر في الوادي ، ويستنشق هواءً صحياً صافياً خالياً من الغبار والميكروبات ، وبدرجة حرارة منخفضة عن درجة حرارة الوادي . سوف يشفق وهو فوق هذه المرتفعات الصحية على سكان الوادي المعرضين لكل أنواع المرض والشقاء .

وثالثاً - أما من الوجهة الحربية ، فلو أن القاهرة حوصرت مدة أسبوع واحد عند ما تقدم الألمان إلى العاملين في الحرب الحاضرة ، وقطعت مواصلاتها ببلاد الريف المصرى ، لتبين المدافعون عنها ، قيمة استبقاء الأراضي الزراعية الموجودة داخل نطاق المدينة حالياً ، وقيمة استصدار أمر عسكري يحتم زراعة هذه الأراضي بالخضراوات لتموين المدينة عند اللزوم حتى لا تضطر إلى التسليم جوعاً .

ورابعاً - أما من الوجهة التاريخية ، فطالما انتفع العرب بجبل المقطم ، وطالما أقاموا فوقه المدن والمساجد والتحصينات ، وطالما رفعوا مياه النيل العذبة فوق أنجاده بواسطة تلك الحوائط المعروفة باسم حوائط العيون ، وهي التي كانت تحمل مياه النيل قديماً في قنوات إلى الجبل ، ولم تزل ماثلة منذ عهد أحمد بن طولون عند بئر أم السلطان بالقرب من ناحية البساتين ، ومنذ عهد قنصوه الغورى بناحية فم الخليج بمصر القديمة .

ولم ير أمراء مصر وملوكها منذ عهد صلاح الدين الأيوبي، لا بل منذ عهد الطولونيين، إلى نهاية عهد محمد علي باشا الكبير، مكاناً أوفق وأصلح مسكناً لهم ولدويهم من مرتفعات القلعة، فأقاموا فوق قم الصخور المنبسطة هناك، القصور والقلاع والمساجد، التي لم تزل إلى اليوم مفخرة القاهرة القديمة وشعارها الخالد.



طالما اتفح العرب بمجبل المقطم وأقاموا فوقه المدن والمساجد والتحصينات !!

إذن لماذا لا تمتد القاهرة الحديثة فوق أنجاد المقطم ؟
لماذا لا تنتشر تلك الأحياء القديمة المكتظة اكتظاظاً هائلاً بالمساكن والأهالي إلى أعالي الجبل ،
لتفرغ ما في رثتها من الهواء الفاسد المحبوس ؟
لماذا لا ترتقى أحياء الخليفة والدرب الأحمر ومصر القديمة وسواها مدرجات الجبل وتستنشق
الهواء الصحي الخالي من الغبار والقاذورات ؟
الأمر في منتهى السهولة :

فجرد تكوين شركة مساهمة وطنية ، برأس مال يغطي النفقات اللازمة لتمهيد الطرق ولامتداد
شبكة المياه والمجاري والكهرباء فوق الجبل ، يكفي لإنشاء مدينة المقطم . ولا نظن أن حكومتنا
الرشيدة تضن على مثل هذه الشركة بامتياز الألف فدان اللازمة لهذا المشروع فوق الجبل .
وفي هذا المجال متسع بالطبع لاستثمار مئات الألوف من رؤوس الأموال المصرية ولاستنفاد
نشاط مئات من الشباب المتعلم لمدة جيل كامل !!
ومجرد إقرار الحكومة لمشروع إنشاء غابة فوق الجبل مقابل أحياء الموتى يكفي لتلطيف

جو القاهرة صيفاً ولإنشاء مصيف بديع للفقراء الذين ليس في مقدورهم السفر إلى الإسكندرية أو رأس البر .

هذا هو المشروع الذى هدتنى إليه دراستى للجغرافية التاريخية لمدينة القاهرة Sa Géographie Urbaine فهدت لى هذه الدراسة سبيل التفكير فى جبل المقطم (راجع الجزء الأول من هذا الكتاب ص ٩٦) ، وفى طريقة استثماره بهذه الوسيلة لخير القاهريين !!

والآن لقد أصبح تنفيذ هذا المشروع الواضح الجذاب واجباً فى عنق الأجيال المقبلة لتجنى القاهرة ما فيه من ثمار وارفة ما أشمهاها وما لنها . وخصوصاً متى تحقق مشروع إنشاء بلدية القاهرة فى القريب العاجل إن شاء الله بعد مرور قانون البلديات الجديد فى البرلمان . فهل نحن فاعلون !! إلى وزارة الأشغال العمومية وإلى رجالها العاملين وإلى قادة الفكر فيها نرفع هذا المشروع . وإلى رجال وزارة المعارف العمومية الأجلاء وإلى المسئولين عن سياسة التعليم فى بلدنا نوجه هذه الكلمة راجين تقرير مادة « جغرافية المدن التاريخية » كمادة أساسية فى التعليم !! .

المؤلف

والله الموفق والسلام م



الأشجار الباسقة المحيطة بتكية السلطان عبد الله المغاورى بجبل المقطم خلف القلعة .

كتاب « القاهرة »

أهم المراجع العربية

أعدنا هنا بيان مراجع كتاب « القاهرة » بأجزائه الثلاثة معدلة ومنسقة ومرتبة طبقاً للحروف الأبجدية كترغبة الكثيرين من أصدقائنا الكرام :

- ١ — ابراهيم محمد المصرى المعروف بابن دقاق — الانتصار بواسطة عقد الأمصار طبعة سنة ١٣١٤ م
- ٢ — ابن الجيعان — النخفة السنية بأسماء البلاد المصرية : توفى سنة ١٣٩٨ م
- ٣ — ابن بطوطة — تحفة النظار فى غرائب الأمصار : توفى سنة ١٣٧٨ م
- ٤ — ابن جبير — رحلة ابن جبير : توفى سنة ١٢٠٤ م
- ٥ — ابن حوقل — المسالك والممالك
- ٦ — ابن عبد الحكم — فتوح مصر : توفى سنة ٨٧١ م
- ٧ — أبو البركات محمد بن إياس — بدائع الزهور فى وقائع الدهور . ثلاثة أجزاء : طبعة سنة ١٨٩٣ م
- ٨ — أبو العباس أحمد القلقشندى — صبح الأعشى فى صناعة الإنشا فى ١٤ جزء توفى سنة ١٤١٨ م (طبعة القاهرة سنة ١٩١٤)
- ٩ — أبو المحاسن يوسف بن تفرى بردى — النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة . طبعة دار الكتب المصرية وتعليقات محمد بك رمزى عليها (١٩٢٩ و ١٩٣٠ و ١٩٣٢ و ١٩٣٣ و ١٩٣٥ و ١٩٣٦ و ١٩٣٨ و ١٩٣٩)
- ١٠ — أبو صالح الأرمنى — أخبار من نواحى مصر : توفى سنة ١١٥٥ م
- ١١ — إحصاء شركات المساهمة — دليل الحكومة — طبعة سنة ١٩٤٣
- ١٢ — أحمد شفيق باشا — الرق فى الإسلام تعريب أحمد زكى باشا
- ١٣ — أحمد شفيق باشا — مذكراتى فى نصف قرن : طبعة سنة ١٩٣٤
- ١٤ — أحمد كمال باشا - الحضارة المصرية القديمة
- ١٥ — اسماعيل سرهنك باشا — حقائق الأخبار عن دول البحار فى مجلدين طبعة سنة ١٨٩٦
- ١٦ — أطلس مصر : سنة ١٩٣٨
- ١٧ — الأدريسى : نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق : توفى سنة ١١٥٣ م
- ١٨ — الأرصاد الجوية : نشرات المرصد المصرى بحلوان
- ١٩ — الأطلس المتيورولوجى لمصر : طبعة سنة ١٩٣١
- ٢٠ — البستانى — دائرة المعارف : توفى سنة ١٨٧٠ م
- ٢١ — التقارير السنوية لوزارة الأشغال العمومية من سنة ١٩٣٠ إلى الآن
- ٢٢ — السخاوى — الضوء اللامع
- ٢٣ — المتحف المصرى — موجز فى وصف الآثار الهامة طبعة سنة ١٩٣٧
- ٢٤ — المجلة الطبية المصرية ومجلة العمارة ومجلة السكك الحديدية وسواها

- ٢٥ — المقدسى — أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم : توفى سنة ٩٩٠ م
- ٢٦ — إلياس الأيوبي — تاريخ مصر في عهد الخديوى اسماعيل في مجلدين
- ٢٧ — أمين سامى باشا — تقويم النيل في سنة مجلدات طبعة سنة (١٩١٣ و ١٩٢١ و ١٩٣٣ و ١٩٣٦)
- ٢٨ — أنطون زكري — الحكومة الاشتراكية منذ ٣٥٠٠ سنة — مصر الاقتصادية في عهد الأسرة ١٨ الفرعونية : طبعة سنة ١٩٣٥
- ٢٩ — بلر — فتح العرب لمصر تعريب الأستاذ فريد أبو حديد طبعة سنة ١٩٣٣
- ٣٠ — بيانات ومحاضر لمصلحة المناجم
- ٣١ — تقويم الحكومة سنة ١٩٣٩
- ٣٢ — تقي الدين الفريرى — المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار في أربعة مجلدات توفى سنة ١٤٤١ م
- ٣٣ — جورجى زيدان — تاريخ التمدن الإسلامى في خمسة أجزاء طبعة سنة (١٩١٤ و ١٩٢٦ و ١٩٣١ و ١٩٢٧ و ١٩١٩)
- ٣٤ — جورجى زيدان — تاريخ مصر الحديث في مجلدين : طبعة سنة ١٩٢٥
- ٣٥ — حسن صادق باشا (الدكتور) — الجيولوجيا طبعة سنة ١٩٣١
- ٣٦ — حسن ابراهيم حسن (الدكتور) — الفاطميون في مصر : طبعة سنة ١٩٣٣
- ٣٧ — خرائط مجسمة بالجمعية الجغرافية الملكية المصرية
- ٣٨ — خرائط مدينة القاهرة وضواحيها ١ : ١٠٠٠
- ٣٩ — خرائط مدينة القاهرة وضواحيها ١ : ٥٠٠٠
- ٤٠ — خريطة مدينة القاهرة وضواحيها ١ : ٧٥,٠٠٠
- ٤١ — دليل الجمعية الجغرافية الملكية المصرية : طبعة سنة ١٩٣٤
- ٤٢ — دليل المتحف القبطى في جزئين : طبعة سنة (١٩٣٠ و ١٩٣٢)
- ٤٣ — دليل متحف سكك حديد الحكومة المصرية : سنة ١٩٣٣
- ٤٤ — سليم بك حسن — مصر القديمة في جزئين طبعة سنة ١٩٤٠
- ٤٥ — صالح بك على — الخرائط التاريخية
- ٤٦ — عبد الرحمن الجبرتى — عجائب الآثار في التراجم والأخبار في أربعة مجلدات توفى سنة ١٨٢٥
- ٤٧ — عبد الرحمن بك الرافعى — تاريخ الحركة القومية في ثلاثة أجزاء : طبعة سنة ١٩٢٩
- ٤٨ — عبد الرحمن بك الرافعى — عصر اسماعيل في مجلدين طبعة سنة ١٩٣٣
- ٤٩ — عبد الرحمن بن أبى بكر جمال الدين السيوطى — حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة جزءان طبعة ١٩٠٩
- ٥٠ — عبد الرحمن زكى (البكباشى) — القاهرة في جزئين طبعة سنة (١٩٣٤ و ١٩٣٥)
- ٥١ — عبد الرحمن زكى (البكباشى) — الجيش المصرى في عهد محمد على باشا الكبير طبعة سنة ١٩٣٩
- ٥٢ — عبد الهادى حماده ومحمد زكى فور — دليل آثار الأقصر : طبعة سنة ١٩٤٢
- ٥٣ — عبد اللطيف البغدادى — وصف مصر حوالى سنة ١٢٠٠ ميلادية : طبعة سنة ١٩٣٢
- ٥٤ — على بك بهجت والبير جبريل — حفريات الفسطاط : طبعة سنة ١٩٢٨ (ترجمة على بك بهجت ومحمود عكوش)
- ٥٥ — على باشا مبارك — الخطط التوفيقية لمصر القاهرة ومدنها وقراها في عشرين جزءا طبعة سنة ١٨٨٨

- ٥٦ — سمو الأمير عمر طوسون — وادى النطرون طبعة سنة ١٩٣٥
- ٥٧ — سمو الأمير عمر طوسون — البعثات العلمية في عهد محمد علي طبعة سنة ١٩٣٤
- ٥٨ — سمو الأمير عمر طوسون — صفحة من تاريخ مصر في عهد محمد علي طبعة سنة ١٩٤٠
- ٥٩ — عمر عبد العزيز أمين — تاريخ البريد في مصر طبعة سنة ١٩٣٤
- ٦٠ — فؤاد فرج — الإسكندرية طبعة سنة ١٩٣٧
- ٦١ — فؤاد فرج — منطقة قنال السويس ومدن القنال طبعة سنة ١٩٤٢
- ٦٢ — فؤاد عبد الملك — مذكرات عن حلوان الحمامات وبنائنها المعدنية
- ٦٣ — كراسات الإحصاء سنة ١٩٣٧
- ٦٤ — كلوت بك — لمحة عامة إلى مصر في مجلدين (ترجمة محمد بك مسعود) طبعة سنة ١٨٤٠
- ٦٥ — محمد السيد النعناعي — حوض النيل طبعة سنة ١٩٤٠
- ٦٦ — محمد أمين حسونه — مصر والطرق الحديدية : طبعة سنة ١٩٣٨
- ٦٧ — محمد حسين مكاوي — التقدم العمراني لمدينة القاهرة والمدن المصرية الأخرى طبعة سنة ١٩٣٨
- ٦٨ — محمد بك رمزي — مذكرات خاصة
- ٦٩ — محمد صابر — يوم مع قدماء المصريين في منف طبعة سنة ١٩٣٩
- ٧٠ — محمد صابر — من أدب الفراعنة طبعة سنة ١٩٣٧
- ٧١ — محمد عبد الجواد الأصمعي — قلعة محمد علي لقلعة نابليون طبعة سنة ١٩١٤
- ٧٢ — محمد عبد العزيز مرزوق — مساجد القاهرة قبل عصر المماليك طبعة سنة ١٩٤٢
- ٧٣ — محمد عبدالله عنان — تاريخ الجامع الأزهر طبعة سنة ١٩٤٢
- ٧٤ — محمد عبد الله عنان — مصر الإسلامية وتاريخ الخطاط المصرية طبعة سنة ١٩٣١
- ٧٥ — محمد عبد الله عنان — مواقف حاسمة في تاريخ الإسلام طبعة سنة ١٩٢٩
- ٧٦ — محمد عوض محمد (الدكتور) : نهر النيل
- ٧٧ — محمود ابراهيم عطية — مذكرة عن المياه الفائرة في الأرض في القطر المصري
- ٧٨ — محمود باشا أحمد — دليل موجز لأشهر الآثار العربية بالقاهرة طبعة سنة ١٩٣٨
- ٧٩ — معالي الأستاذ محمود سليمان غنام — المعاهدة المصرية الإنجليزية طبعة ١٩٣٦
- ٨٠ — مصلحة المساحة — الدليل الجغرافي لأسماء المدن والنواحي طبعة سنة ١٩٤٠
- ٨١ — مقتبسات عن النيل والري والقلاخ المصري وعواصم مصر الإسلامية من الجرائد اليومية والمجلات الأسبوعية
- ٨٢ — لبب حبشي وزكي تاووضروس — في صحراء العرب والأديرة الشرقية طبعة سنة ١٩٣٩
- ٨٣ — ناصري خسرو — رحلة ناصري خسرو في مصر ليحي الحشاش (مخطوط بمكتبة جامعة فؤاد الأول)
- ٨٤ — نشرات من متحف فؤاد الأول الزراعي ومتحف سكك حديد الحكومة المصرية والمتحف المصري ودار الآثار العربية ومتحف الشمع وشركات الملاحة
- ٨٥ — ياقوت الحموي — معجم البلدان توفي سنة ١٢٢٤ م
- ٨٦ — يوسف جرجس — الرحلة البطريركية إلى الأمبراطورية الآتوية : طبعة سنة ١٩٣٠

كتاب « القاهرة »

أهم المراجع الأفرنجية

- 1— Abbate — Les Origines du Caire — 1880.
- 2— A. D. Mechenzi — The Story of Ancient Egypt.
- 3— A. Moret — Le Nil et la Civilisation Egyptienne.
- 4— A. Moret — La Nation Egyptienne.
- 5— Architecture Antiquités.
- 6— British Museum — A Guide to the Egyptian Collections.
- 7— Brooks — Climate throughout the Ages.
- 8— Brugsch — Dictionnaire Géographique de l'Ancienne Egypte.
- 9— Budge — Books on Egypt and Caldea XIV, XV, XVI.
- 10— Bulletins de la Société de Géographie d'Egypte.
- 11— Mrs. Butcher — The Story of the Church of Egypt. 2 vols. 1899.
- 12— Casanova — Essai de Reconstitution Topographique de la ville d'Al-Foustat ou Misr. Le Caire 1919.
- 13— Capt. Creswell — Chronology of Muslim Monuments. 1917.
- 14— Capt. Creswell — The Foundation of Cairo 1933.
- 15— Capt. Creswell — The Citadel of Cairo.
- 16— Mrs. Devonshire — Rambles in Cairo 1917.
- 17— Mme Devonshire — L'Egypte Musulmane et les Fondateurs de ses Monuments 1926.
- 18— E. Amélineau — La Géographie de l'Egypte à l'Epoque Copte.
- 19— Emil Ludwig — The Nile in Egypt.
- 20— Encyclo. Britannica.
- 21— Expédition de Bonaparte. Description de l'Egypte.
- 22— F. E. Griffith — The Religious Revolution in Egypt.
- 23— Fernand Leprette — Egypte, Terre du Nil. 1939.
- 24— Flinders Petrie — The Egyptians.
- 25— Flinders Petrie — The Arts and Crafts of Ancient Egypt.
- 26— Fraser. R. — Cairo Past and Present 1892.
- 27— Gabriel Hanotaux — Histoire de la Nation Egyptienne 7 vols.
- 28— G. Ebers — Egypt : Descriptive, Historical & Picturesque. 1878.
- 29— Guides Bleus Illustrés — Le Voyage d'Egypte : Alexandrie, Le Caire. 1929.
- 30— Hauteœur et M. Wiet — Les Mosquées du Caire. 1933.
- 31— Henri Gauthier — Dictionnaire des Noms Géographiques Contenus dans les Textes Hiéroglyphiques.
- 32— Henry Lyons — Physiography of the River Nile.
- 33— Herodote I & II
- 34— H. R. Hall — Egypt in the Brilliance of Decay.

- 35— Hume F. — Survey of Egypt, Geological Depart. Cairo 1925.
- 36— J. Leibovitch — Ancient Egypt.
- 37— Karl Baedeker — Egypt and the Sudan.
- 38— La Grande Encyclopédie.
- 39— Le Monde Illustré.
- 40— Le Tour du Monde.
- 41— L. Gaidey — Voyage du Sultan Abd El Aziz de Stamboul au Caire. 1865
- 42— Linant de Bellefond — Mémoires sur les Principaux travaux d'Utilité Publique Exécutés en Egypte. 1872.
- 43— Lionel Wiener — L'Egypte et ses Chemins de Fer. 1932.
- 44— Mallet — Histoire Romaine.
- 45— Marcel Clerget — Le Caire. 2 vols. 1934.
- 46— Margoloth — Cairo, Jerusalem and Damascus. 1907.
- 47— M. Briggs — Mohammedan Architecture in Egypt and Palestine. 1927
- 48— Migeon. G — Le Caire, Le Nil et Memphis. 1928.
- 49— S. A. Le Prince Omar Toussoun — Mémoires sur les Anciennes Branches du Nil. Tome IV.
- 50— S.A. Le Prince Omar Toussoun — Mémoires de l'Institut d'Egypte.
- 51— S.A. Le Prince Omar Toussoun — Mémoires sur l'Histoire du Nil.
- 52— Page May — Helwan and the Egyptian Desert. 1901.
- 53— Pauty E.—Les Palais et les Maisons d'Epoque Musulmane au Caire. 1932
- 54— Phil. Schan — Through Bible Lands.
- 55— Poole E.W.L. — Cairo Fifty years Ago. 1896.
- 56— Ravaisse P. — Essai sur l'Histoire et sur la Topographie du Caire d'après Makrisi 1887 — 1890.
- 57— Recueil Général des Contrats. Ministère des Finances. 1908.
- 58— Reynolds Ball — The City of the Califs. 1897.
- 59— Rhoné A. — L'Egypte à Petites Journées. 1865.
- 60— Rev. Shenouda Hanna — The Coptic Church of El-Muallaka and others at Old Cairo.
- 61— S. H. Robinson — Civilisation.
- 62— Sladen D. — Things ought to be seen in Cairo.
- 63— Stanley, Lane Poole : 1) The Story of Cairo. 2) Cairo, Sketches of its History, Monument and Social Life. 1895.
- 64— The National Geographic Magazine Wasington P.C.
- 65— The Overland Route — Europe — India — Thomas Waghorn.
- 66— Voyage dans la Basse et dans la Haute Egypte, pendant les Campagnes de Bonaparte. 2 vols.
- 67— W. Willcocks and Craig — Egyptian Irrigation.
- 68— Y. Breasted — A History of Egypt.

الفتاهرة

٢

الفصل الأول

مدينة منف

أتمنا دراسة الظواهر الطبيعية المحيطة بمنطقة القاهرة في الجزء الأول من هذا الكتاب ، وعرفنا أسباب تنقلات العواصم التي نشأت في هذه المنطقة منذ القدم . وبتكلم الآن عن هذه العواصم فنقول :

يبدأ الفصل الأول من تاريخ القاهرة في الواقع ، منذ تأسيس مدينة منف عند ملتقى حدود المملكتين الكبيرتين السابقتين لعصر التاريخ بعد ما تم توحيدهما في عهد الملك « مينا » سنة ٣٢٠٠ ق . م .

ويرجع اختيار موقع هذه المدينة ، بجوار رأس الدلتا القديمة ، في المكان المعروف الآن باسم قرية ميت رهينة بناحية البدرشين بمديرية الجيزة إلى سببين :

السبب الأول هو أن وجود هذه المدينة عند رأس الدلتا يجعلها تسيطر على طرق الملاحة في جميع فروع النيل القديمة المؤدية للوجهين القبلي والبحري . وبهذه الطريقة يمكن بسهولة ارسال الحملات العسكرية اللازمة في النيل في أى اتجاه لأخذ أى ثورة تقوم في مدن المملكة الشمالية التي أخضعت حديثاً ودخلت في حكم ملوك الجنوب .

والسبب الثاني هو أن وجود منف في هذا الموقع ، يجعلها مركز دفاع هام يسيطر على طرق القوافل في الصحراء الغربية فيمكن بذلك صد غارات الليبيين الذين كانوا يسايرون فرع النيل الغربى القديم حتى تقطة تفرعه عند بداية الدلتا للهجوم من هناك على مدن ومقاطعات الوجه البحرى الغربية وهي التي كانت تقوم في مكان مديرية البحيرة الحالية . أمر « مينا » أذن بتحويل هذا الفرع الأكبر من النيل من الغرب إلى الشرق بواسطة سد عظيم أقامه عند فم هذا الفرع .

قال هيرودوت إن الفرع الأكبر للنيل في عهد « مينا » كان يمر بجوار صحراء ليبيا وإن السد الذى أقيم لتحويله شرقاً كان يبعد مائة ستاد تقريباً إلى جنوب منف . فأين هو موقع هذه المعالم الآن ؟

لا يزال مجرى النيل الأصلي ظاهراً للآن في بحر اللبيني الذى يمر بجوار صحراء ليبيا . ويقع فم هذا البحر عند قناطر قشيشة الحالية بمركز الواسطى بمديرية بنى سويف وينتهى بالقرب من قرية نكاه مركز امبابه بمديرية الجيزة ثم يحل محله رياح البحيرة المتفرع من النيل عند قناطر محمد على (القناطر الخيرية سابقاً) . ويمكن رؤية بحر اللبيني هذا فى القاهرة ماراً تحت كوبرى جديد أنشئ بمناسبة توسيع شارع الهرم سنة ١٩٣٥ فى مكان قناطر الجيزة القديمة التى بناها صلاح الدين الأيوبي سنة ١١٧٧ م فى عهد إنشاء قلعة القاهرة . وتجدر فى محازاة هذا البحر مصرف المحيط الذى حول جزء من شاطئه الأيمن إلى طريق مرصوف يؤدى إلى ستوديو مصر للسنيما .

هذا فيما يختص بفرع النيل الأصلي الذى حول ميناء مجراه من الغرب إلى الشرق ، أما السد الذى أقيم لتنفيذ هذه التحويلة فلا تزال بقاياه موجودة للآن عند قناطر قشيشة المذكورة أعلاه ، والظاهر أن هذا السد حصل به خلال فى العصور التالية لعصر ميناء بدليل أنه عند ما تفتح قناطر قشيشة فى زمن الفيضان لرى الحياض الباقية بمديرية الجيزة ، لا بد من تقوية مكان هذا السد كل عام لمنع المياه من الطغيان على موقع مدينة منف القديمة . وتدل جميع الظواهر الطبيعية للآن على أن النهر كان يتفرع قديماً عند موقع قناطر قشيشة هذه . فكان الفرع الأكبر يمر بجوار صحراء ليبيا ، والفرع الأصغر يمر تحت سفح الهضبة الشرقية . ومعنى ذلك أن رأس الدلتا فى عصر ميناء كانت أولاً فى هذه النقطة ، فلما أنشئ السد انتقلت رأس الدلتا شمالاً وتفرع النيل عند البلدة المعروفة الآن باسم كفر العلو بمحلوان .

وقد يكون أصل اسم كفر العلو واسم حلوان أو علوان مشتقان من هذا المعنى أى الأراضى العالية الواقعة وسط النيل . والأرجح أن بحر اللبيني المذكور أعلاه هو نفس فرع النيل القديم الذى كان يمر بالوادي الفارغ الواقع جنوبى وادى النظرون مباشرة وكان يروى القطر اللبيني الذى اندثر الآن وأصبح يعرف باسم صحراء ليبيا . ولا تزال فى الوادى الفارغ آثار من الحياة الصاخبة التى كانت تغمر صحراء ليبيا قديماً . وتعد زيارة هذه الآثار الآن من أمتع الرحلات التى يمكن أن يتمتع بها سكان القاهرة .

ومن المعروف أن ليبيا كانت فى العصور الخالية قطراً قائماً بذاته ذا كيان سياسى خاص . وكان سكانه الليبيون فى حروب مستمرة مع المصريين . فلما اشتدت غارات القوم على الوجه البحرى قرر ميناء تحويل مجرى النهر حتى تنقطع عن الليبيين أسباب الحياة فيه لكون ولكن يظهر أن قطع المياه عنهم زادهم ثورة فاشتدت غاراتهم على البلاد . ولما كانت جحافلهم تتبع فى سيرها إلى وادى النيل هذا الفرع القديم ، أقام ميناء بالقرب من فم هذا الفرع قلعة قوية لصد هجماتهم . وكانت هذه القلعة تقع فى الأرض البكر التى تخلفت عن هذا الفرع بعد انسداده . فلما نجح ميناء فى كبح جماح هؤلاء الليبيين بفضل هذه الفكرة ، قام بتأسيس مدينة بجوار القلعة وزودها بكل ما يلزم الجنود المقيمين بها من مرافق الحياة الضرورية .

أنشأ إذن الملك مينا الأول مدينته الجديدة عند رأس الدلتا (وكانت رأس الدلتا حيث كفر العلو الآن) وسط الوادى فى منتصف المسافة بين الجبل الشرقى والجبل الغربى على الأراضى التى تخافت من تحويل النهر شرقاً. وفى جنوب هذه المدينة الجديدة شيد معبد الآله «فتاح» ومن حوله المباني الحكومية ومساكن الكهنة وبيوت العمال والخدم وثكنات الجنود والحرس .

وفى عهد «أوثيس» ابن «مينا» أقيمت حول المدينة الناشئة أسوار ضخمة لحمايتها من غارات الليبيين التى كانت لم تزل مستمرة وللدفاع عنها ضد هجمات الأعداء فى الحروب التى كانت لم تزل محتملة مع مدن الشمال . ثم زيد فى تحصينات قلعتها زيادات هائلة .

وقد بنيت هذه الأسوار وهذه الحصون الحربية على الأرجح من الأحجار الضخمة الناصعة البياض المخلوعة من محاجر طره والمعصرة ، فكانت المدينة تبدو من بعيد فى جلال وهيبة مخيفة ولذا سميت بالهيووغليغية «إنب - حز» ومعناها الأسوار البيضاء أو القلعة البيضاء .

ولم تكن هذه المدينة فى عهد الأسرتين الأولى والثانية من سنة ٣٢٠٠ إلى سنة ٢٨٩٥ ق . م . عاصمة المملكة المتحدة كما ذكر الكثيرون خطأ ، لأن ملوك هاتين الأسرتين لم يغادروا الصعيد موطنهم الأصيل فى هذه الفترة من الزمن بل بقوا هناك وجعلوا هذه المدينة الناشئة معقلاً متساطاً على طرق الملاحة فى جميع فروع النيل يشرفون منه على حكم بلاد الدلتا التى فتحت حديثاً وضمّت إلى ملكهم .

ولكن منذ حكم الأسرة الثالثة سنة ٢٨٩٥ ق . م . زادت أهمية مدينة «إنب - حز» (الأسوار البيضاء) زيادة هائلة فقرر ملوك هذه الأسرة ترك الصعيد والإقامة فيها نهائياً فكان ذلك بدء سطوع شمس منف .

وفى عهد الأسرة السادسة بلغت هذه المدينة أوج عظمتها فأنشأ الملك بيبى الأول حياً جديداً إلى جنوبها وجعله مقراً ملكياً وشيد بالقرب منه هرمه المعروف وأطاق على الحى الجديد والهرم اسم «من - نفر» ومعنى ذلك «يبقى الجمال» وقد تطور هذا الاسم فيما بعد إلى اسم «منف» بالقبطية ، ومنفيس باليونانية ، ومنف بالعربية ، وأطلق على المدينة بأكلها .

على أنه مما يلفت النظر أن منف هذه ذكرت فى التوراة باسم «نوف» !!

فهل كانت هذه الكلمة جزء من مركبات الاسم الهيروغليفي لعاصمة مصر الأولى ؟! هذا مانعته !!

جاء فى التوراة على لسان حزقيال النبو النبؤات المرعبة التالية التى ذكرت فيها «منف» باسم «نوف» وذلك بمناسبة غزو بختنصر ملك بابل لمصر . جاء فى (ج ١٣ من الإصحاح ٣٠) :

«هكذا قال السيد الرب وأبيد الأضنام وأبطال الأوثان من نوف . ولا يكون بعد رئيس من أرض مصر . وألقى الرعب فى أرض مصر .»

ثم جاء في (ج ١٦) : « وأضرم ناراً في مصر . سين تقوِّج توجعاً . ونو تكون للتمزيق . ولنوف ضيقات كل يوم . »

و « سين » هي الفرما أو بيلوز ومكانها اليوم تل الفرما على بعد ٣٥ كيلومتراً شرقي بور سعيد كما سبق علمنا . أما « نو » فهي « نو آمون » أي « مدينة آمون » أو « طيبة » ومكانها اليوم الأقصر والكرك . ونوف هي منف أو منفيس موضوع هذا البحث .

ومنذ إنشاء مدينة منف ، وتوحيد مملكتي القطر المصري في عهد الملك مينا ، لقب ملك البلاد الشرعي في البروتوكول بالألقاب التالية :

« ملك الوجه القبلي وملك الوجه البحري » وكذلك « رب الأرضين » و « نسر الجنوب وصل الشمال » ومعنى ذلك سيد الجنوب وسيد الشمال .

وكان الملك في أول الأمر يحمل التاج الأبيض الخاص بالجنوب أو التاج الأحمر الخاص بالشمال ، ولم يحمل التاج المزدوج إلا في أواسط حكم الأسرة الأولى .

وقد وجدت في حفائر « هيرا كنبوليس » وهي مدينة « نيبخاب » القديمة التي تعرف الآن باسم الكاب بمركز أدفو بمديرية أسوان ، وكانت عاصمة المملكة الجنوبية قبل توحيد المملكتين ، أقول وجدت في حفائر هذه العاصمة لوحة من الأردواز وهي محفوظة الآن بالمتحف المصري .

ولهذه اللوحة وجهان محفوران حفراً بارزاً يشهد لصانها بالدقة والمقدرة .

والجزء الأعلى من كلا الوجهين يحمل اسم « نارمر » وهو الملك « مينا » مكتوب بالهيروغليفية بين رأس بقرتين تمثلان الإله هاتور .

وأحد الوجهين يشمل منظرين : فالمنظر العلوي يمثل الملك لابساً التاج الأبيض (تاج الوجه القبلي) متبوعاً بحامل نعليه وقابضاً بيده اليمنى على عصا قصيرة لها رأس على شكل كرة يضرب بها عدوه الراكع أمامه ، بينما أمسكت يده اليسرى شعر هذا العدو المسمى « واش » . وقد ذكر فوفه ما يعنى أن الإله « حور » قد أحضر الملك أسرى من الدلتا (أرض نبات البردي) . والمنظر السفلي يمثل عدوين عارين فارين .

أما الوجه الثاني من اللوحة فيجوى ثلاثة مناظر : فالمنظر العلوي يمثل الملك لابساً التاج الأحمر (تاج الوجه البحري) متبوعاً بحامل نعليه ومسبوقاً بوزيره وبأربعة من حملة الأعلام وأمام هؤلاء عشرة أسرى قطعت رؤوسهم ووضعت بين أقدامهم ، وقد كتب فوقهم أسماء المدن التي فتحها مينا في الوجه البحري وفي ليبيا .

والمنظر الأوسط يمثل حيوانين عجيبين والمنظر الأسفل يمثل ثوراً ينطح قلعة وهذا رمز انتصار الملك على أعدائه . وتعتبر هذه اللوحة الفريدة في بابها أجمل ذكرى بقيت للآن عن توحيد أراضي مصر الشمالية والجنوبية تحت

حكم ملك واحد ، وما ترتب على ذلك من تأسيس مدينة جديدة أصبحت في عهد الأسرة الثالثة عاصمة الدولتين القديمتين وكانت تقع عند نقطة تلاقيهما بالقرب من رأس الدلتا .
والصورة المنشورة تحت هذا الكلام تمثل بطريقة حديثة ماخص ما جاء على وجهي هذه اللوحة . .



الملك مينا وتوحيد البلاد . وتراه في هذه الصورة وقد لبس التاج الأبيض تاج الوجه القبلي متبوعاً بحامل نعليه وقابضاً يده اليمنى على عصا قصيرة لها رأس على شكل كرة يضرب بها ملك اللبيين بينما أمسكت يده اليسرى شعر هذا الملك المسمى « واش » . وأمام مينا حملة الأعلام وعليها شعار المقاطعات التي فتحها مينا في شمال الدلتا . وبجواره وزره وقد فر جنود المملكة اللبية وسقط أغلبهم صرعى ونلاحظ على ركبهم وأذرعهم الوشم كما نلاحظ النيران التي تلتهم مدنهم .

وظلت منف عاصمة القطر المصري السياسية ابتداء من حكم الأسرة الثالثة حتى نهاية حكم الأسرة الثامنة أي من سنة ٢٨٩٥ ق . م . إلى سنة ٢٣٦٠ ق . م . لمدة ٥٣٥ سنة .

وبعد أن نقل منها مركز الملك بمدة طويلة كانت لم تزل مع ذلك مدينة مشهورة عظيمة .

ومع أنها وقعت سنة ٧٢٢ ق . م . في يد بغانجي الحبشي . ثم وقعت مرة ثانية في يد الأشوريين عند ما غزوا مصر في سنة ٦٧١ ق . م . في عهد الملك طهراقه الذي فر مع جنوده إلى مصر العليا تاركاً زوجته الجميلة الملكة « آمون — دياك — هت » أسيرة في يد الملك « آزارهاوون » الأشوري . ثم وقعت مرة ثالثة في يد الفرس عندما استولى قبيز علي مصر سنة ٥٢٥ ق . م . بعد انتصاره على بسامتيك الثالث في مدينة بيلوز (تل الفرما على بعد

٣٥ كيلومتر شرقى بور سعيد) — أقول بالرغم من أن مدينة منف وقعت فى أيدي هؤلاء الغزاة الذين نهبوا الكثير من كنوزها ، فإنها ظلت مع ذلك محتفظة بعظمتها وجمالها وسعتها وغناها .



فى سنة ٦٧١ ق . م . غزا الآشوريون مصر — ففر الملك طهراقه وجنوده إلى مصر العليا . واستولى الآشوريون على مدينة منف ووقعت الملكة « آمون — دياك — هت » زوجة الملك طهراقه (الأسرة ٢٥ وعاصمتها مدينة نباتا بجوار جبل بركة بالسودان) أسيرة فى يد الملك « آزارهاوون » الآشورى . وتراه فى هذه الصورة يستجوب الملكة الأسيرة التى لبست على رأسها تاجها الذهبى ذى الريشتين وقرنى هاتور وقرص الشمس وقبضت فى يمانها شعار كهنة معبد هاتور .

وللعجل أيبس جبين أبيض كما أن ببعض أجزاء صغيرة من جسمه نقط بيضاء وفيما عدا ذلك لجسمه أسود فاقم . وهذه العلامات هى التى يتميز بها العجل أيبس . ولا بد من توفرها عند انتخاب خليفة للعجل الذى يموت . وأمام القسم الذى يقيم فيه العجل أيبس يوجد حوش كبير به مكان خاص يقيم فيه البقرة التى ولدته . وفى ساعة معينة من النهار يخرج العجل أيبس إلى هذا الحوش لكي يراه الشعب ، لأنه وإن كان للقسم الذى

ولم تفقد منف أهميتها إلا بعد تأسيس مدينة الإسكندرية سنة ٣٣٢ ق . م . وذلك لكثرة ما كان قد أصابها من التضعضع والضعف وبعد أن بلغ عمرها حوالى ٣٠٠٠ سنة . حتى صارت أغلب معابدها وقصورها خرابا ، وبعد أن نقلت مهمات مبانيها العظيمة لبناء الإسكندرية .

ومع ذلك فبعد مضى ٣٥٠ سنة على تأسيس الإسكندرية زار استرابون مدينة منفيس وقال يصف بعض ما رآه فيها :

« على بعد ثلاثة فراسخ من بداية الدلتا توجد مدينة « منفيس » (كانت بداية الدلتا إذ ذاك حيث جزيرة الوراق الآن) هذه المدينة القديمة التى كان يقيم بها ملوك مصر الفرعونية ، ولا يزال بها كثير من المعابد أهمها معبد العجل « أيبس » وهو الحيوان الذى يتقمص روح الأله « أوزيريس » على الأرض . وبداخل هذا المعبد يوجد محل خاص يقيم به العجل يأكل ويعبد .

لتين

فى على
بنا حلة
مصرعى

تأى

غزوا

الملكة

عند ما

بعد

يقوم فيه بالمعبد شباك خاص يمكن رؤيته منه ، إلا أن الشعب يحتم رؤية العجل يمرح بحريته التامة بجوار أمه في الحوش الكبير الموجود أمام المعبد .

وإلى جوار معبد « أيس » يوجد معبد « هفستريوم » وبه جزء كبير مخصص أيضاً للعجل أيس ينتقل إليه في بعض المناسبات الخاصة بطقوس عبادته . وأمام مدخل هذا المعبد يوجد تمثال هائل للاله أوزيريس مصنوع من حجر وحيد وجرت العادة أن تقام بحوش هذا المعبد معركة للثيران التي تربي خصيصاً لهذا الغرض كما تربي الخيول للسباق . وعند خروج الثيران إلى هذا الحوش تنشب المعركة بينها ، ومن ينتصر يهمل له الشعب طويلاً ويعطى علفاً زائداً كمكافأة له على انتصاره .

ويوجد بمدينة منفيس أيضاً معبد « فينوس » أو « أفروديت » وبها أيضاً معبد « السرابيوم » ولكن هذا المعبد الأخير كاد يختفي تحت الرمال . وعند ما زاره استرابون وجد تماثيل أبو الهول الموجودة أمامه قد اختفى بعضها إلى رأسها وبعضها إلى منتصف جسمها في الرمال .

ثم قال : ومنفيس مدينة كبيرة كثيرة السكان وهي ثاني مدن القطر المصري بعد الإسكندرية . ومدخل المدينة وكذا مداخل قصور ملوكها محصنة تحصيناً متيناً وأمام أبوابها بحيرات عميقة لحمايتها عند اللزوم .

وكانت هذه القصور — وهي الآن (أي في عصر استرابون) خربة ومهجورة — تقوم على رأس تل مرتفع وتنحدر معه حتى تصل إلى منسوب شوارع المدينة الأصلية حيث تنتهي ببجيرة وغابة كبيرة .

ومنفيس كالأسكندرية يوجد بها كثير من الأجانب من جميع الأجناس فيها السورى واليهودى والأسىوى وكلهم يقيمون بحى الآلهة « باست »

أما الفينيقيون واليونان والكاربتيون فكانت أحياءهم الخاصة بهم منعزلة عن غيرها .

ولكل طائفة في منفيس آلهتها الخاصة فهنا تجد معبد « أفروديت » اليونانية و بجواره معبد « أيس المصرى » . هذه هي منفيس كما رآها استرابون الذى زار مصر في القرن الأول الميلادى حوالى سنة ٢٢ م . فانظر كيف تداولت على هذه المدينة أمم مختلفة ومع ذلك فقد قاومت وعاشت بعد ذلك مدة طويلة .

وفي العصر المسيحى سنة ٣٧٩ م صدر مرسوم الإمبراطور تيودوسيوس الذى جعل المسيحية الدين الرسمى للبلاد ، فتعرضت مدينة منف للتخريب والنهب ولم ينبج من الهدم والحريق لا « معبد فتاح » العظيم ولا معبد « أيس » ولا معبد « أفروديت » . . . وتكسرت تماثيل الآلهة القديمة ، وقام المسيحيون بهدم وإخفاء معالم المدينة الشهيرة واستعملوا أحجارها في بناء كنائسهم الجديدة .

ومن ذلك العهد والمدينة تسير إلى الاضمحلال والموت .

وفي وقت فتح العرب لمصر على يد عمرو بن العاص كانت أطلال منف لا تزال ماثلة في الموضع الذي كانت فيه عاصمة لدولة الفراعنة . وكان فيها مساكن عدة لا تزال آهلة .

فلما استقر الأمر للعرب وشرعوا في بناء مدينة الفسطاط بجوار حصن بابليون استعملوا الحجارة المنقولة من مباني مدينة منف عاصمة مصر القديمة في تشييد ما أقاموه هناك من مساجد وحصون ودور حكومية وغير ذلك . ومنذ ذلك الحين هجرت منف وسارت إلى الموت بخطوات واسعة فمن أحجارها المنحوتة أذن بنيت العاصمة الجديدة للإسلام . ثم بعد قليل تحوالت مدينة منف العظيمة إلى أنقاض مبعثرة متهدمة .

قال ابن الفقيه : « منفيس مدينة فرعون لها أسوار ضخمة بها سبعون باباً من الحديد والنحاس . »

وقال اليعقوبي : « إن مدينة منفيس متهدمة »

وقال أبو بكر المتوفى سنة ٧٣٥ م . : « أدركت مقياس النيل بمنف ويدخل المقياس بزيادته كل يوم إلى الفسطاط . »
وكان ماء النيل قديماً يصل إلى مقياس معبد منف بسهولة .

وفي زمن ديدور وأسترابون كان هذا المقياس أشهر جميع المقاييس التي كانت بالجهات الأخرى .

والواقع إن أول ما تطرق الخراب والنقص على مدينة منف كان من ابتداء حكم الفرس أرض مصر . ومع ذلك فقد وصف الشيخ عبد اللطيف الطبيب البغدادي الذي زار مصر سنة ١٢٠٠ ميلادية بقايا منفيس كما يأتي :

كانت حدود منفيس تقدر بمسيرة نصف يوم من جميع جهاتها وقد رأيت بها آثاراً ضخمة منها أثر جليل مصنوع من حجر وحيد يسمونه « البيت الأخضر » ، ومنها تماثيل عالية وحوائط سميكّة وعقود مرتفعة وأعمدة هائلة كما أن أسوار المدينة المبنية من الأحجار الصغيرة والطوب لا تزال باقية . ثم قال : وبالرغم من عظم هذه المدينة ، ومهما فعلت الشعوب المختلفة لمحوها وتضييع معالمها ومهما أجهدوا أنفسهم في نقل الأحجار والمواد التي كانت مبنية بها ومهما خرّبوا في مبانيها ، ومهما شوهوا في تماثيلها ، فإن أنقاض هذه المدينة تظهر أمام الناظرين كمجموعة مذهشة من العجائب التي تحير الأبواب ، ومن المستحيل على أي إنسان مهما كان بليغاً أن يصفها .

وأما « البيت الأخضر » الذي ورد ذكره في وصف الشيخ عبد اللطيف البغدادي فلم يجزؤ إنسان على مسه إلا في القرن الرابع عشر الميلادي سنة ٧٥٠ هـ أي سنة ١٣٤٩ م حين أتى الوزير سيف الدين شيخو العمري في عهد ولاية السلطان حسن الثانية من سلاطين دولة المماليك البحرية فأمّر بكسر هذا الأثر ونقل أحجاره لإدخالها في أبنية مسجده المعروف الآن باسم جامع شيخون القبلي بالصليبية تجاه جامع البحرى وهما واقعان بشارع شيخون بقسم الخليفة بالقاهرة في جهة القلعة .

واليوم ماذا بقي من منفيس العظيمة !!

حتى الأتقاض اختفت !!

وفي هذا السهل الذي يمتد من شواطئ النيل إلى هضبة صحراء ليبيا لم يبق من المدينة العظيمة ظل قائم !!

ولكن الطبيعة أعاضتها عن ذلك بمدفن يليق بعظمتها !!

فهنا حيث كانت الشوارع والميادين والمعابد والقصور والمنازل لم تعد إلا أشجار عالية من النخيل بشكل

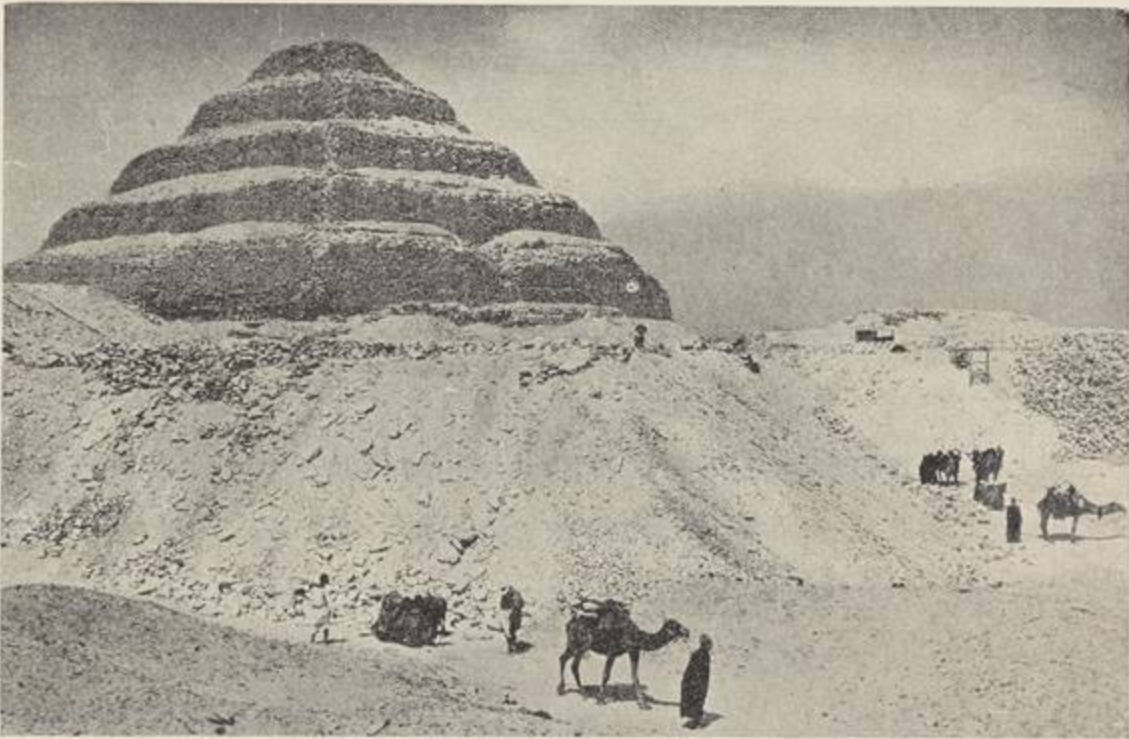
غابة علياة النسيم !!

هنا حيث كانت تموج المدينة بالسكان لم يعد إلا تمثالان ضخمان راقدان تحت ظل النخيل الهادي !!

وهذه الغابة تحتم على الانسان السكون والتأمل والهدوء وهو يسير في طرق منفيس القديمة إلى مدافن السرايوم

حيث كانت تدفن العجول أبيس في توابيت هائلة من الجرانيت ظلت مخفية إلى أن كشفها

مریت باشا العظيم !!



كيف بنى الهرم المدرج وسبب بنائه : عثر على أول قبر بني للملك زوسر في « بيت خلاف » القريبة من العراية المدفونة وهو على شكل مصطبة . غير أن زوسر لم يرض بأن يكون مقره الأخير هناك ويحتمل أن « أحموتب » مهندسه المعماري العظيم وجه نظره إلى منطفة سقارة القريبة من محاجر طرة حيث يسهل قطع الأحجار الجميلة لبناء القبور والمعابد القريبة من مقر الحكم بمدينة منف . وتدل الظواهر على أنه أقام نفسه مصطبة من الحجر الجيري المهذب ، ثم بنى فوقها ثانية أقل مساحة ، ثم ثالثة أقل مساحة من الثانية وهكذا ، حتى بلغ عدد المصاطب سبعا وهو الرقم المقدس في جميع الأديان وكان غرض زوسر أن يشرف قبره على قبور رجال بلاطه وعظما دولته التي كانت حول قبره . ويكون أول بناء ترسل الشمس أشعتها عليه من كل جوانبه عند ما تشرق في الصباح

ولم يزل اسم طريق الكباش الذى كان ممتداً أمام معبد «فتاح» بمنفيس وهو «مات - رهنث» باقياً
للآن فى اسم قرية ميت رهينة الحالية .

وبالقرب من هذه القرية توجد الهضبة الصحراوية التى تضم مقابر الأجيال التى تعاقبت لمدة خمسين قرناً
فى مدينة منفيس !

هنا وهناك بعض الأحجار المبعثرة فى السهل !! تماثيل ضخمة ملقاة وسط الحقول !! ومدافن كثيرة
تحت الرمال .

هذا هو كل ما تبقى من عظمة منفيس !!

أما من جياتها فقد بقيت آثار هائلة تمتد من هرم أبو رواش شمالاً إلى هرم اللاهون عند مدخل مديرية الفيوم
جنوباً بطول ٨٠ كيلومتراً تقريباً !!

بقيت شوارع بين القبور ترى على جوانبها هرم «زوسر» المدرج، وهرم «أوناس»، وآثار هرم «تيتى»،
وهرم الملكة «أويت»، ومصطبة فرعون .



لم يكن القبر الملكى يشمل الهرم وحده . بل كان لىكل هرم معبدان . وقد كشفت الحفائر الحديثة بجوار هرم خفرع (الثانى) عن
المعبد الجنائزى الملاصق للهرم من جهته الشرقية وكذلك عن الطريق الموصل إلى معبد الوادى وطوله ٦٠٠ متر تقريباً . وقد أثبت
الكشف الحديث أن تمثال «أبو الهول» صنع فى عهد الملك «خفرع» وعلى صورته . وفى سنة ١٩٣٧ اكتشف
الأستاذ سليم بك حسن أكثر من ١٥٠ لوحة تذكارية لزيارات الملوك لهذا التمثال .

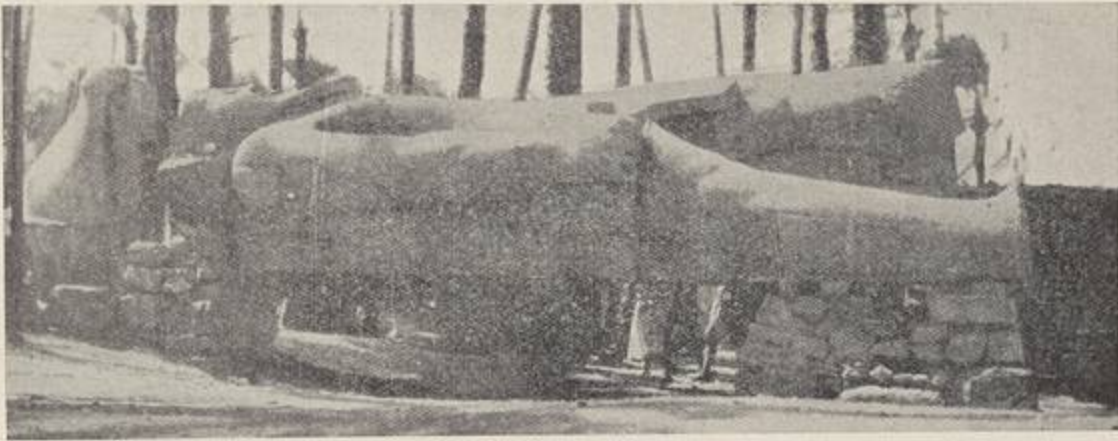
وبالقرب من الجزيرة بقيت أهرامات الأسرة الرابعة كالجبال الشاخحة وهي هرم « خوفو » و يبلغ ارتفاعه ١٤٦ متراً كما يبلغ حجمه ٢٣٠٠٠٠٠٠ متر مكعب وهرم « منكاورع » وهرم « خفرع » و بجواره تمثال أبو الهول الصامت !!

هذا كل ما تبقى من جبانة الأجيال التي تعاقبت لمدة خمسين قرناً في مدينة منفيس !!

وربما تكون لفظ « إيجيبت » التي سميت بها مصر في العصر اليوناني مجرد تحريف لأحد أسماء هذه الجبانة الهائلة باللغة الهيروغليفيه وهو « هت - كا - بتاح » ومعناها (أرض قرينة الإله فتاح) فنطقها الوافدون من الأغريق بحرفة هكذا « إيجبتاه » ثم أضافوا إلى هذا الاسم المقطع « أوس » كما هي عادتهم فأصبح الاسم « أيجبتاوس » ثم « إيجبتوس » وأخذها عنهم الرومان . ثم انتقلت بعد ذلك إلى اللغات التي أخذت عن اليونانية هكذا « إيجيبت » وعرف أهلها عند العرب باسم « جبت » أو « قبط » .

ومما يجب ذكره بهذه المناسبة أن « مصر » لم تكن معروفة بهذا الاسم عند أهل البلاد أنفسهم في العهد القديم ، إنما كانت تعرف باسم « كيمي » أي الأرض السوداء ومنها اشتقت لفظة الكيمياء .

أما لفظ « مصر » فيظهر أنها الاسم العبري الذي سميت به هذه البلاد في التوراة وظلت معروفة به إلى الآن !
فهل في هذه الدنيا أعجب من مصر وتطوراتها !!



منف — أحد تماثيل رمسيس الثاني الهائلين اللذين كانا يقومان يوماً ما على مدخل معبد « فتاح » بمدينة منف . وهو الآن ملقى على ظهره في العراء بجوار قرية ميت رهينة يمر به الانسان في طريقه من البدرشين إلى سقاره وكان ارتفاع هذا التمثال في الأصل ٤٢ قدماً

لفصل الثاني

مدينة منف وفنها المبتكر

حديث الفن في مدينة منف هو حديث نشأة العالم الأولى ، أو حديث الحضارة والنور . فإن منف هي التي بثت في العالم الروح الفنية التي تقدر الحسن وتفهم معاني الجمال . وموضوع الفن في تاريخ منف هو موضوع الحياة المصرية القديمة كلها في مدار الحكم الفرعوني . فكل شيء وكل حركة وكل عمل كان للفن فيه أثر . ويكفي أن تشاهد قبراً واحداً من مقابر جبانة منف ، كقبر « تي » مثلاً ، لترى معالم الحياة المصرية القديمة ، منقوشة نقشاً ناطقاً بارزاً ، ينم بدقته وقوته عن استعداد وأهلية وفن راسخ مستقر فني ممتلئ بالقوة والنشاط ،



الفن في عصر منف . عنى الملوك والعظماء بقبورهم المنحوتة في داخل الصخور عناية فائقة . وصرفوا على إنشائها الأموال الطائلة . وزينوا حوائطها من الداخل بالنقوش والصور التي تمثل حياتهم اليومية وحروبهم . وترى في الصورة عمال النحت يقومون بعملهم بينما وقف المبيضون والرسامون والفسانون يطلون الأجزاء التي انتهى نحتها ويقسمونها مربعات متساوية ، وأخذ النقاش يرسم في هذه المربعات صورة الميت من رسم أصلي وضعه رئيس النقاشين على لوحة صغيرة موضوعة أمامه على أرض المقبرة . وأخذ فنان آخر في تحضير الألوان التي يستعملها النقاشون . أما الرئيس الأعلى للعمل فوقف في ركن في الصورة بجوار القدر المملئ بالماء يصدر الأوامر إلى العمال . ويلاحظ في الصورة ترتيب شعر الطفل الصغير الذي يشتغل في نقل الأحجار الناتجة من النحت .

كله رشاقة وجمال ، خرج من يد فنان ، طرزه تطريزاً على الحجر الأصم ، فبدا حياً لا ينقصه إلا الكلام .
هنا في قبر « تى » ابن الفلاح الذى وصل بجده ونشاطه إلى أعلى مراتب الدولة وتبوأ مركز الوزارة ورئاسة
الكهنة فى عهد الأسرة الخامسة ، ترى فن « منف » وحياة « منف » .

هنا ترى الجزارين فى عملهم اليومى يقومون بذبح الماشية وسلخ جلودها .
هنا ترى الأوز يسمن والبجع يغذى .

هنا ترى حصاد القمح وصناعة الزجاج وحبلى الأبقار وتحصيل الضرائب الحكومية وصيد الطيور .
هنا ترى صالات الرقص والمرابك المعدة لصيد التماسيح والعسنت (جاموس البحر المعروف أيضاً باسم فرس البحر) .
هنا ترى القزم يقود قرداً وكلباً .

هنا ترى الحياة الطبيعية ناطقة منقوشة بدقة وأمانة .

هذا هو سر العظمة مع الفخامة والقوة مع النبالة التى تشاهد فى فن منف .
وبالرغم من بعض التغييرات القليلة فى بعض النواحي فقد احتفظ فن منف طول مدة حياته ، وتقدر بنحو
٥٠ قرناً بطرازه الأصيل .

وإنك لترى هذه الميزة ظاهرة تماماً ليس فقط فى المباني ولكن أيضاً فى الرسوم المحفورة على الأحجار وفى التماثيل
حيث تجد نفس الأوضاع ونفس الحركات ونفس القواعد محترمة بدقة متناهية .

وليس معنى ذلك أن هذا الفن فن رجعى لم يتقدم مع الأجيال . كلا ! فسوف ترى معنا بعد قليل بأى مهارة
عرف أهل منف زخرفة مبانيهم بزخارف مختلفة جذابة تتطور مع الزمن تطوراً وقوراً متشداً يساير كل عصر من
عصوره الطويلة . ولا شك أنك ستحكم بعد ذلك بأن هؤلاء القوم هم بلا مراء أساتذة العالم فى كل فن من فنونهم
سواء فى الزخرفة أو التصوير أو فى فن تأثيث منازلهم أو حتى فى صناعة أدواتهم البسيطة الشائعة الاستعمال .

لا بد أنك ستلمس تلك المهارة الفائقة فى صناعة أوانى منف ومنسوجات منف وأثاثات وحلى نساء منف .

لا بد أنك ستلمس تلك المهارة الفائقة فى الطريقة التى كانت تزرع بها حقول منف ، وفى الطريقة التى كانت
تدار بها دواوين الحكومة فى منف ، وفى الطريقة التى كان يمارسها كهنة منف لتعليم الشعب وإقامة طقوسهم
الدينية وختان أطفالهم ، وفى الطريقة التى كان يتبعها الكتبة فى منف لضبط حساب المحصولات الزراعية وتحصيل
الضرائب الحكومية ، وفى الطريقة التى كان يتدرب عليها جيش فرعون بمنف ويمارس بها الفنون الحربية المختلفة .

لا بد أنك سترى فى أزياء الرجال وفى أزياء الأطفال وفى أزياء الخدم وذوى الحرف الأخرى وفى أغذية
الرأس وفى صناعة النعال ما يجعلك تقر بأن هذه الأزياء تناسب بيئة منف وطقس منف .

لا بد أنك ستجد في عادات القوم وفي ألعابهم الرياضية وولائمهم بمناسبة الأعياد والمواسم وأيام العطلة والحفلات العائلية ما يبهج النفس ويدخل عليها السرور والغبطة .

لا بد أنك ستجد في حياتهم المنزلية وفي ألعاب أطفالهم وفي نظام مدارسهم ما يدل على أي حد بلغت مدينة منف وحضارتها .

أنظر إلى الصور المنشورة بعد هذا الكلام ثم احكم على منف وحضارة منف وحياتة منف وفن منف !!
ومع وجود كل ما لدينا من ذخائر فن منف فاننا ما زلنا نجهل الكثير من الحقائق والنواحي التي ستكشفها لنا الحفائر المنتشرة في نواحي عاصمة مصر القديمة العظيمة في يوم من الأيام إن شاء الله .

وإذا دل فن منف على شيء من صفات أهله ، فانما هذا الشيء الناطق في ثنايا هذا الفن هو الوقار المتناهي في طباع هذا الشعب العظيم ، ولا غرابة في ذلك ، فهذا فن نشأ في أرض الآلهة ، أرض الصمت والوقار والتعبد ، وليس من صفات العبادة ، إظهار الغبطة ولا اللهو ولا المزاح ، ولذا فانك تجد كل شيء في هذا الفن من تماثيل وزخارف ونقوش وغير ذلك وقوراً محترماً .

الطريقة التي كانت تدار بها دواوين الحكومة في منف .

جماعة من الكتبة المتملمين في ديوانت من دواوين الحكومة . وقد جعلت تيجان أعمدة الديوان بشكل زهر اللوتس . وبجانب كل كاتب صندوق صغير من الخشب فيه أدوات الكتابة وهي مقلمة بها أقلام القصب (البوص) الرفيع ، ومخبرتان بأحدهما حبر أسود وبالأخرى حبر أحمر وبجوارها القوالب التي يصنع منها الحبر بواسطة مزجه بقليل من الماء وقد وضعت أمامه لفائف أوراق البردي التي يستعملها لتدوين ما يمليه عليه رئيس كتاب السجلات المسكينة .

وكانت وظيفة الكتائب في العصر المنفي وظيفة مرغوبا فيها جداً . والواقع أن الكتاب كانوا يخورن بمعلوماتهم وبخاصة أنهم كانوا يحكم عملهم واقفين على كل القرارات الهامة في مصالح الحكومة .

وكانت لهم ألقاب شرف خاصة مثل رئيس أسرار كل أوامر الملك ، رئيس أسرار كل القرارات القضائية ، رئيس أسرار الكلام المقدس ، رئيس أسرار محكمة العدل وغير ذلك .





الحياة الاجتماعية في عصر منف — مأدبة رسمية أقامها رئيس الكهنة وقد وقفت الخادמות العاريات يقدمن لضيوف مالد وطاب من الأكلات والمشروبات والزهور بينما كانت الموسيقى تشف آذانهم



تدريب الجيش في عصر منف . وترى المصارعة بين جنديين من أبطال الرياضة البدنية في حضرة الأمير وزوجته الجميلة !

أثر الطفوس الدينية في فن منمن :

كان قوام الديانة المصرية في عهد منمن الاعتقاد الثابت بالحياة الأخرى ، ووجود القرينة أو بما يسمى « خا » وربما تكون لفظة أخ وأخت العربية مشتقة من هذه الكلمة المصرية . فكل إنسان يولد تولد معه القرينة ، وهي صورة طبق الأصل لجسمه ولروحه . وهذه القرينة تحيا بعد موته ولكن بشرط واحد وهو أن يحتفظ لجسمها بشكله الأصلي تماماً .

ومن أجل هذا الاعتقاد ، بذل أهل منمن أكبر ما يمكن من الجهود البشرية ، في سبيل الاحتفاظ بأجسامهم سليمة أطول مدة ممكنة ، وفي سبيل حمايتها من أى شيء يمكن أن يلحق بها الضرر . فاستعملوا التحنيط في بادئ الأمر . ولكن خوفهم من أن لا تقوى المومياة على البقاء إلى الأبد ، جعلهم يضعون في المقابر بجوارها صوراً حية للجبنة في أيام شبابها ، وصوراً تمثل الميت في جميع أطوار حياته ، وتمثل ما كان يمارسه من الأعمال ، وصوراً تمثل كل حركة وكل شيء في حياته الدنيا ، وذلك حتى تهتدى القرينة إلى صاحبها فتحيا معه حياة سعيدة ناعمة في حقول أوزيريس اليانعة أى في الحياة الأخرى .

وكانت نتيجة هذه الاعتقادات الدينية إقامة المباني الضخمة المتناهية في المتانة والتي لا تزال للآن أعجوبة الزمان وهي المعابد والأهرامات والمصاطب والمقابر المنحوتة في الصخور . مع التننن في إخفاء المومياة في طياتها حتى تبقى سليمة إلى يوم البعث .

وقد كثرت هذه المقابر أو قلاع الموتى حتى اكتظت بها جبانة منمن اكتظاظاً هائلاً فانتشرت وامتدت من أهرام أبورواش شمالاً حتى هرم اللاهون عند مدخل مديرية الفيوم جنوباً بطول ٨٠ كيلومتراً تقريباً كما قلنا سابقاً . وكان بهذه الجبانة كثير من معابد الشمس مصدر الحياة كما كان بها مقبرة لاجل « أيس » . (السرابيوم)

الطراز الفرعونى في فن العمارة :

وتتمثل عظمة الجهود الأول الذى بذله العقل البشرى في المظهر الرائع الذى ظهر به هذا الطراز الفرعونى الجذاب في معابد ومقابر مدينة منمن .

هذا الطراز الذى يتميز بطابع خاص في تاريخ فن العمارة .

فهو فى أصله وتفصيله وليد طبيعة بلاده لا يشوبه عنصر ولا طراز أجنبى . فهذه الأعمدة المضلعة فى معبد هرم « زوسر » الجنازى ، وهذه الأعمدة ذات التيجان التى تمثل فروع النخيل وزهر اللوتس فى معبد فتاح ، وهذه المصاطب وهذه الأهرامات الناقصة أو الكاملة وهذه المسلات الرشيقة فى معابد الشمس ، إنما كلها مقتبسة من الطبيعة المحيطة بهذا المكان .

فن منف منذ عهد زوسر

يعد الملك زوسر مؤسس الأسرة الثالثة والذي حكم سنة ٢٨٩٥ ق. م. تقريباً لمدة ٢٩ سنة أول ملك بنى لنفسه مقبرتين : واحدة منهما بصفته ملكاً للوجه القبلي أقامها في بيت خلّاف إلى شمال العرابية المدفونة بمديرية جرجا وجعلها على شكل مصطبة ضخمة من اللبن وبها منحدر عميق وعدة حجرات تحت الأرض .



أما المقبرة الثانية فقد شيدها بصفته ملكاً للوجه البحري بعبادة منف على الهضبة الليبية وهي المعروفة الآن باسم هرم سقارة المدرج . ويقول علماء الآثار إن هذا البناء هو الحلقة المتوسطة بين المصطبة والهرم الحقيقي .

والمهندس الذي وضع تصميم هذا البناء الغريب الذي يعتبر أول وأضخم بناء من الحجر في القطر المصري هو « أمحوتب » الذي كان فوق نبوغه في الهندسة ، رئيساً للكهنة ومؤلفاً قديراً له علم تام بالفلك والسحر والفلسفة والإدارة ، وكان فوق ذلك طبيباً ماهراً حتى إنه بعد موته اعتبر إلهاً للطب .

وقد عثر أخيراً في أحد سرايب الهرم المدرج على تمثال جميل للملك زوسر كما كشفت الحفريات عن معبدة الجنائزي وعن مقبرتي ابنتيه . ويعد هرم زوسر ومعبده الجنائزي وملحقاته الأخرى ، أغم وأجمل مجموعة من المباني شيّدت من الحجر السلطاني الجميل الناصع البياض المخلوع من محاجر طرة ، في تاريخ فن المعمار .

حوالي ٢٨٩٥ ق. م. اعتلى الفرعون زوسر رأس الأسرة الثالثة عرش مصر . وكان وزيره أمحوتب مهندساً قديراً ، فبنى له هرم سقارة المدرج ليُدفن فيه بعد موته . وهذا الهرم مؤلف من سبع مصاطب بعضها فوق بعض ، وارتفاعه ١٩٠ قدماً وفي داخله أبياء تنتهي بئر كبيرة في قاعها مخدع الملك . وكان الهرم مغطى بطبقة من الحجر الجيري الدقيق ، يحيط به سور عظيم . وقد أقام أمحوتب حول هذا الهرم مدينة كاملة بها المخازن والأحواش والمصاطب والمقابر المخصصة لأفراد العائلة المالكة وكبار رجال المملكة . وخطط أمحوتب الهرم ومدينته الجنائزية وبنائها دفعة واحدة . وتعتبر هذه المجموعة من أقدم المباني الحجرية المعروفة في العالم . وترآه في الصورة أمام مليكة فوق أحد أسوار مدينة الهرم ، وقد ارتدى جلد النمر شعار رئيس الكهنة وهي وظيفة من وظائفه العديدة يصرح المبني وتفصيله .

وتعد الأعمدة المضلعة الجميلة التي تزين ردهات وواجهات المعبد الجنائزي ، ذات الست عشرة ضلعاً المقعرة والثماني عشرة ضلعاً المحدبة ، بشكلها الكامل ونسبها البديعة وقطاعها المتناسق ، من أجل الابتكارات التي ترفع فن محوتب إلى القمة .

أما فكرة هذه الأعمدة فمأخوذة عن شكل حزمة من جزوع البردى موثوقة من الأسفل فتظهر فيها الأضلاع المقعرة والأضلاع المحدبة إذا ما أخذ فيها قطاع . ولا شك أن محوتب اقتبس قطاع أعمدته من هذا المنظر . ثم نقل عنه اليونان هذا النموذج الفذ وحوّلوه إلى العمود الدوري المشهور .

والآن يرجع الفن المعماري الحديث إلى فكرة الأعمدة المضلعة غير المستقلة والمتصلة بالحائط بعد أن ابتكرها محوتب في المعبد الجنائزي لهرم زوسر منذ ٥٠ قرناً مضت !!

وقد عثر أخيراً في دهاليز الهرم المدرج على أوان من الأحجار الصلبة النادرة مثل المرمر والشست والجرانيت والديوريت والأردواز وغير ذلك ، يبلغ عددها أكثر من ثلاثين ألفاً ، غير أن معظمها وجد مهشماً ، وربما يرجع ذلك إلى زلزال أرضي أو إلى أنها قد كسرت عمداً لأسباب جنائزية . وقد وجد من بين هذه الأواني أشكال تتم عن منتهى الرقي في دقة الفن وحسن الذوق والأناقة والتنسيق إلى حد يعجز القلم عن وصفه . وقد وجد على بعضها أسماء الأشخاص الذين أهدوها إلى الملك مكتوبة بالمداد الأسود .

وقد كان لهذا الكشف أثر عظيم في تحويل آراء علماء الآثار إلى الأهرام الكبيرة أهرام خوفو وخفرع ومنكاورع وعماعسائه أن يوجد فيها من الخلفات .

وقد قام الأستاذ زكي سعد مفتش الآثار بمنطقة سقارة بتنسيق كثير من هذه الأواني بعد إصلاحها في شبه متحف ملحق بمسكنه بطريقة جذابة مدهشة .

وإنه لحظ بديع لكل من تيسر له زيارة هذا المتحف ليرى بعينه ما لا يمكن وصفه ، خصوصاً وقد وضع الأستاذ زكي سعد داخل هذه الأواني أنواراً كهربائية ، فجعلت من متحفه منزلاً سحرياً مشوقاً .

ولما حكم الملك سنفر وأول ملوك الأسرة الرابعة سنة ٢٨٤٠ ق. م . تقريباً أراد أن يقلد جده العظيم زوسر ، فبنى لنفسه مقبرتين : الأولى في ميدوم بمركز الواسطي بمديرية بني سويف بشكل هرم ناقص على درجتين يبلغ ارتفاعه ٦٥ و٤٣ متراً ، ويسميه العامة الهرم الكذاب لعدم انتظام شكله . وربما لعدم وجود تابوت في حجراته الجنائزية . وقد وجد بجوار هذا الهرم المصاطب التي دفن فيها عظام الملكة في عصر سنفر ومثل « متين » حفيد الملك الذي تدل النصوص المهيروغلييفية الموجودة على صفحات جدران مدفنه على تاريخ حياته ، وهي مرجع ثمين لتاريخ هذا العصر . وبالقرب من هذه المصطبة وجدت مصطبة « راحوتب » و « نيفرت » أصحاب التمثالين الشهيرين الموجودين بالمتحف المصري بالقاهرة . أما راحوتب فقد كان رئيساً للكهنة بعين شمس وقائداً . . الخ ، ولقبه « الأمير الملكي » . وأما زوجته « نيفرت » فكانت إحدى أميرات الأسرة المالكة . وهذان التمثالان أكثر التماثيل إظهاراً للحياة .

ولا يزال لونها محفوظاً بدرجة مدهشة . ويلاحظ فيهما الفارق المعتاد بين لون بشرتهما ، فقد اتخذوا للرجال اللون الأحمر أو الأحمر القاتم وللنساء اللون الأصفر .

أما المقبرة الثانية التي بناها سنفرو فتوجد في دهشور بمركز العياط بمديرية الجيزة ، وهي على شكل هرم كامل مربع القاعدة ، يبلغ ضلع قاعدته ٢١٥ متراً وارتفاعه ٩٥ متراً . وهذا أول هرم حقيقي تطورت إليه فكرة المصطبة منذ القدم .

أما خلفاء سنفرو الثلاثة أي الملك خوفو والملك خفرع والملك منكاورع فهم أصحاب الأهرامات الثلاثة الكبرى التي بنيت على الهضبة الليبية بالجيزة .

وربما كان السر في انتخاب هذا الموقع هو قرب هذه الهضبة من عين شمس مقر عبادة « رع » ثم اتساع هذه الهضبة وارتفاعها بحيث تشرف الأهرامات القائمة فوقها على كل ما حولها . وربما كان السراً أيضاً ما ظهر من أن هذه الأهرامات بنيت بأحجار صلبة ومتينة قطعت من صخور هذه الهضبة نفسها ، وبذلك هدمت — كما قال الأستاذ سليم بك حسن في كتابه مصر القديمة (ج ١ ص ٢٨٨) — نظرية هيروودوت القائلة بأن أحجار الأهرام كانت تجلب إليها من محاجر طرة .

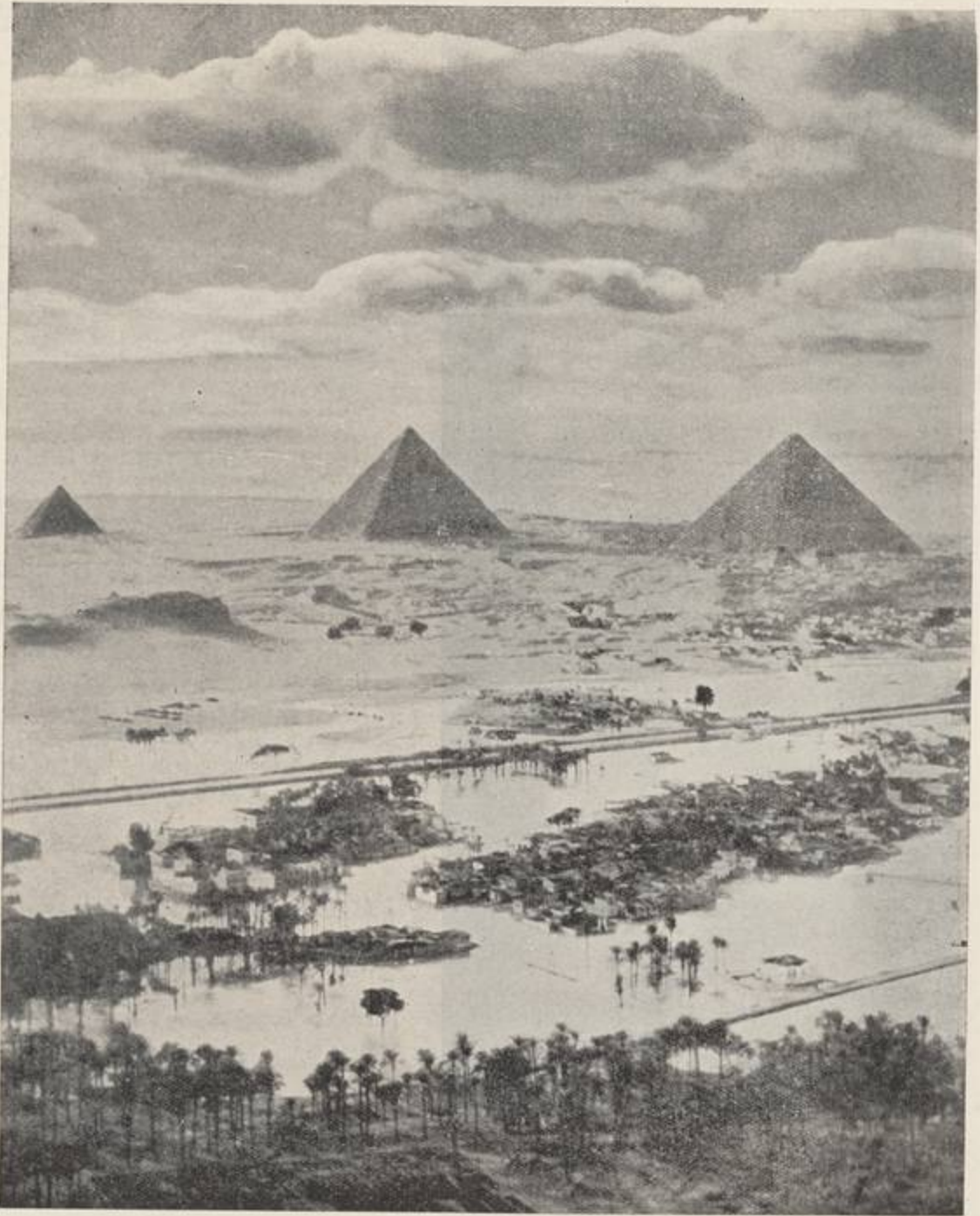
وهذا الخطأ وقع فيه بعض الأثريين الحاليين كما وقع فيه هيروودوت ، ولكن الحقيقة أن الأحجار التي كانت تكسو الأهرامات من الخارج فقط هي التي جلبت من محاجر طرة .

ولم تزل المحاجر التي قطعت منها أحجار الأهرامات ظاهرة واضحة بجوار كل منها يمكن لكل من يريد أن يراها الآن أن يفعل ذلك خصوصاً بعد أن أزيلت عنها الرمال والأتربة التي غطتها آلاف السنين .

وكذلك دلت الكشوف الحديثة على أن المصريين كانوا يستعملون « البكر » لرفع الأحجار ، وقد عثر في حفائر الجامعة المصرية (جامعة فؤاد الأول) على بكرتين إحداهما وجدت بجوار الهرم الثاني ، والأخرى عثر عليها في بيت من بيوت العمال الملحقة بالهرم الرابع .

وبذلك هدمت النظرية القائلة إن بناء الأهرامات كانت تبذل فيه نفوس الشعب وجهوده كما كان موضوع اضطهاد اليهود وغير ذلك مما كنا نقرأه في الكتب القديمة والحديثة أيضاً .

ويبلغ طول قاعدة هرم خوفو أي الهرم الأكبر الآن ٢٢٧,٥ متراً وارتفاعه الحالي ١٣٧ متراً ، ويبلغ حجمه ٢١ مليون متر مكعب ، وعدد أحجاره ٢,٣٠٠,٠٠٠ ، ويبلغ وزن كل حجر منها ٢ ¼ طن ، أي أن مقدار وزن الهرم يبلغ ستة ملايين طن موزعة بمعدل ١ ¼ كيلوجرام على السنتمتر المربع ، وهذا شيء يتفق اتفاقاً مدهشاً مع أحدث قواعد تحميل الأرض الصخرية في هندسة المعار الحديثة .



المهضبة الليبية التي أقيمت فوقها اهرامات الجيزة
صورة مأخوذة في زمن الفيضان والحياض ملائى بمياه النيل وذلك قبل تحويل هذه الحياض إلى رى صينى .

جال
مل
كرة
رى
هذه
أن
قال
بجار
انت
راها
فأثر
بيت
وع
جمه
زن
مع

ولا شك أن السرفى إنجاز هذا العمل العظيم بسرعة فى الفترة التى ملك فيها الملك خوفو وقدرها ٢٠ عاماً فقط يرجع إلى تنظيم العمل وإدارته بالطرق الفنية المنظمة .

ورغم أن الهرم الأكبر يعد أعجب شىء فى مصر ، فإنه لم يكشف عنه من كل جهاته ، ولا يزال معبده الجنائزى ومعبد الوادى مطمورين تحت الأرض . ولكن يظهر أن الطريق الموصل بين المعبدين كان ظاهراً فى عهد «هيرودوت» الذى زار مصر فى القرن الخامس قبل الميلاد ، وقد قال عنه إنه كان أعجب من الهرم نفسه .

وقد عثر فى الحفائر الحديثة إلى شرق الهرم الأكبر على صورة الملك خوفو وعلى سفينتين للشمس يبلغ طول الأولى ٥٥ متراً وطول الثانية ٤٠ متراً .

وبعد وفاة خوفو اعتلى العرش ابنه «ددف رع» لمدة ثمانى سنوات ، وهو الذى بنى هرم «أبو رواش» الذى تهدم ولم يبق منه إلا قاعدته .

ثم عاد الملك إلى «خفرع» صاحب الهرم الثانى وصاحب تمثال «أبو الهول» الذى يمثل أسداً برأس إنسان ، وقد يكون وجه هذا التمثال هو وجه الملك «خفرع» نفسه .

قال الأستاذ سليم بك حسن فى كتابه «مصر القديمة» :

تدل جميع الآثار التى كشفت فى هذه المنطقة على أن تمثال أبى الهول رمز للأله «رع» معبود عين شمس عند الغروب ، وهو



منكاورع صاحب الهرم الثالث وزوجته .

تمثال منكاورع وزوجته وهو من حجر الشست . وقد عثر عليه العالم الأمريكى «ريزتر» فى معبد الهرم الثالث بالجيزة . ويمثل الملك وزوجته واقفين . ويمتاز هذا التمثال بالدقة المتناهية فى الصنع ، وهو يعد من أهم قطع الفن فى الدولة القديمة . وقد نقل هذا التمثال النادر المتال إلى متحف بوسطن بأمرىكا .

ما يسمى باللغة المصرية « آتوم » . وكان يعتبر في نظر المصريين حارس الجبانة . وقد بقي اسم « حول » إله السور بين والكنعانيين ، وهو الذي أطلقوه على هذا التمثال في عهد الأسرة الثامنة عشرة حين سكنوا في القرية التي اقتطعها لهم الملك « آي » والتي سموها « حورنا » في قرية « الحرائية » الحالية التي تقع على بعد $2\frac{1}{4}$ كيلومتر إلى الجنوب الشرقي من تمثال أبي الهول — كما بقي اسم الإله « حول » في « بي حول » الذي حرف إلى « أبي الهول » .
وبعد موت خفرع خلفه منكاورع صاحب الهرم الثالث .

وقد دخل اللصوص هذا الهرم سنة ١٢٢٦م ونهبوا ما فيه من ذهب وحلى . وفي سنة ١٨٣٧ دخله السكولونيل « هاورد فيس » فوجد قطعاً من تابوت الملك منكاورع الخشبي كما وجد تابوتا من البازلت عمل على شحنه إلى إنجلترا ، ولكنه غرق مع السفينة التي كانت تحمله في لجهورن في ١٢ أكتوبر سنة ١٨٣٨ ولا يزال في قاع البحر إلى الآن .

وقد كشف الدكتور « ريزنر » في معبد الوادي « لمنكاورع » نفائس فنية ودينية ، وهذه المجموعة تعد أنفس مجموعة وجدت من مخلفات الأسرة الرابعة ومن بينها مجاميع إلهات المقاطعات . وكشف كذلك تمثالا لمنكاورع وزوجته في قطعة واحدة بالحجم الطبيعي تقريباً من حجر الشست وتعد هذه القطعة من أجمل قطع الفن المصري في هذا العصر . ويمتاز هذا التمثال بالدقة المتناهية في الصنع وهو يمثل الملك وزوجته واقفين .

وقد نقل هذا التمثال ومعه المجموعة الأخرى التي عثر عليها الدكتور ريزنر إلى متحف بوسطن بأميركا . ولم يجد المتحف المصري بدأ من أخذ قالب لهذا التمثال لأهميته ليعرضه في خزائنه . بينما يظل التمثال الأصلي لأحد ملوك مصر في متحف بوسطن !!

نظام المباني ونسب المراتب في منف

كانت مساكن الطبقة الغنية في منف تبنى من الحجارة ، وكانت كبيرة المساحة تشيد في وسط حديقة واسعة تحتوي في أركانها على مطابخ وورش واصطبلات .

والبيت مربع الشكل تقريباً ينقسم إلى ثلاثة أجزاء كل جزء منها قد اتسعت أرجاؤه وزادت غرفه في العدد والحجم فشيئت الأعمدة في بعضها . وهو يحتوي على بعض الحجر المستعملة كمخازن للغلال والزيت والنبيد في الأدوار السفلى . كما يحتوي أجنحة خاصة باستقبال الضيوف والزوار وإقامة الولايم في الأعياد والحفلات ، وأخرى خاصة بإقامة صاحب البيت وأسرته .

أما السلم فكان يشيد في بعض البيوت في البهو ويشيد في البعض الآخر خارجها . وقد اقتصر المبانى على دور واحد أو دورين فقط .

وكان لسطح المسكن أهمية خاصة إذ أنه كان يستعمل كمخزن ، كما كان يستعمل للنوم في أيام الصيف حيث



منزل أحد أعيان منف بحديقته البديعة المنمقة بالزهور والأشجار البديعة تتوسطها بركة جميلة ينمو فيها البشنين وزهر اللوتس ويلعب حولها الأطفال

يشهد الحر ويكثر الذباب والبعوض في الأدوار السفلى ، وكثيراً ما كان يشيد فوق السطح مظلات بأعمدة بديعة الشكل ليأوى إليها سكان الدار والنساء عند انتهاء العمل اليومي .
وكانت جدران هذه المساكن كلها مزخرفة بالنقوش والصور الجميلة ، وكان أمام مدخل المنزل شرفة مرتفعة سقفها محمل على عمودين ضخمين ، وكانت السقوف محلاة برسوم تمثل السماء والنجوم والشمس والقمر أو الطيور . كما كانت أرض الغرف تحلى برسوم البط والأوز بأشكال وأوضاع بديعة .
أما البوابة الرئيسية الخارجية للمسكن فكانت دائماً مرتفعة عن الأسوار المحيطة بها تبدو ضخمة هائلة مزخرفة باعتناء زائد .

وإذا ما دخل الإنسان إلى حديقة منزل أحد الأغنياء بمنف يجدها حديقة بديعة منمقة بالزهور والأشجار الجميلة تتوسطها بركة صناعية ينمو فيها البشنين واللوتس ، لها حوائط مبنية باعتناء . بها درجات ينزل بواسطتها الإنسان إلى الماء ، وهي مقامة في الجهات الأربع من البركة . وكثيراً ما يقف المالك تحت شرفة منزله مع أفراد أسرته يشرف على الحديقة وقد اجتمع أطفال الجيران للعب فيها مع أطفال صاحب المنزل . وتبدو على الجميع مظاهر النعمة والرفاهية . وها هي خادمة تعود من الحقل وعلى رأسها سلة مليئة بالخضراوات وفي يدها بعض الطيور . ومما يلاحظ أن الصبيان كانوا يلعبون دائماً على أفراد لعبتهم المحبوبة « دورى يا دواره » وهم عراة تماماً ، وقد



زيارة أم الملك خوفو صاحب الهرم الأكبر لابنها في قاعة العرش . وترى الملكة الوالدة « حتب - حرس »
محمولة في كرسياها الثمين على أكتاف رجال حاشيتها وخلفها جماعة من نساء الحرم الملكي .
وتحت هذا الكرسي سار الفرم المقدس وعلى أكتافه فرد صغير لتنع تأثير العين والسحر

قصت شعورهم ما عدا خصلة واحدة تترك على الجانب الأيمن من الرأس للدلالة على أن صاحبها ابن أحد النبلاء
أو الأغنياء . أما البنات فكن يلبعن كذلك على انفراد بالكرة لعبتهم المحبوبة ولهن فيها حركات رشيقة .
وقد وقف طفل صغير يلعب كلبه . أما الطفلة الصغيرة فوقفت بجوار قطنها تحمل لعبتها ، وهناك طفل آخر
يصطاد السمك من البركة .

ونظرة واحدة إلى الصور المنشورة مع هذا الكلام تعطيك فكرة واضحة عن حياة النبلاء بمنف ، وعن نظام
مبانيهم وتنسيق حدائقهم وطرق تزيينهم . فها هي الملكة « حتب حرس » أم الملك خوفو وزوجة الملك سنفرود
أول ملوك الأسرة الرابعة وهي محمولة في كرسياها الثمين وذاهبة في حاشية ملكية براقعة لزيارة نجلها الملك في قاعة
العرش . أنظر إلى الثياب المصنوعة من الكتان الرقيق الأبيض التي تلبسها نساء الحرم الملكي ، وهي كما تراها في
الصورة ضيقة بدون أكمام تكسو الجسم من الصدر إلى الرجلين وتعلق على الكتفين بشريطين ، أنظر إلى شعورهن
وقد أرسلنها إرسالاً أو ضفرنها بصفائر من الشعر المستعار ، ورطن شعورهن بشرائط رفيعة .

ثم انظر إلى صورة هذه السيدة الجميلة الأميرة « ست حاتور يونت » بنت الملك سنوسرت الثاني وشقيقة الملك
سنوسرت الثالث وعمه الملك أمنمحات الثالث . أنظر كيف تهتم بشؤون الزينة فقد وضعت القلائد والعقود
في صدرها وحول عنقها ، والأساور الذهبية في معصمها والكحل في عينيها وعلى حواجبها ، ثم هي تنظر بعد ذلك
في مرآتها الفضية لترى سحر جمالها الفتان وتأثير نظراتها الخلابه .

أما جواهر هذه الأميرة المسكينة وأدوات زينتها التي طالما اعتزت بها فقد دفنت بجوارها في مقبرتها الملكية بجوار أهرام والدها باللاهون لتتمتع بها في الحياة الأخرى كما تمتعت بها في هذه الحياة الدنيا ، ولكن تشاء الأقدار أن تذهب هذه النفائس إلى متحف المتروبوليتان بنيويورك بأمرىكا ، ولا يقال مصر منها إلا الشيء القليل !!



الأميرة « ست - حاتور - بوت » بنت الملك سنوسرت الثاني وشقيقة الملك سنوسرت الثالث وعممة الملك أمنمحات الثالث .

ولا بد هنا بمناسبة ذكر هرم اللاهون من كلمة عن مدينة العمال التي أنشئت بجوار هذا الهرم لأنها أول نموذج لتخطيط المدن في العالم ، فقد رسمت شوارعها بنظام دقيق على خطوط مستقيمة تقاطع على زوايا قائمة كتقسيم لوحة الشطرنج وجعلت فيها مجار عمومية لتصريف فضلات بيوت العمال والمحافظة على الصحة العامة . وهذا أول مشروع مجارى عمومية لمدينة عرف في العالم .

ثم انظر بعد ذلك إلى الكاهن « خا - آبر » المعروف تمثاله الخشبي بالمتحف المصرى باسم تمثال « شيخ البلد » وذلك لما وجده العمال

الذين عثروا عليه من تشابه قريب بين شكل هذا التمثال وشكل شيخ البلد بسقارة وقتئذ عند اكتشافه بواسطة ماريت باشا سنة ١٨٦٠ .

أنظر إلى الحياة الطبيعية الناطقة في عيني هذا التمثال ، إن شفته تكاد تتحرك !

أنظر إلى الدقة والأمانة في التعبير عن هذه التقاطيع المصرية الصميمة التي لم يغيرها الدهر منذ آلاف السنين . العينان مرصعتان ، وحافتهما من النحاس الأحمر ، وبياضهما من الرخام ، وقرنيتاهما من الحجر المتبلور ، أما أنساناهما فيمثله رأس مسمار من النحاس الأصفر .

تصور هذا الكاهن بعباءته المصنوعة من جلد الفهد يلبسها فوق رداءه الواسع المصنوع من الكتان الأبيض وفي رجليه حذاء بسيط مصنوع من نبات البردى وقد أسرع إلى المعبد لإقامة الطقوس الدينية أو لعقد زواج أو للإشراف على عملية ختان الأطفال .

تصوره وقد أسرع إلى البلاط الملكي لحضور مجلس الوزراء المنعقد تحت رئاسة فرعون ، ثم قل أليس هذا الكاهن في هذا الوضع صورة طبق الأصل لرجال الأعمال الحاليين !!



عظماء منف

تمثال من الخشب يكاد ينطق عرف باسم « شيخ البلد » ، ذلك أن العمال الذين عثروا عليه رأوا فيه شبهاً كبيراً بشيخ بلدة سقارة وقتئذ . العينان مرصعتان ، وحافتاهما من النحاس الأحمر ، وبياضهما من الرخام ، وقرنيتاهما من الحجر المتبلور ، أما إنساناها فيمثله رأس مسمار من النحاس الأصفر . وقد عثر ماريت باشا على هذا التمثال في سنة ١٨٦٠ وهو تمثال لكاهن مصري (خا - أبر) من الأسرة الخامسة (٢٥٦٠ - ٢٤٢٠) ق . م

الفصل الثالث

أهرامات الجيزة وسقارة وبعض آثار منف الأخرى

- تريد الأساطير أن تنشر حول هذه الصروح الضخمة المتوغلّة في القدم فصصاً خيالية عجيبة نلخصها فيما يلي :
- ١ - تصور بعض الكتاب القدماء من ذوى الخيال الخصب ، أن أهرام الجيزة ، إنما هي مخازن الغلال ، التي شيدها يوسف الصديق ، لجمع الفائض من القمح في السبع سنوات المحصبة لأجل مواجهة المجاعة في السبع سنوات المجدية .
 - ٢ - وفي القرون الوسطى ، اعتقد العرب ، أن هذه الجبال الشاخنة المشيدة من الأحجار الضخمة ، إنما أقيمت لإخفاء كنوز الفراعنة العظام في باطنها ، فافتحموا مداخلها للوصول إلى هذه الكنوز ولكنهم وجدوها خاوية ومنهوبة منذ القدم .
 - ٣ - وعاد بعض الباحثين يقررون أن أهرام الجيزة ، إنما كانت مستعملة كمرصد لدراسة حركة تنقلات بعض الكواكب السيارة في السماء .
 - ٤ - وقال آخرون إن هذه الصروح الضخمة ، إنما سخر اليهود في بنائها لما اشتد فرعون على بني إسرائيل في عهد اضطهادهم الطويل بمصر .
 - ٥ - وهناك أيضاً من يقول إن أهرام الجيزة أقيمت تخليداً لذكرى أهم ظاهرة فلكية عرفت في العالم ، ألا وهي تاريخ ظهور النجم المعروف باسم « الشعرى اليمانية » أو « سوتيس » في السماء . ويعتبر هذا التاريخ في علم الفلك تاريخ ابتداء الحساب بالسنة الشمسية في العالم ، وهو في الوقت نفسه تاريخ تنظيم نتيجة السنة المصرية القديمة بجامعة عين شمس . ومما يلاحظ أن أول هذه السنة يوافق بداية فيضان النيل .
 - ٦ - ولكن كتاب الإغريق القدماء هم وحدهم الذين وقفوا إلى تحديد الغرض الأصلي الذي من أجله أقيمت هذه الأهرام ، وهي أن تكون مجرد مقابر ملوك مصر في عهد الدولة القديمة .

من المصطبة الى الهرم :

طبقاً لاعتقادات قدماء المصريين ، كان من الضروري ، لأجل احتياجات روح المتوفى ، أن تحنط جثته بعد موته .

ولأجل حماية الجثة المحنطة من عوامل التحليل كميها الرشح مثلاً ، ومن لصوص المقابر ، خصوصاً إذا كانت الجثة جثة ملكية ، كان من الضروري وقايتها وإخفاءها بأحكام تام . فقرر الكهنة في عصر الأسر القديمة الأولى وضع التوابيت التي تحوى جثث الملوك في سراديب منقورة في الصخر الأصم تحت طبقات من المصاطب المستطيلة المبنية من أحجار ضخمة بشكل مهرم ناقص . وقرروا أيضاً أن تكون هذه المقابر الملكية أعلى منسوباً وارتفاعاً عن المقابر أو المصاطب المحيطة بها ، إبرازاً للشخصية الملكية من جهة ، ولتكون مشرفة على مصاطب الرعية بعد الموت كما كان الملك مشرفاً على أصحابها في الحياة من جهة أخرى .

وعلى أساس هذه النظرية ، كلف المهندسون بتصميم المقابر الملكية . فلأجل أن يجعلوها أعلى من المقابر المحيطة بها ، وضعوا المصاطب درجات متوالية فوق بعضها ، فتكون من هذا الوضع هرم مدرج يعتبر هرم الملك زوسر المدرج بسقارة النموذج الأول منه في تاريخ العمارة بالعالم ، وتعتبر كل درجة من درجات هذا الهرم مصطبة مستقلة عن سواها . ثم أرادوا بعد ذلك تهذيب هذا الشكل فبنوا هرم ميدوم للملك سنفر و كهرم مدرج بقاعدة مربعة لا مستطيلة .



جبانة منف — زيارة الموتى وتزويد المصاطب في جبانة منف بجميع أنواع المأكولات والزهور والخضراوات واللحوم والذبايح والطيور والفواكه ، حتى إذا ما عادت روح الميت إلى الجثة المحنطة تجدد ما نقصت به في القبر . وهذه صورة خدم أحد العظماء يتقلون إلى قبر سيدهم كل أنواع المأكولات يوم الزيارة . وقد جلس حارس الجبانة الشيخ تحت مظلة بجوار إحدى المصاطب بينما أخذ هذا الطفل ينقل قرب الماء إلى العمال الذين يشتغلون في نقل أحد التماثيل إلى مقبرة من المقابر . وأخذ أحد رؤساء الخدم يبحث لإخوانه على سرعة المرور قبل وصول التمثال إلى طريقهم . وفي أوائل عصر الأسرة الثالثة حل محل القبر الذي يعلوه بناء آخر ، بناء من اللبن على شكل مستطيل عظيم الحجم يطلق عليه حالياً اسم مصطبة . ويختلف شكل المصطبة في العصر المنفي عن سابقه ، فقد أصبح مستطيلاً وجدرانها من الحجر الجيري المذهب . وقد تحوى المصطبة على أكثر من باب واحد ويقام بابها الوهمي في الجهة الشرقية .

وكان هذا الهرم مكوناً من درجتين عاليتين في الأصل ، ثم فكروا في ملء ما بين الدرجتين بالمباني للحصول على شكل هرمي كامل ، فكانت النتيجة الحصول على شكل برج بقاعدة مربعة . ولذا فقد اعتبر هذا الهرم الحلقة الوسطى بين الهرم المدرج والهرم الكامل في تطور بناء الأهرام .



ثم استمر التطور للحصول على الشكل الهرمي الهندسي الكامل وكان لا بد للنجاح في هذا الغرض من التعديلات الآتية :

أولاً - جعل قاعدة الهرم مربعة بدلاً من القاعدة المستطيلة التي اقتبست في الأصل من مصاطب منيف المستطيلة الشكل .

ثانياً - الانتقال من الشكل الهرمي الناقص المنتهي من أعلى بسطح أفقي إلى الشكل الهرمي الكامل المنتهي من أعلى بقمة مدببة .

ثالثاً - بناء أضلاع الهرم بشكل مثلث متساوي الساقين . ثم جعل أضلاع الهرم الأربعة متساوية تماماً .

وسرعان ما توصل المهندس المصري القديم إلى بناء الهرم الكامل ببراعة فائقة . وإليك البيان : يوجد في دهشور هرم كامل ولكن أضلاعه مبنية على زاويتين مختلفتين بحيث يبدو ضلعه كخط متكسر ، وقد يكون صاحب هذا الهرم هو الملك « حوني » آخر ملوك الأسرة الثالثة ، ولو أن ذلك أمر لم يتحقق بعد . وقاعدة هذا الهرم مستطيلة يبلغ أكبر أطوالها ١٨٨ و ٥٦ متراً كما يبلغ ميل الجزء الأسفل على الأفقي ٥٤° والجزء الأعلى ٤٢° . وينتهي هذا الهرم من أعلى بسهم مدبب ويبلغ ارتفاعه ٩٧ و ٢٠ متراً . ويسمى هذا الهرم « الهرم ذو الخطوط المنكسرة » أو الهرم المنصم .

ولا توجد نصوص في غرف هذا الهرم تدل على صاحبه ، وإذا كان البعض يفرض أن صاحب هذا الهرم هو

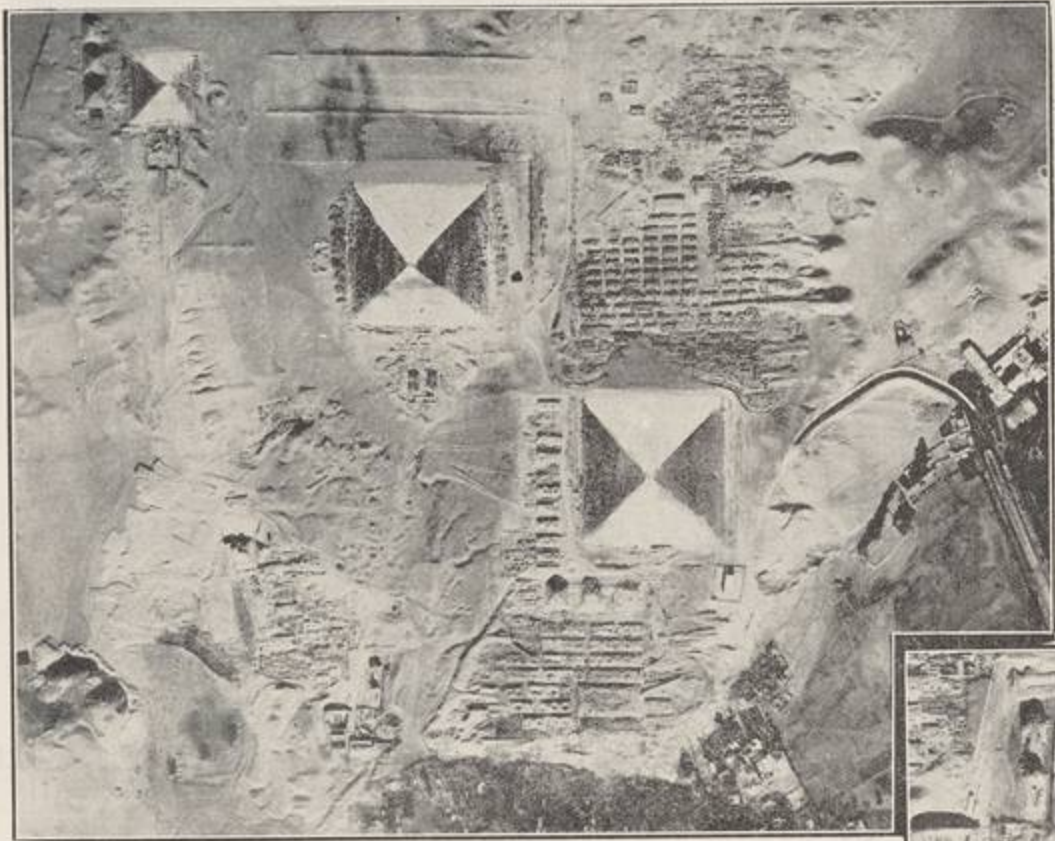
هرم ميدوم بجوار مدينة الواسطي على بعد ٦٠ ميلاً جنوبي القاهرة . بناه الملك سنفر وولسكنه لم يدفن فيه . وبعد هذا الهرم المرحلة الأولى في التطور المعماري بين الهرم المدرج والهرم الكامل الذي أقيم بالجيزة .

الملك « حوني » فذلك لأنه يمثل خطوة الانتقال الأخيرة بين هرم زوسر المدرج وبين هرم سنفرو الكامل الذي أقامه في دهشور بعد أن نبذ هرمه الأول المبني بشكل برج مربع بميدوم .

وتبدو أبعاد هرم سنفرو أول ملوك الأسرة الرابعة بدهشور وقد بلغ طول قاعدته المربعة ٢١٣ متراً وارتفاعه ٩٩ متراً الخطوة الأولى في طريق بناء أهرام الجيزة ذات الأبعاد المتناهية في الضخامة والعظمة .

كما يعد بناء هذا الهرم الخطوة النهائية الحاسمة التي وفق بواسطتها المهندس المصري القديم إلى شكل الهرم الهندسي الحقيقي .

فلما تحققت فكرة الهرم الهندسي كاملة واضحة ، قرر السكينة تعديل مواقع الأمكنة المخصصة لإقامة الطقوس الدينية والجنائزية في الأهرام ، فنقلت قاعة القرايين والذبائح والتقدمات التي كانت تقام في الأصل داخل المصاطب إلى الخارج ، وأطلق عليها اسم « معبد الهرم الجنائزي » . و بعد أن كان هذا المعبد يقام إلى شمال الهرم تقرر نهائياً أن يقام شرقي الهرم في اتجاه الشمس وفي اتجاه شاطئ نهر النيل .



القاهرة — منظر بالطيارة لمجموعة الأهرام المعروفة بالجيزة
وترى في الصورة الصغيرة أبا الهول ومعبد الوادي والطريق المقدس الخاص بالهرم الثاني أي هرم خفرع



أما قاعة الدفن فبقيت داخل الهرم ، في مركز ثقل المبنى أو جعلت في سراديب منقورة في الهضبة التي أقيمت عليها الأهرام .

وجعل مدخل الدهليز المؤدى إلى قاعة الدفن في الضلع الشمالى من الهرم مع إخفائه جيداً بأحجار ضخمة لتضليل لصوص المقابر .

وكان لكل هرم معبد ثانٍ خلاف المعبد الجنائزى المذكور سابقاً يقام في الأراضى الزراعية المجاورة ويسمى « معبد الوادى » . وكان معبد الوادى هذا يتصل بالمعبد الجنائزى بطريق مائل يسقف أحياناً ويعرف باسم « الطريق المقدس » . وكانت أرضية الطريق المقدس ترصف بأحجار جيرية ضخمة .

فمن المبنى الهرمى الشكل ومن معبد الوادى ومن الطريق المقدس ومن المعبد الجنائزى كانت تتكون المقبرة الملكية المعروفة لدى مهندس مصر القديمة باسم « مجموعة الهرم المعمارية » .

وقد كشف الأستاذ سليم بك حسن في حفرياته بسقارة سنة ١٩٣٧ طريق معبد الوادى أو الطريق المقدس الخاص بهرم « أوناس » فوجد طوله ٦٦٠ متراً وعرضه ستة أمتار وسبعين سنتيمتراً بما في ذلك سمك الحوائط المقامة على الجانبين ، كما وجد أن عرض الممر المؤدى من سرداب الهرم إلى الطريق المقدس المذكور ٢٦٠ متراً . وكان هذا الطريق مسقوفاً بأحجار سمكها ٤٥ سنتيمتراً .

حقول الأهرام بوادى النيل

يوجد بمصر والسودان حقلان مشهوران من حقول الأهرام .

فالحقل الأول يقع على الهضبة الليبية التي تمتشى مع حدود الوادى الغربية .

ويمتد هذا الحقل من هرم أبو رواش شمالاً حتى هرم هوارة بمديرية الفيوم جنوباً .

أما الحقل الثانى فيقع بالسودان بمنطقة « ميرويه » « وناباتا » .

وقد بنيت هذه الأهرام في عهد ملوك ميرويه يوم كانت « ناباتا » عاصمة القطر المصرى تحت حكم الأسرة

الخامسة والعشرين الحبشية من سنة ٧١٦ إلى سنة ٦٦٣ ق . م .

أهرام أمرى

وقد أقام أيضاً بعض ملوك الدولة الوسطى أهراماً أخرى في منطقة طيبة (الأقصر) .



منظر جبل أبو رواش حيث توجد محاجر قديمة غنية بأحجارها المختلفة من جيرية ورملية بنى منها هرم أبو رواش وسواه من أهرام الجيزة . وترى في الصورة جزءاً من طريق السيارات الصحراوى بين القاهرة والإسكندرية .

مواقع بعض الأهرام

أقصى هرم معروف الآن بمصر إلى جهة الشمال هو هرم أبو رواش الواقع على بعد ثمانية كيلومترات إلى شمال أهرام الجيزة على الطريق الصحراوى بين القاهرة والإسكندرية . إلا أنه كان يوجد هرم آخر أقصى منه شمالاً وكان يقع بأثر يب بجوار بنها . وقد رأى علماء الحملة الفرنسية هذا الهرم وذكروه في مؤلفاتهم . وقد اختفت آثار هذا الهرم الآن ولكن موقعه معروف لدى علماء الآثار .

مقل الأهرام الكبرى بالهرطقة الليبية

يشمل هذا المقل الأهرام التالية :

١ - هرم أبو رواش — بناه الملك « ددف رع » ابن الملك « خوفو » من ملوك الأسرة الرابعة . ولسوء الحظ تهدم هذا الهرم وكاد أن يندثر .

٢ - أهرام الجيزة وبيانها كالآتي :

هرم خوفو من ملوك الأسرة الرابعة

هرم خفرع » » » »

هرم منكاورع » » » »

هرم الملكة خنت كاوس بنت منكاورع من ملوك الأسرة الخامسة

٣ - هرم زاوية العريان - وهذا هرم غير تام البناء ربما يكون خاصاً بالملك نفرخا من ملوك الأسرة الثالثة

لأن اسم هذا الملك وجد محفوراً على بعض أحجار جلبت من بقايا هذا الهرم .

٤ - أهرام أبو صير - وهنا توجد أهرام ومعابد الشمس الخاصة بالملوك الآتية أسماؤهم :

هرم أوسرخاف ابن الملكة « خنت كاوس » من ملوك الأسرة الخامسة

هرم سحورع من ملوك الأسرة الخامسة

هرم نفر إركارع (كاكو) من ملوك الأسرة الخامسة

هرم نوسررع من ملوك الأسرة الخامسة .

٥ - أهرام سقارة وهي :

هرم زوسر المدرج من ملوك الأسرة الثالثة ، وقد قام ببناء هذا الهرم ومعبد ذى الأعمدة المجذعة

للمهندس أمحوتب . وبعد كشف هذا المعبد ظهر لأول مرة أن العمود الدوريكي المجمع منشأه بمصر

لا ببلاد اليونان كما كان الاعتقاد منتشراً قبل هذا الكشف .

هرم أوناس من ملوك الأسرة الخامسة

هرم تيتي من ملوك الأسرة السادسة

هرم مرن رع » » » »

هرم بيبي الأول » » » »

هرم بيبي الثاني » » » »

وقد ظهر في حفريات سنة ١٩٣٧ بسقاره نموذج جديد لهرم خاص بنبيل اسمه « نيبسكا » كان يعيش

في عصر الأسرة الأولى في عهد الملك « أوديمو » (دن) .

وكان هرم « نيبسكا » هذا هرمًا مدرجًا مبنياً بالطوب ، وقد ترك قبل إتمامه ثم أقيمت فوقه مصطبة

مستطيلة الشكل .

وفي سنة ١٩٣٠ اكتشفت الأهرام التالية بسقارة وهي :
هرم خنزر — من ملوك الأسرة الثالثة عشرة . وقد نقلت القمة للمهرمة التي كانت بأعلى هذا الهرم إلى
المتحف المصرى بالقاهرة وهي من حجر البازلت المصقول .

هرم آبا — من ملوك الأسرة السابعة .
وأخيراً هرم الملكة أودجبتن زوجة بيبي الثانى (الأسرة السادسة) . وهذا الهرم قريب جداً من المقبرة التي
يطلق عليها حالياً اسم مصطبة فرعون وهي مقبرة الملك شبسسكاف آخر ملوك الأسرة الرابعة .

٦ — أهرام دهشور وهي :

هرم بسيط مبنى باللبن للملك سنوسرت الثالث من ملوك الأسرة ١٢
هرم سنفرو الشمالى وهو مبنى من الأحجار الضخمة وهو أول ملوك الأسرة الرابعة
هرم الملك امنمحات الثانى وهو مبنى من اللبن وهو من ملوك الأسرة ١٢
هرم الملك امنمحات الثالث « » « » « » « »
ثم هرم آخر غير معروف صاحبه ، وهو مبنى من الأحجار الضخمة . وقد يكون صاحبه الملك « حونى »
آخر ملوك الأسرة الثالثة كما قلنا سابقاً .

ثم بلى هذه الأهرامات إلى الجنوب الأهرام التالية :

٧ — أهرام اللشت

٨ — أهرام ميدوم

٩ — أهرام هوارة



خوفو صاحب الهرم الأكبر

وهذه خارج منطقة القاهرة . وسنتكلم عنها فى المكان الخاص بها .
ويبلغ عدد الأهرام بمصر والسودان نحو سبعين هرمًا لم يبق منها
قائمًا إلا ثلاثين هرمًا فقط .
وإليك الآن بعض البيانات المفيدة عن أهرامات الجيزة وسقارة
وسواحلها .

هرم خوفو :

كان ارتفاعه فى الأصل ١٤٦,٥٠ متراً ، وأما اليوم فارتفاعه ١٣٧ متراً
بسبب تساقط أحجار قمته ، وكان طول كل ضلع من أضلاع قاعدته فى الأصل ٢٣٠,٣٥ متراً ، ومن تساقط
الأحجار أصبح طول الضلع الواحد ٢٢٧,٥٠ متراً .

ومقاس الزاوية بين وجهات هذا الهرم والأفقى ٥١° ٥٠'، وتبلغ مساحته ١٣ فدانا. ويبلغ حجمه نحو مليونين ونصف مليون من الأمتار المكعبة. أما عدد أحجاره فيبلغ نحو ٣٠٠٠٠٠ و٣٠٠٠. ووزن كل منها ٢ ونصف طن، أي أن مقدار وزن الهرم يبلغ نحو ستة ملايين طناً موزعة بمعدل ٥ ونصف كيلومتر على السنتيمتر المربع. وهذا شيء يتفق اتفاقاً مذهشاً مع أحدث قواعد تحميل الأرض الصخرية في هندسة العمار الحديثة كما قلنا سابقاً. وقد تم بناؤه حوالي سنة ٣٧٣٣ ق. م. وهو أقدم عجائب الدنيا السبع.



خفرع صاحب الهرم الثاني



منكاورع صاحب الهرم الثالث

هرم خفرع :

كان ارتفاعه في الأصل ١٤٣,٥٠ متراً، وبسبب تساقط أحجار قمته أصبح ارتفاعه ١٣٦,٤٠ متراً. وكان طول كل ضلع من أضلاع قاعدته ٢١٥ متراً، وبسبب تساقط الأحجار أصبح طول الضلع الواحد ٢١٠ متراً. وهو أقل حجماً من هرم خوفو وقد فتحه «بلزوني» سنة ١٨١٨. وهو يقع على طريق مصر - الفيوم الصحراوي. وقد تم بناؤه حوالي سنة ٣٦٦٦ ق. م.

هرم منكاورع :

فتحته الكولونيل هوارد فيس سنة ١٨٣٧. ويبلغ ارتفاعه الحالي ٦٣ متراً وطول كل ضلع من أضلاع قاعدته الحالية ١٠٣,٥٠ متراً. وقد تم بناؤه حوالي سنة ٣٦٣٣ ق. م.

هرم سفارة المدرج :

قاعدته مستطيلة وأبعادها ١٢٣,٩ × ١٠٣,٢ متراً. ويبلغ مجموع ارتفاع الدرجات السبع المكونة لهذا الهرم ٦٠ متراً، وتبلغ مساحته ومساحة معبده الجنائزي حوالي عشرة أفدنة.

منوره الالهرام :

يجب هنا أن نذكر أنه حتى في عهد المباحث الحديثة لم يعثر على أي نصوص منقوشة على أهرام الجيزة الكبرى، ولم يذكر اسم «خوفو» في الهرم الأكبر إلا في موضعين اثنين وهما في القاعدتين الرابعة والخامسة من سلسلة القاعات الخمس الفارغة التي أقيمت فوق قاعة تابوت الملك لتخفيف الحمل عن سقف هذه القاعة. وحتى في هاتين القاعدتين لم يكتب اسم الملك «خوفو» إلا بالبوية الحمراء، بواسطة رؤساء عمال محجر طره الذين كتبوا هذا الاسم على الأحجار الخلوعة من هناك خصيصاً لبناء الهرم الملكي.

ذكر الشيخ عبد اللطيف الطيب البغدادى الذى زار مصر بعد هيروودوت بألف سنة أن الحجر الذى كان عند مدخل الهرم الأكبر ، وقد اختفى الآن ، كان يحمل بعض الكتابات الهيروغليفية .

وكان لكل هرم اسم خاص ، فمثلا كان اسم هرم خوفو « آخت خوفو » ومعنى ذلك « أفق خوفو » . واسم هرم سنفرو المبنى بشكل برج بميدوم « أفق سنفرو الجنوبي » واسم هرم سنفرو المبنى بشكل هرم كامل بدهشور « أفق سنفرو الشمالى » .

وبعكس ما هو حاصل فى الأهرام التى أقيمت بالجيزة ، فقد وجد العالم مسبرو فى أهرام ملوك الأسرتين الخامسة والسادسة بسقارة سنة ١٨٨١ النصوص المعروفة باسم « متون الأهرام » . وتحوى هذه النصوص - وهى مكتوبة بلغة بليغة - كل ما سيحصل للملك صاحب الهرم فى العالم الآخر بعد موته . ونعلم من هذه النصوص أن جلالتة يريد ألا يعامل بنفس الطريقة التى يعامل بها سائر الناس ، بل يريد أن يكون مساويا للآلهة . ويريد أن يشرف على العالم مع الشمس (الإله رع) فى المركب المقدسة ، ويريد أن يكون هو نفسه إلهاً ، وبالطبع كان الكهنة يلقبونه باسم الإله بعد موته .

تمثال أبى الهول :

تمثال أبى الهول من أعجب الآثار التى توجد بجبانة منف الكبرى بمنطقة الجيزة الحالية ، وتريد الأساطير أن تنشر حول هذا التمثال الرابض بجوار « الطريق المقدس » لهرم خفرع قصصاً وتفسير غريبة تشابه ما نشر حول الأهرامات نفسها .



منف - منظر تمثال أبى الهول (وهو فى رأى بعضهم يمثل خفرع صاحب الهرم الثانى) وبين يديه لوحة تذكارية .

هذا الشكل تولدت فكرة تمثيل الحيوان الخرافى فى الأساطير المصرية بشكل سبع له أجنحة ورأس صقر .

فقد زعم كتاب اليونان أنه يمثل حيواناً خرافياً من الآلهة اليونانية القديمة مع أن أصله مصرى صميم .

والواقع أن العلاقة بين أبى الهول وعبادة الشمس عند قدماء المصريين ترجع إلى عصور قديمة جداً . فاسم التمثال بالمصرية « آتوم » وباليونانية « حراما كيس » ومعنى ذلك « الإله حور فى الأفق » . وكان هذا الإله يمثل فى الآثار المصرية الأولى بشكل سبع له رأس صقر . ومن

ليونين
نصف
متيتمتر



نالك

الهرم

كبرى،

سلسلة

هاتين

هذا

وانتشر هذا الشكل في جميع آثار الشرق القديم ومنها اليونان ، ثم تطور في العصور التالية بتغيير رأس الصقر الذي يرمز به للإله حور ، إلى رأس إنسان ، وهو النموذج الأخير في شكل أبي الهول .

ويعتقد البعض أن أبا الهول يمثل الملك خفرع صاحب الهرم الثاني ، مع أنه لم يعثر على اسم هذا الملك في أى جزء من أجزاء هذا الأثر .

والتثال على شكل سبع راقد على نواجذه الأربعة وله رأس إنسان . وغطاء رأسه هو الغطاء الكتاني العادي المعروف عند قدماء المصريين باسم « نمس » وكان يلبسه ملوك مصر القديمة ، وله عصابة في وسطها تمثل الحية الملكية « يوراس » وخلفها نسر منتشر الأجنحة . وكانت هذه الحية تقذف النار والسم في وجه من يحاول رفع نظره إلى وجه الملك .

أما تمثال النسر الناشر الجناحين فقد سقط بكل أسف من فوق رأس التمثال . ويحتفظ المتحف البريطاني بلندن بجزء منه وبجزء من تمثال الحية الملكية المقدسة . كما يوجد بالمتحف المصرى بالقاهرة نموذج مصنوع من الجبس لهذه الأجزاء المفقودة من تمثال أبي الهول .

ويوجد أمام تمثال أبو الهول معبده الصغير ، بينما وضعت بين رجليه الأماميتين اللوحة الشهيرة المعروفة باسم « لوحة حلم الملك تحوتمس الرابع » وفيها يقص هذا الملك كيف أخذته سنة من النوم في ظل أبي الهول فرأى في الحلم الإله الأكبر (حور) . وقد طلب منه إزالة الرمال التي تكدست حوله .

وقد اكتشف الأستاذ سليم بك حسن في معبد صغير ، يقع في الشمال الشرقى بجوار تمثال أبي الهول ، لوحة كبيرة ارتفاعها ٤٢٥ متراً وعرضها ٢٥٣ متراً ، وهي خاصة بالملك أمينحوتب الثاني ، وفيها يذكر الملك حوادث حفلات الصيد التي أقيمت بمناسبة حفلات تتويجه . وفي السطر الأخير من هذه اللوحة يقول الملك إنه أتى ليمتع نفسه في منطقة الصيد المجاورة لأهرام « حرما كيس » .

ويبلغ محيط وجه تمثال أبي الهول إذا قيس بالعرض ٣٩٠ متراً ، كما يبلغ طول أنفه متراً ونصف متر وعرضه ٢١٠ متراً ، ويبلغ طول التمثال نفسه ٤٦ متراً وارتفاعه من الأرض إلى قمته ٢١ متراً . وهو مصنوع من قطعة واحدة نحتت في صخرة محلية .

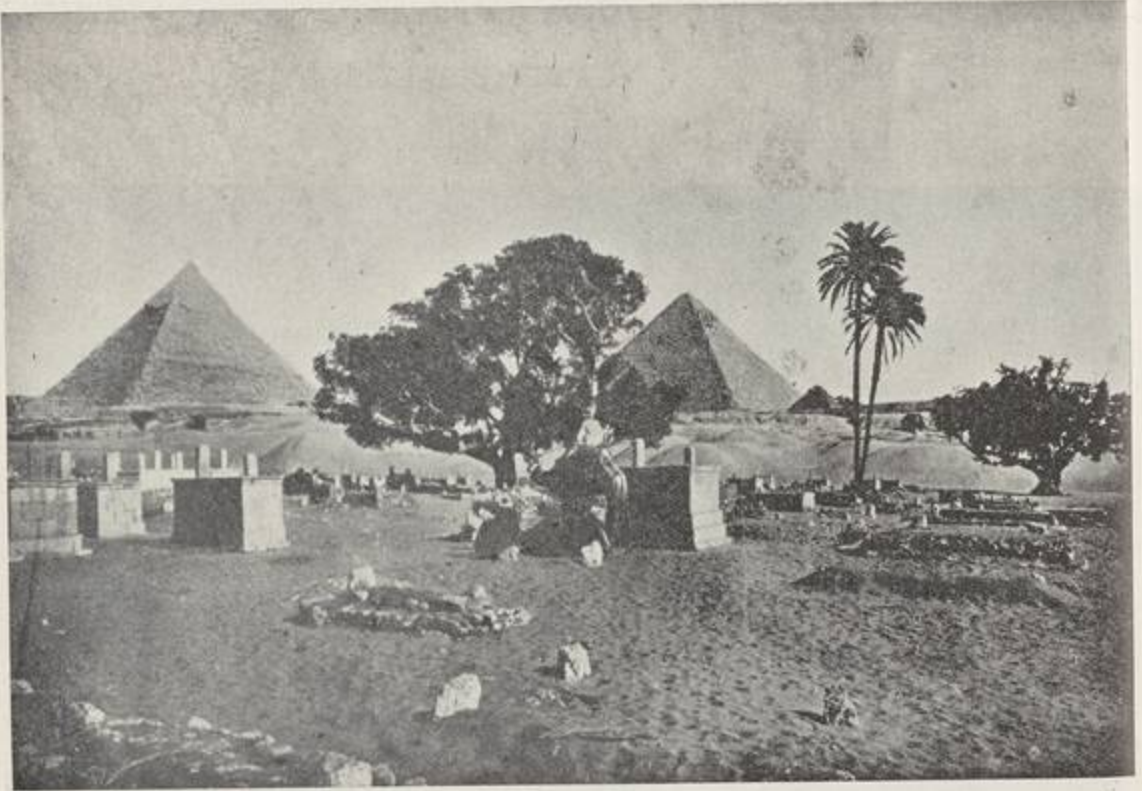
أما تاريخ إزالة الرمال عن هذا التمثال الضخم فهو نفسه تاريخ أثرى . فقد ذكر بعض الفراعنة الذين زاروا أبا الهول أنهم رفعوا الرمال التي تكدست حول هذا الإله .

كما أنه في العصر الحديث أى في سنة ١٨١٨ قام الكابتن كاثيليا برفع الرمال من حول التمثال ، واكتشف المعبد الصغير الواقع بين ساقيه الأماميتين . وفي سنة ١٨٣٧ قام الكولونيل قايس بعمل جسات في جسم أبي الهول

أملاً أن يجد في داخله كنوزاً مخفية طبقاً للأساطير المتداولة بين الشعب . ولكنه لم يصادف في هذه الجسات العميقة إلا صخوراً صلباً . وفي سنة ١٩٣٧ قامت مصلحة الآثار المصرية برفع الرمال مرة أخرى عن هذا التمثال ، وقد كان من حسن حظنا اليوم أن نتاح لنا الفرصة لمشاهدة جمال هذا التمثال في كامل روعته وعظمته الأولى .

تمثال آخر لأبي الهول بسفارة

في مكان مدينة منف القديمة ، اكتشف سنة ١٩١٢ تمثال آخر لأبي الهول له جسم أسد ورأس إنسان . وربما يرجع تاريخ هذا التمثال إلى عهد رمسيس الثاني . وهو مصنوع من المرمر (الألبستر) ويقع في الحقل بين أشجار النخيل المجاورة لقرية ميت رهينة الحالية ، وهو تمثال صغير جداً بالنسبة لتمثال أبي الهول بالجيزة ، ويبلغ طوله ٧٨٠ متراً وارتفاعه من الأرض إلى قمته ٤٣٠ متراً .



أهرام الجيزة : هل تطورت هذه المفاير الإسلامية الحديثة من شكل تمثال أبي الهول أم من شكل مصاطب منف !!

المصاطب

مصاطب الجيزة

توجد بجبانة الجيزة بجوار الأهرام الكبرى مقابر تعرف حالياً باسم المصاطب لتشابهها بها ، وهي خاصة بأعضاء العائلات الملكية وأتباعهم .

وقد دفن بهذه المصاطب بعض الشخصيات البارزة في تاريخ مصر القديمة ، مثل الملكة « حوتب حورس » زوجة الملك « سنفرو » وأم الملك « خوفو » . كما أن هناك بعض الأهرام الصغيرة الخاصة بأعضاء عائلة خوفو وعائلة منكاورع . وبجوار أحد الأهرام الثلاثة الصغيرة الخاصة بأبناء خوفو توجد بقايا معبد صغير يرجع تاريخه إلى الأسرة الحادية والعشرين اسمه معبد أزيس « سيدة الأهرام » . وقد وجد بداخل هذا المعبد اللوحة الشهيرة باسم « لوحة بنت خوفو » وهي موجودة الآن بالمتحف المصرى بالقاهرة .



جبانة منف — صورة مأخوذة من فوق هرم خوفو . وترى بها صفوفاً طويلة من المصاطب . وهي عبارة عن مقابر الأشراف والعظماء وأفراد العائلات المالكة التي كانت تدفن بجوار هرم الملك

ولم تكن جبانة الجيزة مقصورة فقط على دفن أعضاء العائلات الملكية بل نجد فيها مقابر كثير من النبلاء والكهنة وكبار موظفي الدولة . ومما يلاحظ أن هؤلاء القوم كانوا يحملون ألقاب شرف عديدة ، منها : رئيس المرتلين ، والكتاب الإلهي ، ورئيس كل الوظائف الإلهية ، وقريب الملك ، والمعروف لدى الملك ، والأمير والسمير الوحيد ، ومدير القصر ، وحارس التاج ، وحاكم القصر ، ومدير مالية القصر ، وحامل نعل الملك ، ومنظم شعر الملك ، وطبيب خاص الملك ، وغتال ومنظف أظافر الملك ، ومدير بيت التطهير المزدوج ، وحامل أختام الملك ، ورئيس أسرار كل أوامر الملك ، ورئيس أسرار كل القرارات القضائية ، ورئيس أسرار كل الأشياء التي يراها الإنسان ، ومدير كل الأشغال الملكية ، ومدير القيودات ، والمقرب لدى الناس والملك ، وحاكم القصر العظيم ، والمشرف على مصانع الملك ، والمشرف على خدمة قرينة الملك ، والمشرف على حدائق الملك ، والكاهن الملكي ، وكاهن الملك ، ومعنى البيت الكبير ، والمشرف على ملابس الملك ، والقائد الأعلى لجيوش الملك ، والمشرف على مراكب الملك ، وضابط جنود الملك ، ورئيس كتبة الملك ، ومفتش المحصولات الزراعية ، والمشرف على مدينة هرم خوفو ، والوزير ، والقاضي ، والمشرف على مخازن غلال الملك ، والمشرف على أدوات زينة الملك ، وغير ذلك .

وقد رسمت على حوائط مصاطب الجيزة مناظر كثيرة تمثل الحياة العامة في هذا العصر ، مثل أشخاص يحملون القرابين والهدايا والدبائح للعتوفى . وبعض هذه المناظر دقيقة جداً مثل منظر الخاني الذي يقوم بشي اللحم على النار وييده مروحته ، ومنظر من يقوم بحليب البقر ، ومنظر صياد السمك بالشباك ، ومنظر صيد الغزلان ، ومنظر الراقصات اللاتي يرقصن على نغمات الموسيقى و بجوارهن لاعبو القيثارة والمصفقون بالأكف .

مصاطب سفارة :

ومع كل ما ذكرناه هنا فجبانة سفارة تفوق جبانة الجيزة دقة ونخامة ، وهي بلا نزاع أهم جبانات مدينة منف القديمة وأدهش حقول الآثار بمصر وأكثرها جاذبية للسواح . فهناك مصاطب الأسرة الأولى بحوائطها المبنية من اللبن تبرز منها الأعمدة المجذعة المائة للأعمدة الدورىكية المجذعة التي سبق ذكرها في معبدهرم زوسر . ولكن ليس عليها نقوش أو كتابات ، فقط كانت بها تجاويف ملونة بشكل أبواب وهمية .

ولم يبدأ المصريون القدماء في تدوين مناظر الحياة العامة على أحجار مقابرهم المنحوتة في الصخر الأصم إلا ابتداء من عهد الأسرة الثالثة .

وكان سمك حوائط مصاطب الأسرة الأولى في منتهى الضخامة يبلغ أحيانا أربعة أو خمسة أمتار .

وإليك الآن بعض البيانات عن أهم مصاطب سفارة الجديرة بالزيارة :

١ - مصطبة نى :

كان النبيل تى من كبار موظفى الدولة المصرية ، عاش فى عهد الأسرة الخامسة ، وكان لقبه « المشرف على الأهرام ومعابد الشمس » ، وقد صنع لنفسه مقبرة غاية فى الدقة والاناقة ، وحفر على حوائطها نقوشاً ومناظر تمثل الحياه اليومية بمنف أدق تمثيل . فهناك منظر أحواش الطيور ، ترى فيها الأوز تمشى الهوينائم تسبح فى البركة القائمة فى وسط الحوش وقد جاء الخدم لإطعامها .

وهناك منظر صيد البط بالشباك بالطريقة التالية : أخفى رئيس الصيادين نفسه خلف شجرة صناعية ، وجعل يراقب الطيور فلما امتلأت الشباك بالطير الذى أتى لياً كل الحبوب المنشورة فوقها وقف رئيس الصيادين فجأة وأعطى الإشارة لسحب الحبال بأن نشر قطعة من القماش خلف رأسه . فلما سحبت الحبال قفلت الشباك على الطيور وقبض عليها باليد وأرسلت فى أقفاص خاصة إلى أسواق المدينة . وترى هناك أيضاً صورة البجع وقد فتح فمه متنبئاً بقرب العاصفة الجوية المقبلة .



مشاهد من الحياه العامة فى منف — الصيد بالعلقه — قام الصيادون فى الصباح الباكر جدا إلى برك دهور وهناك نصبوا شباكا يختلف ارتفاعها بين متر ومتر ونصف ، ووضعوا بجوارها « خيال » بط من خشب ملون مكسو بالريش . وذلك بعد أن غطلوا من ساحل البركة مساحة تتراوح بين ٢٠ و ١٥٠ متراً بطبقة رقيقة من التبن ليفتوا بها نظر الطير . ثم ثروا فوقها حبوب الدنبيه أو كسر الأرز ، وهى كناسة الجرن المسماة (قيشه) والطيور ميالة بطبيعتها إلى الاتجاه نحو جسر البركة . ولهذا تراها تندفع نحو العلقه . فتتجمع زرافات بجوار الشباك لتلتقط الحب . وعند ذلك يعطى رئيسهم إشارة لزملائه فيجذب الصيادون حبال الشباك فتعلق على الطيور فيمسكونها حية . وفى جانب الصورة ترى طفلين وأمامها السبات توضع فيها هذه الطيور وتحمل إلى أسواق منف

وفي هذه المقبرة ترى المتوفى في مناظر مختلفة تمثله في حياته العادية أوروبما في الحياة التي يريد أن يجيها في العالم الآخر .

وفي أحد دهاليز هذه المقبرة ترى منظراً يمثل طريقة نقل التماثيل الضخمة في مصر القديمة على الزحافات يجرها الرجال ، بينما يمثل غيرها الطريقة التي يتبعها الجزارون في ذبح البقر والجاموس ، ويمثل غيرها الموسيقيين والراقصين وصناع المراكب .

وتمثل مناظر أخرى طريقة صنع البيرة ، وصنع الكعك ، وصنع الفخار .

وتمثل مناظر أخرى أعمال زراعية مختلفة كالحصاد بالمناجل وحرث الأرض ونقل المحاصيل والغلال على ظهور الحمير ودرس الغلال . والصورة التالية تمثل بطريقة حديثة بعض الأعمال الزراعية بمنف .

ومما يلفت النظر في هذه النقوش الجميلة منظر صاحب المقبرة ورجاله وهم يصطادون جاموس أوفرس البحر (العسنت) في مراكبهم بين الأحرش في البرك والمستنقعات . ثم تمثل « تي » الذي يبدو حياً خلف الأبواب الوهمية .



الطريقة التي كانت تزرع بها حقول منف . وترى الفلاح المصري يحرق ويبذر القمح في الحقول بعد انسحاب مياه الفيضان مباشرة . كما ترى في الرسم القرية المصرية والحص وأكياس البذور وقد وقف الكتبة يحصون عدد ما يفرغ منها . ومما يلاحظ أن القمح كان يبذر أمام المهرات لا خلفه كما هو الحال الآن ثم يأتي الرعاة بأغنامهم ويسرون خلف المهرات لتقلب الأرض بحوافرها وتغطي البذور .

٢ - مقبرة خا - جحنا

كان خا - جحنا وزيراً من وزراء مصر في عهد الأسرة السادسة وكان يحمل الألقاب التالية :
« مراقب الكهنة » و « المشرف على مدينة هرم الملك تبتى » وغير ذلك .
وأهم المناظر التي يمكن مشاهدتها في مقبرته هي :

- ١ - منظر للراقصين والقائميين بألعاب بهلوانية وحولهم نساء يصفقن بالأكف على نغمات الموسيقى .
- ب - مناظر لصيد السمك وصيد جاموس أو فرس البحر (العسنت) وصيد الطيور .
- ج - مناظر جمع التين من الشجر .
- د - مناظر تغذية الضباع الأليفة . ومناظر الأوز والبط وهي تسبح في بركة بحوش الطيور .

هـ - منظر صاحب المقبرة محمولا في محفة وقد ارتدى ثوبا من الكتان الثمين . ومنظر قزم يقود قرداً وكلاباً . ومنظر العمال يقطفون العنب ويعصرونه على طريقتهم الأولية بالأرجل . وفي خارج العصرة وقف عامل يجمع العصير في قدور خاصة ينقلها الجمالون إلى أقبية منزل المالك لتخزينها . ويلاحظ في شكل المنزل ملاقف الهواء والمدخل الرئيسي والشرفات . كما يلاحظ مياه الري التي ترفع من القناة بالشادوف . والصورة التالية تمثل هذه المناظر بطريقة حديثة .



مشاهد من الحياة العامة في منف - وترى في الصورة صاحب المقبرة وقد ترك منزله الريفي القائم في حقوله : ذهب إلى مزرعة السكروم ليراقب العمال وهم يقومون بقطف العنب وعصره على طريقتهم الأولية بالأرجل .

٣ - مقبرة ميريرو

كان ميريروكا من كبار موظفي الدولة المصرية الذين عاشوا في عهد الأسرة السادسة .
وأهم المناظر التي يمكن مشاهدتها في مقبرته هي :

١ - منظر صاحب المقبرة و بجواره زوجته وهما في قارب يصطادان الطيور والأسماك بينما يقوم الخدم بضرب جاموس أو فرس البحر (العسنت) بالرماح لإبعادها عن مركب سيدهم . ويبدو فرس البحر هنا بشكل متوحش ضارى . ويظهر في أحراش البوص نوع من الجراد الصغير (أبو النطيط) والضفدع . بينما تسبح التماسيح والأسماك من جميع الأجناس في المياه . وهذا المنظر من أبدع مناظر هذه المقبرة .

ب - مناظر الفنون والحرف المختلفة : كصناعة الفخار ، ومنظر رجل يبني سقالة للبناء ، ومنظر حجارين يقطعون الحجر ، ومنظر عمال يصبون المعادن ، ومنظر مصنع الجعة (البوظة) وترى عاملا يدق الحبوب بمدقة خشبية و بجواره سيدة تطحنها في مطحنة خاصة ثم تعطى الدقيق لآخر فيعجنه وبعد ذلك يوضع في أواني خاصة لتخميره بالأرجل . ثم يصفى ويحفظ في قدور لها أغشية طينية ويخزن . والصورة التالية تمثل هذه المناظر بطريقة حديثة .

ج - مناظر للرقص الديني أو الجنائزي .

د - مناظر للراقصات والألعاب البهلوانية .



مشاهد من الحياة العامة في منف - مصنع الجعة (البوظة)
وقد دخل رئيس صانعي الجعة ويده عصا خاصة وجعل يستحث العمال على إنهاء العمل .

٤ - مفرتاخت - حتب وبتاح - حتب :

كانت اخت - حتب يحمل لقب : المشرف على مدينة هرم الملك « ددكارع » من ملوك الأسرة الخامسة
ولقب المشرف على الخزينة المزدوجة : خزينة الوجه القبلي وخزينة الوجه البحري ، وخلاف ذلك من الألقاب
وأهم مناظر مقبرته هو : منظر النوتية يتقاتلون بالمجاديف وبجوارهم أقفاص بها بعض الطيور .

وقد أقيمت مقبرة « بتاح - حتب » والد « اخت - حتب » داخل مقبرة ابنه . وعلى امتدادها . ولا
تزال الصور المنقوشة على حوائط مقبرة الأب محتفظة برويقها الأصلي احتفاظاً مدهشاً .

وكان « بتاح - حتب » يحمل لقب : مراقب كهنة هرم الملك « نو - سر - رع » .

وأهم مناظر مقبرته هي :

ا - مناظر صيد الطيور والأسماك وصناعة المراكب وتقاتل النوتية - والرقص والألعاب البهلوانية .

ب - مناظر ألعاب الأطفال . وبعض هذه الألعاب لا يزال يمارس بمصر للآن ومنها :

لعبة « دورى يا دوار » ، ولعبة « التحطيب » التي تمارس خصوصاً في الوجه القبلي ، والألعاب
الرياضية الأخرى ، كالمصارعة ، والمشى في الطابور ، والألعاب البهلوانية ، ولعبة الكعب ، ولعبة الإغماء ،
ولعبة جمال الملح ، وفي هذه المناظر ترى الصبيان يلعبون وهم عراة تماماً وقد قصت شعورهم ما عدا
خصلة واحدة تركت على الجانب الأيمن من الرأس .

ح - مناظر معاصر الزيوت ، ومصانع تمليح وحفظ الأسماك ، ومصانع الحبال ، ومصانع النجارة ،
وترى هؤلاء الأساتذة الأول في فن النجارة يصنعون صندوقاً من خشب ثمين وعلى وجوههم سياء
البشر والانشراح .

وترى الآلات الأولية التي كانت تستعمل في هذه الصناعة ومنها خرجت قطع فنية حيرت عقول البشرية
بدقتها ومئاتها .

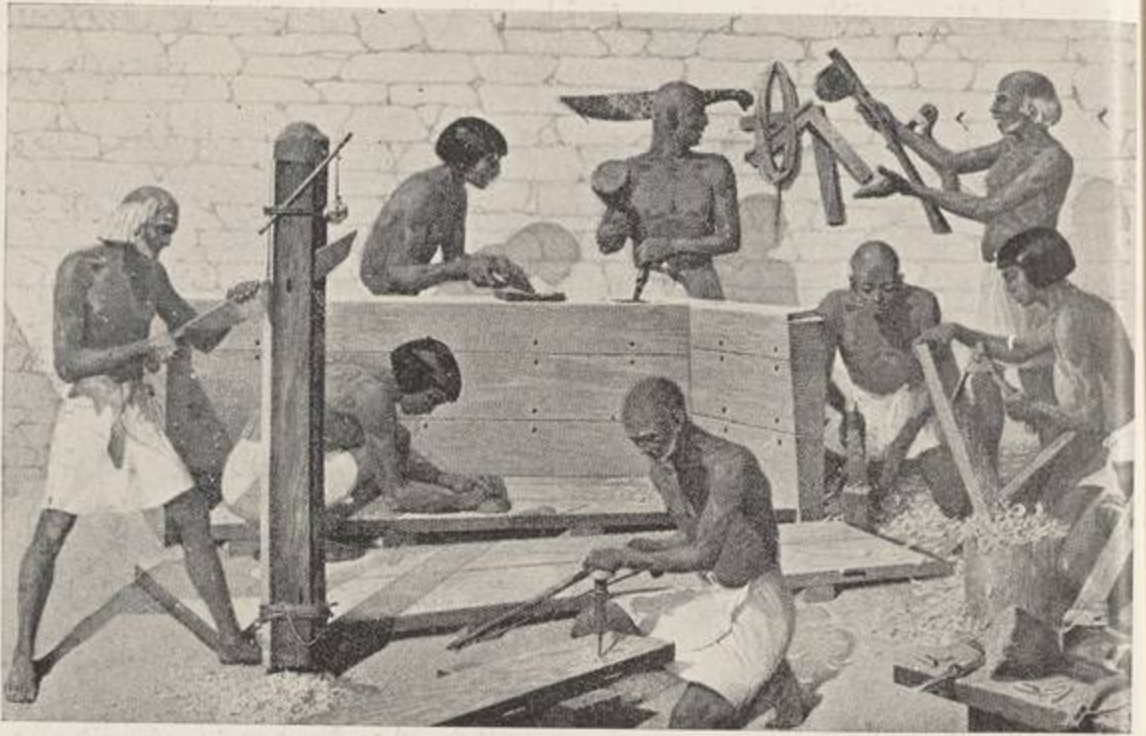
والصورة التالية تمثل هذه المناظر بطريقة حديثة .

د - مناظر عودة الصيادين من الغابات ومعهم وحوش ضارية أسيرة داخل الأقفاص .

ومقبرتا « بتاح حتب » و « اخت حتب » منحوتتان في صميم الكتلة الصخرية ، ولهما واجهتان مشيدتان .

وكان سرداب « بتاح حتب » يشتمل على تسعة تماثيل خشبية بعضها بالحجم الطبيعي .

كما كان في هيكل مقبرة « اخت حتب » ١٤ تمثالاً نحتت في الصخر نحتاً بارزاً .



مشاهد من الحياة العامة في منف . مصنع نجارة دقيقة . وترى هؤلاء الأساتذة الأول في فن النجارة يصنعون صندوقاً من خشب
تئين بدقة متناهية وعلى وجوههم سماء البصر والانصراف . وترى الآلات الأولية التي كانت تستعمل في هذه الصناعة ومنها خرجت
قطع فنية حيرت عقول البشرية بدقتها ومتانتها .

٥ - مصاطب أمري :

وفي سنة ١٩٤٠ أدى البحث الذي قام به الأستاذ زكي سعد مفتش الآثار بسقارة ، في المنطقة الواسعة
الواقعة بين الهرم المدرج وهرم أوناس ، إلى العثور على عدد كبير من التوابيت الخشبية يرجع بعضها إلى
العصر « الصاوي » والبعض الآخر إلى عصر « البطالسة » .

وكان في القسم الأكبر منها عدد لا بأس به من التحف كالأواني المصنوعة من الفخار والمرمر والقاشاني
والجلعان المطلية بالميناء ، ومساند الرأس المصنوعة من الخشب والمرمر ، وقلائد مختلفة الأنواع .

وعثر أيضاً على ٢٧ باباً وهمياً ، من الحجر الجيري ، مختلفة الأحجام ، وقد نقش عليها أسماء أصحابها
وألقابهم ، وأغلبهم من موظفي الملك أوناس وكهنة معبده وكاهناته .

وكشف قريباً من هرم أوناس عن مصطبة كبيرة ، نقش عليها اسم ملكة تدعى « نبت » مما لا يشك
معه في أن هذه الملكة كانت زوجة لأوناس ، وإن لم يكن يعرف عنها شيء قبل هذا الكشف .

ومن النقوش التي لوحظت على جدران هذه المصطبة نقش يمثل سيدة من الأفزام ، وتلك أول مرة يظهر فيها رسم لسيدة قزم .

وهناك مصطبة أخرى متهدمة وجد عليها اسم السيدة « خنوت » ويستنتج من موقعها ومشابقتها لمصطبة « نبت » أن تكون هذه السيدة أم أوناس ، أو زوجة ثانية له .

وكشف عن ثلاث مصاطب أخرى ، أولاها لأحد أبناء الملك واسمه « أوناس عنخ » والثانية لوزير اسمه « انفرت » والثالثة لموظف كبير يدعى « كاي » ، وعن مصطبة رابعة سليمة لرجل يدعى « محو » عاصر الملوك الثلاثة الأول من ملوك الأسرة السادسة ، وكان وزيراً ، تزوج أميرتين من أميرات البيت المالكي ، هما « نبت » و « نفر كاوس » .

ولا تزال جدران هذه المصطبة محتفظة برونق ألوانها . أما ما عليها من النقوش التي حفرت بمهارة بلغت حد الكمال فكانت مغطاة وأظهرت . وتبدو هذه النقوش الآن باللون الأصفر الزاهي حتى ليخيل إلى الناظر أنها صنعت من الذهب .

وإلى هنا تنتهي من وصف أهم مصاطب سقارة .

أما أهم المعالم الأخرى بنفس منطقة المصاطب فهي :

أولاً - بيت مارييت باشا :

أوجست مارييت باشا عالم فرنسي من أكبر علماء الآثار المصرية ، حضر إلى مصر في عهد عباس الأول ، ثم كشف مقبرة العجول بسقارة سنة ١٨٥١ . وقد أنشأ بجوار حفائره هناك منزلاً من اللبن جعله مركزاً لأعماله ومحلاً لاستراحته .

ولا زال هذا المنزل ، في وسط مصاطب سقارة ، مكان استراحة للزائرين والسياح ، يتناولون في ظلال شرفاته وقاعاته المطلة على الصحراء الشاسعة الجميلة ، غذاءهم مع بعض المرطبات الأخرى ، ويجدون فيه مجالاً لراحتهم بعد عناء السير في رمال الصحراء ، كما يجدون به المياه العذبة اللازمة جداً في هذا المكان .

ثانياً - مقبرة العجول أو السرايوم :

وعلى بعد مائة متر تقريباً من بيت مارييت باشا توجد مقبرة العجول المعروفة أيضاً باسم السرايوم . ومن المعلوم أن العجل أليس كان يعبد بمدينة منف ، وكان يحنط بعد موته كما يحنط الملوك ، وكان يدفن بجميع مراسم التكريم في مقبرة خاصة .

أما مقبرة العجول فهي عبارة عن نُفُق سفلية هائلة منحوتة في صميم الكتلة الصخرية ، وقد كشفها أوجست ماريت باشا سنة ١٨٥١ .

وقد كان نجاح ماريت باشا في كشف هذه المقبرة ، في مستهل حياته العملية ، من أكبر العوامل التي ساعدته على السير في أعمال الكشف الواسعة عن الآثار المصرية الأخرى ، تحت رعاية الخديوى اسماعيل باشا بنجاح باهر ، وخلدت اسمه في عالم الآثار إلى الأبد .

وقد وجد ماريت باشا أن الكنوز الثمينة التي كانت موجودة في توابيت العجول قد نهبت منذ القدم بمعرفة الغزاة السابقين الذين احتلوا مصر في العصور الخالية ، ولم يبق في هذه المقبرة التي كانت تعص بالعقود والذهب والقلائد والآلي والأحجار الكريمة إلا توابيت فارغة ، توابيت هائلة مصنوعة من الجرانيت الأحمر والبازلت الأسود كانت تدفن فيها العجول آيس بعد موتها وتحنيطها .

وقد أزيحت أغطية هذه التوابيت قليلا من مكانها الأصلي بمعرفة لصوص المقابر القدماء للاستيلاء على ما فيها من هذه الكنوز الثمينة .

ومع ذلك فقد وجد ماريت باشا في السرايوم ما لا يقل عن ٤٠٠٠ لوحة تذكارية ، ذكر فيها الملوك زيارتهم لهذه المقبرة وأعمالهم فيها ، كما ذكرت فيها حوادث تتعلق بالعجول نفسها كحادثة العجل الذي قتله قبيز بضربة من خنجره . وتريد الأساطير أن تؤكد بعد ذلك أن قبيز نفسه مات مقتولا بنفس هذا الخنجر . كما وجد تابوتا سليما لم يفتحه الاصوص ففتحته هو ونقل محتوياته إلى المتحف المصرى كما نقل اللوحات التذكارية جميعها إلى متحف اللوفر بباريس .

ويبلغ عدد توابيت العجول بالسرايوم الآن ٢٥ تابوتا كلها متشابهة ، اللهم إلا تابوتين أو ثلاثة عليها كتابات هيروغليفية مفيدة جداً لبعض الطقوس الدينية ، تراها على ضوء الشموع أو المسارج التي يحملها الدليل .

أما كيف توصل قدماء المصريين إلى نقل هذه التوابيت الضخمة وترتيبها في داخل القاعات المعدة لها بنظام هندسى دقيق على جوانب هذه الممرات السفلية المظلمة ، فأمر يبدو عجيباً !! ولكنها مهارة المهندس المصرى القديم البارع تبدو في كل ناحية من نواحي الحياة العامة بمصر !!

وكانت مقبرة العجول التي كشفها ماريت باشا سنة ١٨٥١ بجمانة سقارة تشمل قديماً جزئين مستقلين عن بعضهما .

الجزء الأول أنشأه أمنحوتب الثالث وهو عبارة عن الممرات السفلية وما بها من قاعات الدفن الجانبية وكلها منحوتة في الصخر الأصم .

وقيل إن عدد المقابر الجانبية وصل إلى ٦٤ قبراً بعد توسيع المقبرة في العصور التالية لعصر أمنحوتب ، وكان بها ٦٤ عجلاً منقطعاً بما عليها من جواهر وحلى وكنوز .

أما الجزء الثاني فعبارة عن المعبد الذي أنشأه بطليموس الأول سوتير فوق مقبرة العجول . وقد عرف هذا المعبد في العصر اليوناني باسم السرايوم .

ولهذا الاسم قصة تتعلق بالاعتقادات المصرية القديمة وهي : كما أن الإنسان بعد موته كان يحاكم أمام محكمة « أوزيريس » فإذا زادت حسناته عن سيئاته تحول هو نفسه إلى أوزيريس ودخل حقول السموات الياعة كذلك كان العجل أيس بعد موته يتحول إلى أوزيريس - أيس .

ومن هذا الاسم الأخير اشتق اليونان اسم الإله الأغريقي سرايس واسم السرايوم الذي أطلقوه على مقبرة العجول المقدسة .

وفي عهد الملك نخاو الثاني أقيم لهذا المدفن معبد من معابد الوادي .

وحوالي سنة ١٩٤١ عثر الدكتور أحمد بدوى مدرس الآثار بجامعة فؤاد الأول ومعه الأستاذ مصطفى الأمير للمهندس ، في بلدة ميت رهينة التي تقوم حالياً على انقاض منف عاصمة مصر الأولى ، على أربع موائد قرمانية من المرمر منها واحدة مؤرخة باسم الملك نخاو . ثم عثرا على سريرين من المرمر الخالص كانا يستعملان لتحنيط العجل أيس ، وعلى مكيالين للسوائل من المرمر الخالص أيضاً أحدهما سليم ومؤرخ باسم الملك دارا الأول الفارسي وعليه مقدار ما يسع من السوائل (حوالي ٣٢ لتر) أما الثاني المكسور فسعته ثلاثة أضعاف الأول .

ويعد السرير الأكبر من القطع الفنية المنقطة النظير في تاريخ الفن المصرى إذ يبلغ طوله حوالي ٤ و ٦٠ متراً وعرضه ٢ و ٨٠ متراً وارتفاعه ١ و ١٠ متراً ، وهو قطعة واحدة من المرمر .

أما السرير الآخر فهو أقل حجماً وأقل قيمة من الأول .

ويظن أن هذا المكان كان متصلاً عن قرب أو عن بعد بمعبد العجل أيس الذي ذكر هيرودوت وأسترابون أنه من غرائب مدينة منف ، ولم يكشف بعد .

وكانت عملية تحنيط العجل أيس تكلف الدولة نفقات كثيرة . فقد روى بعض المؤرخين من اليونان أن بطليموس الأول سوتير قد أنفق كل ما في خزانة الدولة واستعان بقرض ليجهز جنازة أحد العجول الذي مات في عهده .

ولا غرابة في ذلك ، إذا علمنا أن تابوت الدفن وحده كان يصنع من حجر وحيد وكان طوله ٤ أمتار وعرضه ٢,٥٠ متراً ووزنه أكثر من ٦٠ طناً .

الثالثاً - دير أنبا أرميا :

بنى هذا الدير في آخر القرن الخامس الميلادي وخر به العرب حوالى سنة ٩٦٠م ، ولحسن الحظ طغت الرمال على خرابته إلى أن كشفه كوييل سنة ١٩٠٦ ونقل ما به من آثار إلى المتحف المصرى .

وقد ظهر أن هذا الدير بنى بأحجار منقولة من آثار منطقة سقارة القديمة ، إذ وجد على بعض هذه الأحجار نقوش هيروغليفية ومناظر فرعونية لصيد فرس البحر أو العسنت ترجع إلى عهد الدولة القديمة .

ولا تزال أطلال هذا الدير ، الذى يرجع إلى عهد المسيحية الأولى بمصر ، ماثلة فوق تل صغير تقابله في طريقك إلى الهرم المدرج بسقارة .

هنا تجد المكان غاصاً بالأعمدة المكسرة والأحجار المبعثرة والحوائط المبنية من اللبن .

هنا يريك الدليل معاصر الزيوت والأفران التى كان يستعملها الرهبان قديماً .

ويريك حجراً عليه آثار أقدام قديس زار هذا المكان منذ آلاف السنين .

ويريك الكتابات القبطية والعربية التى لم تزل باقية على الحوائط القائمة كما يريك بعض الصور والنقوش التى كان تزين جدران هذا الدير قديماً .

وقد نقلت معظم أحجار هذا الدير المأخوذة من آثار الأسرة الثامنة عشرة إلى المتحف المصرى بالقاهرة .

رابعاً - تمثال رمسيس الثانى :

في وسط غابات النخيل التى تحتل الآن موقع مدينة منف العظيمة المنذثرة ، وبالقرب من قرية ميت رهينة ، تقابل في طريقك بين البدرشين وسقارة ، تمثالين هائلين لرمسيس الثانى كانا فيما مضى يقومان عند مدخل معبد فتاح بعاصمة مصر الخالدة .

التمثال الأول :

عثر على هذا التمثال سنة ١٨٨٨ . وهو مصنوع من حجر واحد من الجرانيت الأحمر المحبب وتجده الآن ملقى على ظهره في العراء على يمين السائر إلى سقارة . ووجه التمثال يتجه إلى أعلى . ويبلغ طول هذا التمثال ٢٦ قدماً

وطول التاج الملقى بجواوه $6\frac{1}{4}$ أقدام . أما مكان هذا التاج فظاهر في رأس التمثال ، يعينه ثقب مربع عميق كان يركب فيه .

وعلى أكتاف وصدر وأذرعة وسروال هذا التمثال تجد نقوشاً هيروغليفية تحمل اسم الملك رمسيس الثاني . وعلى شمال هذا التمثال تجد تمثالاً صغيراً بارزاً للأميرة « نبت آنت » وعلى رأسها لوحة مستديرة رسم عليها الإله فتاح والإله سقر بشكل إنسان يحمل رأس صقر .

التمثال الثاني :

أما التمثال الآخر لرمسيس الثاني بسقارة فكان طوله في الأصل ٤٢ قدماً . وهو مصنوع من حجر وحيد من المرمر البديع (الألبستر) . وقد أقامت مصلحة الآثار المصرية حوله مظلة بنيت حوائطها من اللبن وجعلت فيها سلماً حديدياً يؤدي إلى شرفة يصعد إليها المتفرج ليرى التمثال من أعلى .

وتقع هذه المظلة على يسار السائر إلى سقارة بعد موقع التمثال الأول بقليل . وترى على كتف هذا التمثال الأيمن وعلى ذراعه نقوشاً هيروغليفية ذكر فيها اسم رمسيس المحبوب من الإله آمون .

وقد عثر كافيلاً وسلون على هذا التمثال سنة ١٨٢٠ .

وإلى هنا نكتفي بما ذكرناه عن أهم معالم جبانة سقارة .

ولكن لا بد قبل نهاية هذا الفصل من كلمة ختامية عن أهرام الجيزة .

ملاحظات هامّة على أهرام الجيزة

١ — تواجه أضلاع الأهرام الجهات الأربع الأصلية بالضبط .

٢ — تقع مداخل الأهرام في الضلع الشمالي دائماً .

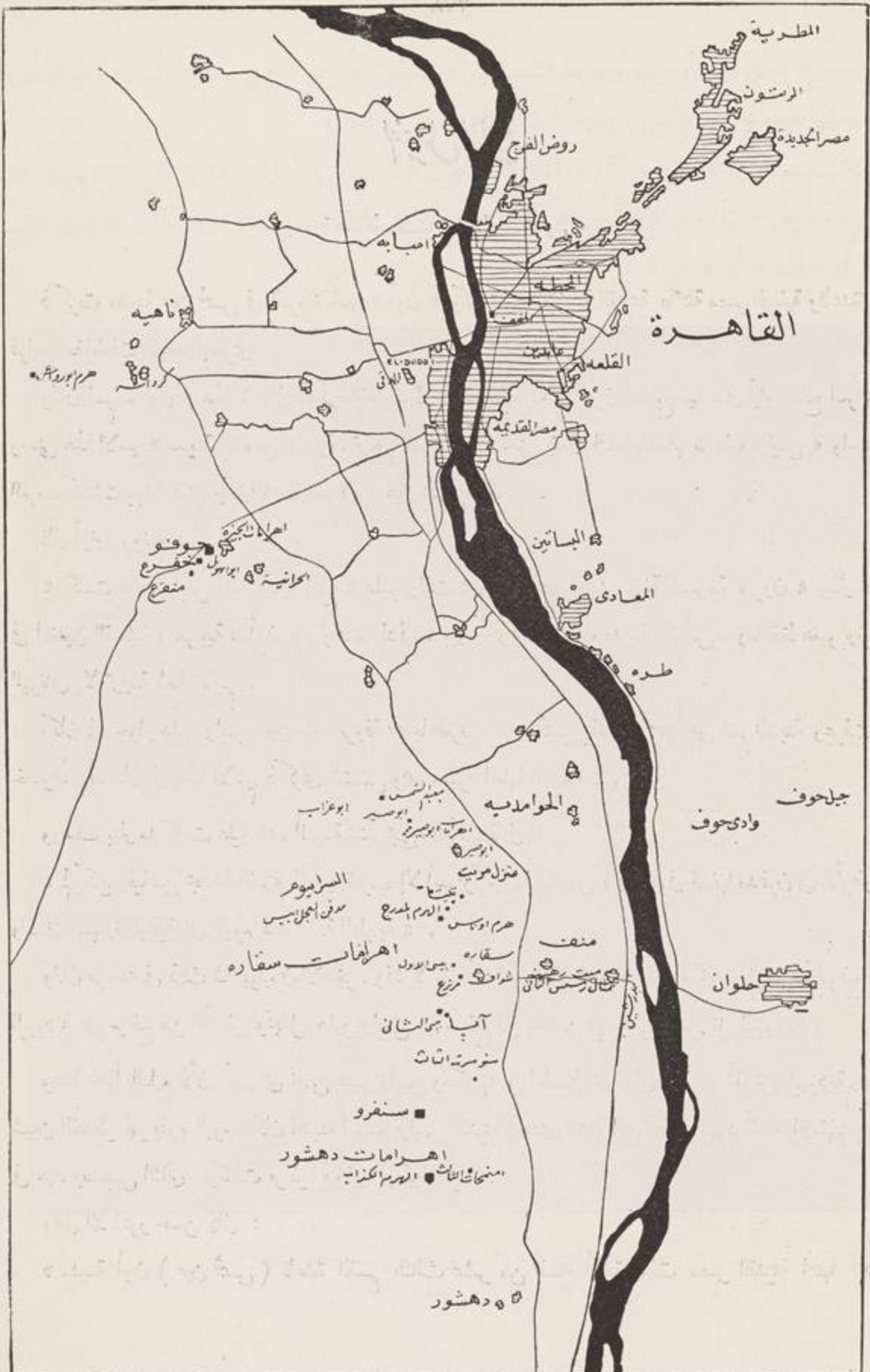
٣ — ضبطت لحامات الأحجار الهائلة التي بنيت منها الأهرام بحيث لا يمكنك إدخال سلاح رقيق بين حجرتين من أحجارها .

٤ — لم يستعمل في بناء الأهرام آلات معدنية بتاتاً . بل كانت ترفع الأحجار إلى مكانها بواسطة البكر والحبال التي عثر عليها في حفائر جامعة فؤاد الأول .

٥ — دخل لصوص المقابر في هذه الأهرامات في عهد الأميرة الثانية عشرة (٢٠٠٠ — ١٧٩٠ ق. م) وأعيد إصلاح ما أحدثوه فيها من ضرر في عهد الأسرتين الخامسة والعشرين والسادسة والعشرين (٧١٢ — ٦٦٣ ق. م) .

- ٦ - يقول هيرودوت إن عدد العمال الذين اشتغلوا في بناء هرم خوفو ١٠٠٠٠٠٠ عامل ، اشتغلوا ثلاثة أشهر كل سنة ، لمدة عشرين سنة .
- ٧ - كان ارتفاع هرم خوفو في الأصل ٤٨١ قدماً . أما الآن فيبلغ ارتفاعه ٤٥٠ قدماً بسبب تساقط الأحجار .
ويبلغ ارتفاع كل ضلع من أضلاعه الآن ٥٦٨ قدماً وكان في الأصل ٦١٠ قدماً .
كما يبلغ طول الضلع الآن ٧٤٦ قدماً وكان في الأصل ٧٥٦ قدماً .
- ٨ - تكفي أحجار هرم خوفو لبناء مدينة حديثة كاملة يبلغ سكانها ١٢٠٠٠٠٠٠ نفس .
- ٩ - إذا أريد بناء هرم مماثل لهرم خوفو الآن تصل تكاليفه إلى ٥١ مليون جنيه .
- ١٠ - إلى شرق هرم خوفو تجد ثلاثة أهرام صغيرة دفن فيها أولاد الملك .
- ١١ - يستغرق الصعود إلى قمة الهرم الأكبر ١٥ دقيقة بمساعدة رجلين من الأدلاء الأقوياء .
- ١٢ - يبلغ مسطح قمة الهرم الأكبر ٣٥ قدماً مربعاً . ومن فوق هذه القمة تشرف على أبداع منظر في وادي النيل فترى النهر ينساب بين الحمول الخضراء وتشرف على القاهرة بمآذنها العالية وعلى جبل المقطم المحاط بجو أثري أزرق وضاح ، ومن الناحية الأخرى ترى الصحراء برمالها الصفراء كبحر من الذهب الوهاج في وسطه جزائر بارزة هي الأهرام القريبة والبعيدة التي تصعد بقممها العالية في اتجاه الشمس .
- ١٣ - وفي داخل الهرم تجد قاعة الدفن الخاصة بالملك خوفو فارغة وتجد التابوت الملكي المصنوع من الجرانيت الوردي . وقد ضاع غطاؤه . وإذا ضربت جوانب هذا التابوت بيدك يرن مثل الجرس . وقد سرق كل ما في هذا الهرم منذ القدم . وعند ما اقتحم العرب بابه في عصر المأمون وجدوه خالياً .
- ١٤ - للدخول إلى الهرم ، اذهب إلى مقابل الباب الشمالى واصعد الدرجات الخارجية حتى تصل إلى علامة حمراء تشير إلى المدخل الذى فتحه لصوص الهرم قديماً في المدمك السادس . لاحظ أن المدخل الأصلي للهرم يقع في المدمك السابع عشر ، ولا يزال هذا المدخل مغلقاً لأن نظر اللصوص لم يقع عليه إذ كان الهرم كله مكسواً بطبقة ملساء من الحجر الجيري الناصع البياض الخلوع من محاجر طره والمعصرة .
- ١٥ - في عصر المماليك هدمت هذه التكسية البديعة واستعملت في بناء جامع السلطان حسن بجوار القلعة وفي جوامع أخرى بالقاهرة .
- ١٦ - عند المدخل تجد ممراً مائلاً داخل الهرم يقودك إلى غرف الدفن السفلى .
- ١٧ - على بعد ٦٣ قدماً من المدخل تجد ممراً آخر يقودك إلى أعلى . وعند ملتقى الممر السفلى بالمر العلوى ينتهى النفق الذى تقبه لصوص الهرم .

- ١٨ - بعد ذلك يتسع المر العلوى فى العرض والارتفاع ويصبح دهليزاً كبيراً .
- ١٩ - ينتهى هذا الدهليز بمسطح أفقى يقودك إلى الغرفة الخارجية لقاعة الدفن الملكى .
- ٢٠ - من هذه الغرفة تصل إلى قاعة الدفن الخاصة بالملك خوفو فتجد تابوتاً فارغاً خالياً من النقوش .
- ٢١ - تبلغ أبعاد قاعة الدفن $\frac{1}{4}$ ٣٤ قدماً عرضاً و ١٩ قدماً ارتفاعاً .
- ٢٢ - سقف هذه الغرفة مصنوع من سبع كتل من الجرانيت هائلة طول الواحدة منها $\frac{1}{4}$ ١٨ قدماً .
- ٢٣ - يوجد أعلى غرفة الدفن خمس غرف فارغة تقع كل منها فوق الثانية على خط رأسى مستقيم .
- ٢٤ - يمكن الوصول إليها بسلم من السرداب الأكبر
- ٢٥ - المعتقد أن هذه الغرف جعلت لتخفيف الحمل عن سقف غرفة الدفن الملكية .
- ٢٦ - تجد اسم الملك خوفو مكتوباً بالبوية الحمراء فى الغرفتين الرابعة والخامسة ويظن أن الحجارين هم الذين كتبوا هذا الاسم فى محاجر طره .
- ٢٧ - تبلغ ابعاد التابوت $\frac{1}{4}$ ٧ قدماً طولاً و $\frac{1}{4}$ ٣ أقدام عرضاً وثلاثة أقدام وأربعة بوصات ارتفاعاً . وهو مصنوع من حجر واحد من الجرانيت ومصمم ليوضع داخله صندوق الميت الذى لا يوجد له أى أثر .
- ٢٨ - عند تقابل الدهليز بالمر العلوى يوجد ممر أفقى يقودك إلى غرفة دفن الملكة .
- ٢٩ - أرض هذه الغرفة وسقفها مصنوع من الحجر الغير مهذب .
- ٣٠ - هناك منفذان للهواء من غرفة دفن الملك ومن غرفة دفن الملكة إلى الخارج ، الغرض منهما إمداد العمال بالهواء الخارجى الصالح للتنفس .
- ٣١ - يمكن مشاهدة هذان المنفذان على ارتفاع ثلاث أقدام فوق أرضية قاعات الدفن .
- ٣٢ - أثناء حملة نابليون بونابرت على مصر وقف هذا القائد أمام جنوده فى معركة امبابه قائلاً :
أيها الجنود ، من فوق قمة هذه الأهرام ، أربعون قرناً تنظر إليكم ، وسوف تكون شاهد عدل على نصركم المبين .
- ٣٣ - من المؤلم أن ينتصر الفراعنة على كل عناصر الطبيعة فى الاحتفاظ بمومياتهم سليمة إلى يوم البعث داخل هذه الصروح الضخمة ولكنهم ينهزمون أمام جشع لصوص المقابر وسارقى الأكفان والباحثين عن الكنوز ، فتضيع مومياتهم وتنتهك حرمة مقابرهم !
أيها الإنسان يالك من وحش وأى وحش !!



خريطة لبيان حقل الأهرام على الهضبة الليبية التي تمتد مع حدود الوادي الغربية .

الفصل الرابع

مدينة عين شمس

ذكرت مدينة عين شمس في التوراة باسم « أون » وكانت في الأزمنة القديمة عاصمة مصر الدينية وقاعدة من قواعد مقاطعات الوجه البحري .

وكان اسم « أون » هذا لا يزال باقياً يطلقه القبط على هذه المدينة في القرن السابع الميلادي أيام الفتح العربي ، ومعنى هذا الاسم « مدينة الشمس » . وقد ترجم اليونان هذا المعنى فجعلوا اسمها عندهم « هليوبوليس » واحتفظ العرب كذلك بهذا المعنى فجعلوا اسمها العربي « عين شمس » .
قال أرتور رونييه :

« كانت هليوبوليس قديماً قسبة إقليم « هليوبوليت » وكان اسمها الديني باللغة المصرية « يون » وعثر عليه في اللغتين القبطية والعربية « أون » ، واسمها المدني « بير - رع » ومعناه مدينة الشمس ، وما لفظ هليوبوليس اليوناني إلا ترجمة لهذا الاسم .

وكان في جوار هليوبوليس عين ماء معروفة سماها العرب عين شمس فغلب اسمها على اسم المدينة وعرفت به خصوصاً وقد كان في هذا الاسم ذكرى الشمس وهي معبود أهلها القدماء .

ووصف بتلر ما كانت عليه هذه المدينة عند مجيء العرب فقال :

« لم يكن باقياً من مجدها القديم لما أتى العرب إلا أسواراً مهدمة وتماثيل لأبى الهول نصفها مدفون في الأرض ، والمسلة الشهيرة الباقية إلى اليوم عند قرية المطرية » .

وكان مرجعه في ذلك شامبوليون الأصغر . وقد لاحظ أن الخريطة الحربية الحديثة تجعل أون في موضع تل اليهودية على مرتفع من الأرض وتجعل هليوبوليس في موضع تل الحصن في الجنوب من تل اليهودية .

وهذا خطأ بالطبع لأن أون هي نفس هليوبوليس ومكانها تل الحصن بجوار المطرية . أما تل اليهودية بجوار شبين القناطر فهو يقوم اليوم مكان مدينة ليونتوبوليس القديمة إحدى المدن التي بناها اليهود أثناء إقامتهم بمصر في عهد رمسيس الثاني . وكانت مركز أبروشية قبطية قديمة .

وقال الدكتور حسن كمال :

« مدينة أون (عين شمس) قاعدة القسم الثالث عشر من أقسام أو مقاطعات مصر القديمة اسمها المدني

« بير — رع » أى معبد أو بيت أو مدينة الشمس ، واسمها القبطى « ثرى » بمعنى مدينة الشمس وهو الأصل فى تسميتها باليونانية هليوبوليس . وقد ذكرت فى التوراة باسم « أون » .
كانت منبع الديانة المصرية ومركزاً لدراسة علم اللاهوت والفلسفة . وقد اختط بجانبها مدينتان شهيرتان هما « أحو » و « حا — بن — بن » ، والأخيرة هى مدينة بايلون ومكانها الآن مصر القديمة . وكان لهاتين المدينتين شأن عظيم فى حروب « أوزيريس » .



موقع مدينة أون (عين شمس) والمعبد والمسلة وشجرة العذراء
بجوار المطرية من ضواحي القاهرة .

ومن المعروف أن مدن الوجه البحرى هي التي نشرت الحضارة المصرية ووسعت نطاقها لأن الصلوات والقصائد التي مدحت بها العبودات وصارت بعد ذلك أصولاً للكتب المقدسة كان منشؤها في مدينة « أون » كما يقال لها أيضاً مدينة « يون » .

ولما انقسمت مصر إلى أعمال إدارية انتهى بها الأمر إلى قسمين مستقلين . فكانت « أون » في الجهة البحرية مركزاً للحكومة ومنها انبثق نور المدنية على سكان الأراضي الخصبة واهتدى به أهل الأباطيح ، وأنشأ فيها الكهنة مدارس وجامعات بحثت أصول الديانات المحلية واعتنت بها وربتها وأوجدت التتسيم الذى نتج وانتشر بهمة امراء الوجه البحرى . وعلى ذلك نشأ نظام الملك فى العالم لأول مرة فى مدينة « الشمس » على أساس أن الملك ابن الإله رع ويمثل الآلهة على الأرض ، وشخصه مقدس ، وإرادته فوق كل إرادة ، وكتبه العليا يجب على الشعب إطاعتها بدون مناقشة .

وكانت مدينة الشمس فى الجهة الشمالية من المعبد حيث نشاهد الآن أطلالها عالية . ولم يبق من آثارها ما يستحق الذكر غير أنه أقيم فى مكانها قرية عرفت باسم « تل الحصن » وربما سرى إليها هذا الاسم لمجاورتها لحصن المدينة الأصلية .

وكان حول المدينة ومعبيدها سور مبنى من اللبن كما كان الحصن يقوم فى شمالها . وكان للسور أبواب على أبعاد متساوية . وكان لكل باب برج من الحجر الأبيض الجبرى مشحونان بالكتابة الهيروغليفية كما رواه مكسيم ديكمان فى كتابه « النيل » . وقد ظهر حديثاً عند ما قامت وزارة الأشغال العمومية برفع الأحجار التى أقيمت خلف وتحت مباني بئر مقياس النيل بالروضة لتقويتها أن كثيراً من هذه الأحجار عليها كتابات هيروغليفية تثبت أنها منقولة من معابد وأبواب مدينة أون القديمة (عين شمس) .

وقد نقل ابن سعيد عن كتاب « لذة اللس فى حلى كورة عين شمس » أنها كانت فى قديم الزمان مدينة عظيمة الطول والعرض ، متصلة البناء بمدينة مصر (القديمة) حيث قامت مدينة الفسطاط فيما بعد . ومعنى ذلك أنهم كانوا يطلقون اسم « عين شمس » على موقعها الحقيقى وعلى ما يليه من الأماكن إلى بابليون وحصنها .

وكانت المسافة بين المدينتين قصيرة على أن أرباضهما أُنْتُت فى القرن السابع الميلادى عبارة عن منازل وكنائس متفرقة .

وكانت المدينة فى ذلك العصر تقع على نهد من الأرض يمتد فى نهر النيل الذى كان يمر فى هذا العهد بها . وفى أول العصر التركى وقعت المعركة الحاسمة بين السلطان سليم الأول والماليك فى الحقول المحيطة بمسلة عين شمس سنة ١٥١٧ م وانتهت باحتلال الترك للبلاد المصرية .

وفي عصر الحملة الفرنسية تغلب القائد « كليبر » في نفس هذه الحقول على الجيش التركي في واقعة عين شمس وأخرج الترك من البلاد المصرية في سنة ١٨٠٠ م .

معبد رع بعين الشمس

تدقق النصوص المعروفة باسم متون « الأهرام » في الكلام عن معبد « رع » بمدينة « أون » ، وتسمى هذا المعبد « هيت سار » ومعناه « قصر الأمير » . وتشير إلى الممر المعروف باسم طريق الكباش الذي يؤدي إلى الأبواب المحروسة بتماثيل العجول .

أما هذا المعبد فقد بناه سنوسرت الأول من ملوك الأسرة الثانية عشرة ، الذي عرفه اليونان باسم سيزوستريس ، سنة ٢٤٣٣ ق . م . بمناسبة عيد الآله ست إله الصحراء . ولم يبق منه الآن سوى مسلة واحدة من الجرانيت لا تزال ماثلة في مكانها الأصلي يبلغ ارتفاعها ٦٦ قدماً وهي تحمل كتابات هيروغليفية على وجهاتها الأربع ذكر بها اسم الملك سنوسرت المحبوب من رع إله أون . كما ذكر بها بناء المعبد بمناسبة عيد الآله ست إله الصحراء . ويحيط بهذه المسلة الآن سياج حديدي فوق حوائط أربعة أقيمت حول قاعدتها بشكل حوض صغير يمتلئ بمياه الرشح التي ترتفع مع فيضان النيل وتنخفض مع انخفاضه .

وقد كان بهذا المعبد هياكل لتأدية الفروض الدينية ، كما كان به معاهد وجامعة للعلوم الدينية ومراصد لمراقبة النجوم ، لأن رئيس كهنة عين شمس كان يحمل من أقدم العصور لقب « الراصد الأكبر » . وكان يوجد به أيضاً أماكن مخصصة للحيوانات المقدسة مثل مجل « منافيس » والطائر « مالك الحزين » الذي سماه اليونان « الفنكس » واسمه المصري « بنو » ويعرفه الفلاح المصري الآن باسم « البلشون » . وكانت مدينة عين شمس مقر عبادة وتقديس هذا الطائر . وكان كهنة هذه الجهة يرون فيه إما الإله « أوزيريس » أو روح الإله « رع » . والفكرة الأخيرة كانت هي السائدة .

والمعروف عن هذا الطائر على وجه التحقيق أنه يلد على شجرة في معبد عين شمس ، ومن المحتمل أنها الشجرة القديمة المقدسة التي كانت الآلهة تكتب على أوراقها أسماء ملوك مصر تخليداً لذكراهم . وهي شجرة الجوز المقدسة . ويقال إن الشجرة التي كانت تزار بجهة عين شمس والمعروفة الآن باسم شجرة العذراء بناحية المطرية هي من نسل هذه الشجرة المقدسة .

فلما جاءت عائلة السيد المسيح أو العائلة المقدسة إلى مدينة أون ، حين هروبها إلى مصر في عصر هيروودوس حاكم فلسطين الروماني ، استراحت تحت ظل هذه الشجرة القديمة المورقة . ومن هذا الوقت وهي تعرف باسم شجرة العذراء .

وتحت هذه الشجرة ضرب الطفل يسوع الناصري الأرض بقدمه فانفجرت عين من المياه العذبة المنعشة فشربت مريم وطفلها ويوسف وحماهم حتى ارتقوا . وغسلت العذراء ملابس طفلها بمياه هذه العين ثم أقت بالمياه المتخلفة على عصا يوسف النجار التي كان قد غرسها في الأرض فتحولت إلى شجرة البلسم المعروف أيضاً باسم البلسان ثم أينعت هذه الشجرة وفاحت منها رائحة ذكية . ولما نمت زارعة البلسم وغدا عصيره دواء ناجعاً لجميع الجروح وللأمراض الجلدية المستعصية ، أصبح البلسان من أمن ما يقتنى ويعتنى به .

وفي العصر العربي أحيط هذا الموضع بسور متين وجعل الشرطة حول مزرعة البلسان لحراستها في زمن الحصاد ، وأحياناً كان بعهد بهذه الحراسة إلى الأسرى المسيحيين .

وكانت طريقة حصاد البلسان هي فصد فروع الشجرة وجمع السائل المتخاف من هذا الفصد في أوان فضية . وتعمل هذه العملية في فيضان النيل .

أما عين المياه التي انفجرت تحت شجرة العذراء فلا تزال للآن بالمطرية من ضواحي القاهرة . وقد ركبت فوقها ساقية تروى بستاناً من أملاك الحكومة . ومن المدهش أن تكون المياه الجوفية في هذه المنطقة كلها مياه ملحة ما عدا مياه هذه العين فإن مياهها عذبة منعشة !! .

وتريد الأساطير أن ترينا الآن كيف أن سكان ضاحية المطرية لا يخمر لهم خبز نظراً لما أظهره من البخل قبل العائلة المقدسة حين قصدت إلى هذا المكان جائعة .

حمامة عين شمس :

قلنا إنه لم يبق من مدينة « أون » القديمة شيء للآن فيما عدا شجرة العذراء بالمطرية التي استراحت الأميرة المقدسة بجوارها ، وفيما عدا العين التي انفجرت تحتها ، ثم مسلة منفردة من المسلتين اللتين أقامهما سنوسرت الأول عند مدخل معبد « رع » ، أما المسلة الثانية فقد سقطت سنة ١١٩٠ م .

بقيت هذه المسلة المنفردة وسط الحقول كشاهد حزين على مجد عين شمس الذي زال واندثر!! ولا يزال في تل الحصن المجاور لهذا المكان آثار سور قوى قديم ارتفاعه حوالى عشرين قدماً .

وقد علا سطح السهل ، الذي كانت تقوم عليه مدينة « أون » ، بضعة أمتار منذ القرون الماضية ، ويدل على ذلك العمق الذي توجد فيه المسلة اليوم ، والعمق الذي توجد فيه الآثار الأخرى تحت مستوى سطح السهل . وكانت مدينة « أون » معروفة بعظمة آثارها كما كانت معروفة بأنها قبلة لأهل العلم وكعبة الدين .

فهنا بجوار هذه المسلة الوحيدة التي بقيت على الزمن شاهداً على ما كان لهذا الموقع من روعة ونخامة ، كانت تقوم جامعة عين شمس ضمن معبد رع .



المسلة التي أقامها سنوسرت الأول عند مدخل معبد « رع » بمدينة عين شمس منذ ٤٠٠٠ سنة تقريباً . ولا تزال موجودة بالقرب من المطرية وعلى أقدامها تجد أكواخ عربان تل الحصن القرية الباسية التي تقوم اليوم على أطلال مدينة عين شمس القديمة .

هنا في مدينة عين شمس كانت تقوم أقدم جامعة عرفتها المدينة في العالم وهي أم الجامعات كلها ، خلفتها جامعة الاسكندرية في العصر اليوناني والروماني والمسيحي ثم جامعة القسطنطينية في العصر العربي القطائع فالجامعة الأزهرية في العصر العربي وبعد ذلك جامعة فؤاد الأول بالقاهرة وجامعة فاروق بالاسكندرية في العصر الحديث .

هنا في جامعة أو معبد « رع » العظيم بمدينة أون القديمة تمت مراسم حفلة زواج يوسف الصديق ، بعد أن صار وزير مصر الأكبر ، بابنة الكاهن الأكبر لمعبد عين شمس .

هنا في هذا المعبد الجامعي أقام تحوتمس الثالث في عهد الأسرة الثامنة عشرة مسلتين نقلتهما الملكة كليوباترا فيما بعد إلى الاسكندرية وأقامتهما أمام معبد السيزار يوم . وظلت هاتان المسلتان بالاسكندرية إلى أن نقلت إحداها إلى

مدينة لندن سنة ١٨٧٧ ونصبت على ضفاف نهر التاميز ، ثم نقلت الثانية إلى الولايات المتحدة بأميركا ونصبت في سنترال بارك بنيويورك .

هنا في جامعة عين شمس تلقى موسى الكليم عليه السلام ، حكمة المصريين وعلومهم على أيدي كهنة معبد « رع » . هنا في هذه الجامعة تناقش هيروdot مع أكبر الكهنة علماء وثقافة .

هنا في هذه الجامعة تلقى أفلاطون علومه ، ودرس أدوكسيس الرياضى الحكمة والفلسفة وعلم الفلك ، وتخرج كلود بطليموس الجغرافى الخالد الذكر .

هنا رأى أسترابون المنازل التي كان يقيم بها هؤلاء العلماء في العصر اليوناني .

هنا في هذه الجامعة تعلم الناس قياس الزمن على أساس أن السنة الشمسية وحدة في التوقيت .
هنا قسم الكهنة السنة إلى ٣٦٥ يوماً ، ولكنهم لم يتمكنوا من معرفة أن هذا العدد ينقصه ربع يوم . وهذا
التقصير في الإدراك مكن المؤرخين من معرفة عدة عصور هامة في العهد الفرعوني كانت معرفتها متعذرة من دونه .
هنا قسم الكهنة السنة اثني عشر شهراً ، وقسموا الشهر ثلاثين يوماً ثم أضافوا إليها في آخر العام خمسة أيام
كي تصبح ٣٦٥ يوماً .

هنا قسم الكهنة السنة ثلاثة فصول : فصل الزرع وفصل الحصاد وفصل الفيضان .
هنا أطلق الكهنة أسماء الآلهة على شهور السنة ، وظلت هذه الأسماء محفوظة للآن في أشهر السنة القبطية :
فشهر توت مأخوذ من اسم الإله توت إله المعارف ورب القلم ومخترع الكتابة ومقسم الزمن ، وهو المعروف عند
اليونان باسم هرمس ، وعند العرب باسم إدريس ، وعند اليهود باسم أخنوخ . ويقابل هذا الشهر شهر « تهورتي »
في الشهور المصرية القديمة ومعناه شهر الرخاء لأن عيد تكامل الفيضان يوافق اليوم الأول من هذا الشهر .
وكان الاحتفال بهذا العيد يبقى أسبوعاً كاملاً في العصر الفرعوني .

وفي العصور التالية سمي اليوم الأول من شهر توت بالنيروز ، وهي كلمة فارسية معناها اليوم الجديد أو رأس السنة .
وكانت الحكومات المصرية تحتفل بهذا العيد رسمياً من أقدم العصور المعروفة ، وظل الاحتفال الرسمي حتى
أيام السلطان برقوق أول سلاطين دولة المماليك الجراكسة ، فأمر بإبطاله في نهاية القرن الرابع عشر الميلادي . ولكن
هذا الأمر لم يمنع نصارى مصر ومسلميها من الاحتفال بهذا العيد القومي احتفالاً شعبياً عظيماً في الماضي . فعند تكامل
الفيضان يمتلئ النهر بالسفن والزوارق ، وينزل فيها الرجال والنساء ويختلط الحابل بالنابل وتدور كؤوس الراح
على النغمات الموسيقية ويظل القوم في سرور وانشراح حتى يسدل الليل ستاره ، فينصرفون إلى دورهم . وظل هذا
الاحتفال الشعبي حياً حتى استبدل في العصور الحديثة بعيد وفاء النيل المعروف .

أما شهر بابه فاسمه مأخوذ من اسم إله الزراعة « بي — بيت » وهو شهر عيد آمون وفيه يضرب المثل « بابه خش
واقفل الدرّابه » .

أما شهر هاتور فاسمه مأخوذ من اسم الإله هاتور إلهة الحب والجمال وملكة السماء والفرح والحبة التي يقابلها
عند اليونان « أفروديت » .

ويزرع القمح في هذا الشهر في الوجه البحري ولذا يقال في الأمثال « هاتور أبو الذهب المنتور » .
أما شهر كيهك فقد قيل إن اسمه من « كا — ها — كا » إله الخير ، وهو الثور المقدس المعروف عند العامة باسم
العجل أبيس . وفيه يبلغ الليل نهايته من الزيادة ولذلك يقولون في الأمثال : « كياك صباحك مساك » .
أما شهر طوبة فقد قيل إن اسمه مشتق من لفظة « دُبه » المصرية القديمة بمعنى غسل أو تطهر كما قيل إنه

مشتق من « طوبيا الأعلى » إله المطر ، ومن إسمه سميت مدينة طيبة (الأقصر والكرنك) . ويقع عيد الغطاس عند النصارى يوم ١١ طوبه ، ويبدأ نضج القمح في هذا الشهر وفيه يضرب المثل : « طوبة تخلى العجوزه كركوبة » . أما شهر أمشير فيقابلة « ماج — يبر » ومعناه إنتهاء البرد ، وقيل إن اسمه أخذ من اسم إله الشياطين لحصول الزوابع والتقلبات الجوية الحادة فيه ، ولذلك يقولون « أمشير أبو الزعابيب الكثير ، فيه الزرع القصير يحصل الزرع الطويل » .

أما شهر برمهاث فينسب إلى « با — منحاح » إله الحرارة . وفيه يقال : « برمهاث روح الغيظ وهات » . أما شهر برمودة فينسب إلى إلهة الحصاد « نوت » . ويقابل هذا الشهر شهر « بارنوت » في الشهور المصرية القديمة . وفيه يتم حصاد القمح والشعير والفول والحلبة . وفيه يقال : « برمودة دق بالعمودة » . أما شهر بشنس فينسب إلى الإله « خونسو » ابن الإله « آمون » والإلهة « موت » . وفيه يقال : « بشنس يكس الغيظ كنس » .

أما شهر بؤونة الحجر فينسب إلى الحجر أشدة القيظ فيه . ويقابلة في الشهور المصرية القديمة « با أنت » ومعناها مقابر طيبة . وفيه يزور الناس موتاهم . وفيه أيضاً نزول النقطة وهي علامة بدء الفيضان . وكانت نساء منف وعين شمس يتبأن ببدء الفيضان بوضع قليل من العجين فوق أسطح منازلهن . فإذا نزلت النقطة تخمر العجين وكان هذا فألاحسنا لهن ولأهل منازلهن طول العام .

أما شهر « أيب » فقيل إن أصله « هور با » إله الفرح ، ويقابلة الشهر المصري « أيب » وهو شهر قطع الأحجار وفيه يقال « أيب طباخ العنب والزيب » . أما شهر مسرى فنسبة إلى « ميسورع » ومعناه ولادة الشمس . وفيه يقال : مسرى تجرى فيه كل ترعة عمره » . وهكذا بقيت علوم جامعة عين شمس القديمة إلى الآن في أسماء الشهور القبطية أو شهور الفلاح والزراعة !!

والآن تفكر وزارة المعارف العمومية في إنشاء جامعة جديدة بمدينة القاهرة . فما أجل إحياء ذكرى جامعة عين شمس القديمة ! وما أروع هذه الفكرة وأسمها !! لو انشئت هذه الجامعة الجديدة في نفس الموقع الذي كانت تقوم فيه جامعة عين شمس القديمة أو بالقرب منه !

وجدير برجل المعارف ووزيرها الجليل احمد نجيب الهلالي باشا أن يعيد إحياء ذكرى جامعة عين شمس في عهد وزارة الشعب تحت رئاسة صاحب المقام الرفيع الزعيم الجليل مصطفى النحاس باشا . وتحت كنف حضرة صاحب الجلالة ملك النيل المنفى فاروق الأول حفظه الله !!

الفصل الخامس

مدينة مصر

الظاهر أنه منذ القدم ، انتشرت على الشاطئ الشرقى للنيل ، مقابل مدينة منف وضواحيها ، مجموعة من القرى أطلق عليها القدماء اسم مدينة « منف الشرقية » .

وظلت هذه القرى تنمو مع الزمن وتمتد وتتلاحق حتى أوشكت أن يتصل بعضها ببعض من فرط اتساعها وانتشارها .

ولما وصلت هذه المجموعة إلى هذا الحد من الاتساع أطلق عليها اسم مدينة « كيمي » ومعناها مدينة « مصر » وإلى هذه الحالة القديمة يرجع السبب في إطلاق اسم مدينة « مصر » على القاهرة وضواحيها لغاية اليوم . وقد تداولت على هذه القرى أسماء كثيرة في العصور المتتالية . وكانت أهمها القرى الآتية :

أولاً — قرية « تندونياس » التي سماها العرب في عصر الفتح « أم دنين » وموقعها الآن في قلب القاهرة ، وهي التي عرفت أيضاً باسم المقس ، وقد تكلمنا عنها في الصفحات ١٦٩ و ١٧٠ من الجزء الأول من هذا الكتاب ، وكانت تشمل المواقع التي فيها اليوم جامع أولاد عنان بشارع إبراهيم باشا وجزء كبير من قسم الأزبكية . ويقوم جامع أولاد عنان اليوم مكان كنيسة قديمة كانت تعرف في العصر المسيحي باسم كنيسة مار جرجس ، ولذا يقصده النصارى والمسلمون على السواء لغاية الآن للتبرك .

ثانياً — قرية الخندق وكانت تشمل المواقع التي فيها اليوم دير أنبا رويس والكنيسة البطرسيية بشارع الملكة نازلي وتمتد حتى دير الملاك البحري بشارع الملك بمحذاق القبة وتشمل فوق ذلك جزءاً كبيراً من قسم الوايلي .

ثالثاً — قرية بابليون وقلعتها وكانت تشمل المواقع التي فيها اليوم الحصن الروماني المعروف باسم « قصر الشمع » وهذا الاسم تحريف ظاهر لاسم قصر كيمي أو قصر شيمي ومعنى ذلك حصن مدينة مصر .

رابعاً — قرية دير الطين وكانت تعرف أولاً باسم قرية دير مار حنا ولكن شهرتها بتصدير الطين الأصفر الذي كان يستعمل في صناعة الخزف بمصانع العدوية وغيرها جعل اسم قرية دير الطين يتغلب على اسمها الآخر . وكانت الأرض الزراعية التابعة لهذه القرية مقيدة حتى عهد محمد علي باشا باسم بركة الحبش . وكانت بركة الحبش

هذه من النواحي المالية القديمة ثم قسم زمامها على قرية دير الطين وعلى قرية بساتين الوزير المعروفة اليوم باسم البساتين فقط واختفى اسم بركة الحبش .

خامساً — قرية العدوية المنسوبة إلى سيدة مغربية تسمى العدوية وهي التي أنشأت بها دير النسطور نسبة إلى الطائفة النسطورية المعروفة . وفي عهد احمد بن طولون أقطعت هذه القرية لاثني عشر ألفاً من غلمان السودان فسميت منية السودان . وتعرف هذه القرية اليوم باسم معادى الخبيري نسبة إلى الرئيس حسين بن حماد الخبيري المتوفى سنة ١٢٢٤ هـ وكان متعهد المعادى في النيل بهذا الموقع .

سادساً — قرى الحجارة أو مرافئ طره وشهران (المعصرة الحالية) التي ذاع صيت معاصرها القديمة في العصر المسيحي .

وكانت طره وشهران تطلان على النيل مباشرة ، وكانت بها مرافئ معدة إعداداً تاماً لتحميل السفن بالأحجار الضخمة الناصعة البياض المعروفة باسم الحجر السلطاني . وقد خلعت هذه الأحجار من محاجر طره والمعصرة لتكسية واجهات اهرامات الجيزة ولبناء حجرات الدفن الداخلية .

سابعاً — قرى الاستشفاء حيث حلوان البلد وحلوان الحمامات وكفر العلو الآن . وكانت هذه القرى تقع قديماً في شبه جزيرة بين فرعى النيل الرئيسيين لأن الدلتا كانت تبدأ عند قرية كفر العلو الحالية في عهد من عهد منف الطويلة .

وربما ترجع تسمية كفر العلو وحلوان أو علوان إلى هذا المعنى أى الأرض العالية الواقعة بين فرعى النيل . كل هذه المجموعة من القرى - وقد تكلمنا عنها بالأسهاب الكافي في الجزء الأول من هذا الكتاب . كان يطلق عليها قديماً اسم مدينة « منف الشرقية » . و بعد ذلك عرفت باسم مدينة « كيمي » أو مدينة « مصر » . وفي العصر المسيحي وصلت هذه المدينة لأن تكون مدينة هامة لها خطرهما في الحرب ولها مركزها بين المدن المصرية العريقة في القدم وكان مركزها الرئيسى حول حصن بايبلون ولذا طغى هذا الإسم على المدينة كلها وعرفت باسم مدينة بايبلون . وكان لموقعها أهمية خاصة إذ أنها تسيطر على طرق القوافل الآتية من الوديان المنتشرة في الصحراء الشرقية كما كانت تسيطر على رأس الدلتا وتتبعها في تنقلاتها من الجنوب إلى الشمال وتشرف هكذا على طرق الملاحة في النيل المؤدية للوجهين القبلى والبحرى ، وتحمى مدينة منف ، وكانت لها بمثابة حصن أمامى .

قلنا سابقاً إنه بعد تأسيس مدينة الإسكندرية سنة ٣٣٢ ق . م ابتدأت مدينة منف في الاضمحلال إذ نقلت أحجارها وأعمدتها لاستعمالها في تشييد مباني عاصمة البطالمة الجديدة .

ولما صدر مرسوم الإمبراطور تيودوسيوس سنة ٣٧٩ م الذي جعل المسيحية الدين الرسمي للبلاد تعرضت مدينة منف للتخريب والنهب ، ولم ينج من الهدم والحريق لا معبد « فتاح » ولا « معبد أبيس » ولا معبد « أفروديت » ... وتكسرت تماثيل الآلهة الوثنية وقام أنصار الدين الجديد بهدم وإخفاء معالم المدينة الشهيرة ، ثم استعملت الأحجار المنحوتة والأعمدة المصقولة المتخلفة من معابد منف في بناء الكنائس والحصون وسواها بمدينة مصر .
ولما أنشأ العرب مدينة الفسطاط في القرن السابع الميلادي في عهد الفتح العربي ، ظلت نفس هذه العملية - عملية نقل أحجار وأعمدة منف - مستمرة واستعملت هذه الأحجار وهذه الأعمدة في بناء المساجد ودور الحكم والتحصينات بعاصمة الإسلام الجديدة .

وقد استمرت هذه العملية أيضاً في بناء العواصم الإسلامية التالية وهي : العسكر والقطائع والقاهرة العزبية . حتى اندثرت مدينة منف تماماً واختفت من الوجود .

ولا تزال أحجار وأعمدة معابد منف الوثنية موجودة للآن في بعض كنائس وجوامع القاهرة الحالية .

وقد حصل في العصر العربي أن هدمت كنائس كثيرة من الكنائس المسيحية القديمة ، إما بسبب هجرة أصحابها للدين القديم واعتناقهم الإسلام أو لأسباب سياسية أخرى ، واستعملت أحجارها وأعمدتها مرة أخرى في بناء المساجد والقصور الإسلامية وهي نفس الأحجار التي سبق نقلها من المعابد المصرية ، واستعملها في بناء هذه الكنائس . وهكذا يعيد التاريخ نفسه !!

ولا زال الباحثون يعثرون لليوم في كثير من أحياء القاهرة القديمة على حجارة كبيرة عليها نقوش هيروغليفية من عهد منف وعين شمس .

حصن بابيلون أو قصر الشمع :

طغى اسم بابيلون على اسم مدينة مصر في العصر الروماني كما قلنا . ولكن اسم مدينة بابيلون لم يعلو إلا في العصر المسيحي حيث كانت مركز الحكومة المحلية كما كانت قلعها المعروفة باسم حصن بابيلون والمطلة على شاطئ النيل الشرقي مقراً لأقوى رباطات جيش الاحتلال الروماني بالقطر المصري .

وقد بلغ طول أسوار هذا الحصن في عهد استرابون ٣٠٠ متر وعرضها ٢١٥ متراً .

وقد قاومت هذه الأسوار الغزوات الأجنبية قروناً عديدة حتى سقطت سنة ٦١٧ م في أيدي الفرس تحت قيادة كسرى أنوشروان . ثم ما لبثت أن سقطت مرة ثانية سنة ٦٤١ م في أيدي العرب تحت قيادة عمرو بن العاص بعد حصار دام ثمانية أشهر تقريباً .

وقد ترك لنا حنا النقيوسى الأسقف القبطى الذى كان معاصراً لزمان الفتح العربى ديواناً ممتعاً عن حوادث هذا العهد ذكر فيه تاريخ حصن بابلون باسمه طويلاً .

ويعرف هذا الأسقف باسم حنا النقيوسى نسبة إلى مدينة نقيوس التى لا تزال أطلالها باقية للآن فى كوم مانوس الواقع شمالى قرية زاوية روزين بمركز منوف على الشاطئ الشرقى لفرع رشيد .

وقد جاء فى ديوان هذا الأسقف - وقد كتب فى أواخر القرن السابع الميلادى - أن أول من بنى حصن بابلون هو الامبراطور تراجان فى العام المتمم للمائة بعد الميلاد ، وذلك أن اليهود ثاروا بالإسكندرية مرة فأرسل إليهم تراجان جيشاً عظيماً تحت قيادة « مرقىوس تربو » ثم جاء بنفسه إلى مدينة مصر وبنى بها حصناً وجعل فيه قلعة منيعة قوية وجعل فيها ماء كثيراً . ولعله يقصد بالماء الكثير ما حفر من الآبار عند الصرح المستدير وفى مواضع أخرى من الحصن .

ثم قال فى مكان آخر من نفس هذا الديوان :

« إن أصل ذلك الحصن كان بناءً أقامه يختصر وذلك حين استيلائه على مصر ونفى اليهود إليها عقب هدم أورشليم وسماه بابلون باسم عاصمة بلاده آشور . فأقام تراجان أسوار الحصن على أساسه وزاد فى بنائه » .

قال بتلر : « وعلى كل حال فلا شك فى أن البناء القائم اليوم ببناء رومانى . ولا نظن أن تراجان جعل ببناءه على نسق بناء كان فى ذلك الموضع من قبل . مع أنه من المحقق أنه كان فى تلك الجهة حصن قديم . فقد جاء أسترابون إلى مصر قبل عهد تراجان بنحو ١٣٠ سنة ، وقد ذكر أنه رأى حصناً قديماً على نهد من الصخر . وقال إن السبب فى تسميته أن جماعة من أسرى بابل كانت مقيمة فيه . وكان هناك طريق مائل للنزول من الحصن إلى شاطئ النيل . وكان حول هذا الطريق آلات لرفع المياه إلى الحصن يشتغل فيها ١٥٠ أسيراً » .

وقال ديودور الصقلى : « إن ملك مصر سيزوستريس جاء بجماعة من أسرى بابل وأنزلهم فى قصر ، فأطلقوا على القصر اسم المدينة التى جاءوا منها » .

ويقول المؤرخ يوسفوس : « إن الحصن لم يبن إلا فى أيام غزوة الفرس فى حكم الملك قبيز » .

وقال ابن بطريق : « إن آخوس وهو أرتخشيارش أو خوس هو الذى بنى الحصن »

وأقول : يتبين مما ذكر أنه كان على مقربة من موضع حصن بابلون المعروف الآن باسم قصر الشمع بمصر القديمة حصن قديم كانوا يطلقون عليه أيضاً اسم بابلون مدة قرون طويلة قبل أيام تراجان - وكان ذلك الحصن القديم على نهد صخرى كما قال أسترابون . ولا يزال ذلك النهد الصخرى إلى اليوم ماثلاً ويرى داخلها فى مصر (القديمة) فى المكان الذى يعرف باسم اسطبل عنتر .

وقد هجر هذا الحصن منذ القدم بسبب صعوبة وصول المياه إليه كما يتبين من قول أسترابون أيضاً ، وأنشئ بدله قصر الشمع وهو أهم ما تركه الرومان من الآثار بالديار المصرية بعد أن حكموها أكثر من ٦٠٠ سنة !
ويعرف الحصن الآن باسم قصر الشمع وكان اسمه باللغة القبطية في وقت الفتح العربي بابلون - آن - كيمي ، ومعناها بابلون مصر .

وليس من السهل أن نعرف أصل تسميته بقصر الشمع باللغة العربية . فقد تكون لفظ « الشمع » تحريف للكلمة المصرية « كيمي » ومعناها مصر كما قلنا ، فصارت جيمي ثم شمع ويكون اسم قصر الشمع تحريفاً لاسم قصر مصر أو حصن مدينة مصر .

ولكن قد نصت الأخبار على أنه كان في حصن بابلون القديم هيكل للنار ، وأنه قد بنى هيكل آخر مثله في صرح من الصروح بالحصن الروماني وذلك في مدة حكم الفرس للبلاد في القرن السابع .

ونجد في كتاب « ياقوت » ذكر « قبة الدخان » ولعل منشأ ذلك أن الصروح العالية كانت تتخذ في وقت الحروب مراقب تبعث منها الإشارات . فلعله قد جعل على أحد الصرحين أو عليهما معاً منائر توقد فيها النيران للإشارة فنشأ عن ذلك اسم قصر الشمع .

وهنا يجدر بنا أن نقول : إن فكرة الصروح منقولة عن قدماء المصريين . ففي صدر كل معبد مصري قديم كان يوجد برج أو صرحان شاهقان كانا يستعملان في وقت الحرب للاستكشاف ومعرفة حركات جنود العدو وإرسال الإشارات المناسبة إلى الجنود المدافعين . وفي وقت السلم كانت تستعمل لمراقبة حركات الكواكب في السماء وللأرصاء الفلكية .

ومن الأسباب الأخرى التي ذكرت عن أصل تسمية الحصن باسم قصر الشمع باللغة العربية ما قاله ابن اسحاق : « لأنه كان لا يخلو من الشمع » . ونقل عنه ذلك الواقدي في فتوح الشام . وذكر المقرئ في ذلك في خطه عن الواقدي . قال : كان هذا القصر يوقد عليه الشمع في رأس كل شهر فيعلم الناس أن الشمس انتقلت من البرج الذي حلت فيه إلى برج آخر غيره .

وذكر المقرئ في مكان آخر : « أنه عرف بقصر الشمع لأن الفرس بنوه وجعلوا فيه بيت النار وكان له باب يقال له باب الشمع » .

قال بترل : « ومهما يكن من أمر العرب وتحريفهم لاسم الحصن فقد ظل كتاب أوربا في القرون الوسطى يطلقون على ذلك الموضع اسم بابلون وليس اسم مصر وحفظوا تلك التسمية إلى ما بعد بناء القاهرة المعز فصاروا يطلقون على مدينة مصر اسم « بابلون » ويسمون حاكمها « سلطان بابلون » .

أهم معالم الحصن القديمة :

استعمل في بناء هذا الحصن أحجار أخذت من مباني مدينة منف ومدينة عين شمس الفرعونيتين ، ولم يزل على بعضها نقوش هيروغليفية ، كما استعمل في بنائه أيضاً طوب كبير الحجم يبلغ مقاس الطوبة منه ٣٠ × ٢٠ × ١٥ سنتمرا ، مداميك منتظمة خمسة من الحجر وثلاثة من الطوب .

ولم يبق من هذا الحصن العظيم الآن إلا الباب القبلي يكتنفه برجان كبيران يبلغ إرتفاعهما نحو ٢٠ متراً ويبلغ سمك جدرانتهما مترين ، وبوسط أرضية المر المؤدى لداخل الحصن قناة لتصرف مياه الأمطار في النيل ، وهذه الأرضية مرصوفة بالحجر ، وهي على عمق عشرة أمتار تقريباً تحت منسوب سطح الشارع الخارجى .
وقد عنيت لجنة حفظ الآثار العربية بإزالة ما كان يطمس هذه المباني من الأتربة والرمال ورمتها على يد المرحوم هرتس باشا والمسيو باتريكولو .

ولم يزل باقياً أيضاً بعض أجزاء أسوار هذا الحصن في الجهات الشرقية والقبلية والغربية ، و برجان مستديران أحدهما أمام باب المتحف القبلى والآخر مقابل له في حيازه الروم الأرثوذكس من قديم الزمان وعلى قمته كنيسة لم تعرف باسم كنيسة مار جرجس تجدد بناؤها بعد أن احترقت ١٩٠٠ .

ولا يعلم إتساع الحصن بالضبط اليوم ، غير أنه يمكن تقديره قياساً على ما ذكره القدماء بنحو نصف الكيلومتر المربع ، وبداخله الآن عدا كنيسة مار جرجس المشار إليها ، المتحف القبلى وست كنائس قبطية وهي :

١ — كنيسة المعلقة التي نراها اليوم بعد أن أن مضى عليها من العمر ثلاثة عشر قرناً وهي معلقة على قمة البرجين الجنوبيين من أبراج الحصن القديمة بطريقة تختلف عن الطريقة التي أقام بها الروم كنيسة مار جرجس فوق قمة البرج الثالث الغربى ، ولكن الظاهر أن نفس الفكرة التي حدث بالقبط إلى إنشاء كنيسة المعلقة فوق الأبراج القبلية هي نفس الفكرة التي حدث بالروم إلى أنشأ كنيستهم فوق البرج الغربى . وربما كانت هذه الفكرة هي جعل بيوت العبادة أعلا منسوباً من بيوت الناس المحيطة بها . أو إمكان الإحتواء بها على اللزوم .

٢ — كنيسة أبو سرجة وبها مغارة ينزل إليها الإنسان بدرجات كثيرة ، ومنسوب أرضها منخفض عن منسوب أرض الشارع الخارجى بحوالى عشرة أمتار ، ويقال أن العائلة المقدسة ، عائلة السيد المسيح ، لجأت إلى هذه المغارة أثناء هروبها إلى مصر . ومن المدعش أن الانسان يتمتع داخل هذه المغارة بنسيم عليل مهما كان الجو حاراً أو بارداً فى الخارج !!

٣ — كنيسة الست برباره

٤ — كنيسة مار جرجس للقبط وهي غير كنيسة مار جرجس الرومانى المقامة فوق البرج الغربى للحصن وهي مملوكة للروم كما قلنا سابقاً .

٥ - كنيسة قصرية الريحان

٦ - كنيسة دير البنات .

وستنكلم عن هذه الكنائس الستة وعن المتحف القبطى بتوسع فى نهاية هذا الفصل .
وهناك أيضاً بيعة لليهود كانت فى الأصل كنيسة من كنائس الأقباط باسم كنيسة الملاك غبريال ، بيعت لليهود الذين يعتقدون أنها بنيت على مكان أقام به أرميا النبى ، والذي باعها لهم ميخائيل البطريك السادس والخمسون بين ما باعه من العقار ليتمكن من دفع عشرين ألف دينار فرضها على الأقباط أحمد بن طولون فى أواخر القرن التاسع الميلادى ، وقد ورد ذكر ذلك فى كتاب الخطط والآثار للمقرزى . وقد هدم اليهود جزءاً من الكنيسة الأصلية وأقاموا محلها بيعتهم المذكورة ، كما هدموا جانباً عظيماً من سور الحصن .

وكان بالحصن خلاف الكنائس المذكورة مقياس للنيل بقيت آثاره إلى أيام المقرزى . قال : « وكان هذا المقياس يقع بصدر زقاق غير نافذ يسمى زقاق القارية . ثم عمر الشيخ شمس الدين أبو عبد الله ابن النعمان مسجد النصر وقيل مسجد الفتح الذى عرف فيما بعد بزواية الشيخ شمس الدين بن نعمان الفاسى بالقرب من الكنيسة المعلقة واشتهر بأنه موضع مبارك . وقد بقيت هذه الزاوية بيد أولاد النعمان إلى ما بعد سنة ٧٩٣ هـ . وكان أسفل المسجد سقيفة تعرف به تجاور كنيسة الروم الملكيين »

وذكر ابن المتوج : إن عمود المقياس موجود فى زقاق مسجد ابن النعمان .

وأضاف المقرزى : وهذا العمود باق إلى يومنا هذا (يعنى سنة ٨٢٠ هـ) .

وقد عين « أبو المحاسن » فى « النجوم الزاهرة » موقعه بأنه بالقصر خلف الباب يمينة من يدخل منه فى داخل الزقاق . وإن أثره كان لا يزال قائماً فى زمنه وقد بنى عليه وحوله .

ولما ذكر المقرزى دير البنات بقصر الشمع قال : وهو على اسم بوجرج وكان به مقياس النيل قبل الإسلام ولا يزال به آثار ذلك .

وأقول : أنه يوجد لغاية الآن بمدافن الروم الأرثوذكس بدير مارجرجس بمصر القديمة كتل كبيرة من الحجر على عمق أربعة أمتار من أرض الدير ، يرجح أن تكون من بقايا بئر مقياس النيل القديم !

الحصن منذ عهد الحملة الفرنسية :

ولما زار « أرتور رونييه » قصر الشمع عقب قدومه إلى مصر سنة ١٨٦٤ لم يكن باقياً منه غير مدخله الرئيسى ويتكون من الباب الكبير تكنتفه من الجانبين بدنتان بارزتان .

وقد ذكر هذا الرحالة أن إحدى لوحات كتاب « وصف مصر » لعلماء الحملة الفرنسية مرسوم فيها الباب الكبير وثلاثة أبراج . وقد تهدم منها البرج الغربى وأصبح باب القصر مطموراً فى الأرض أكثر مما كان عليه

وقت رسمه بأن علا التراب على واجهته إلى نحو النصف من ارتفاعها واختفى عقده . ولم يكن في الإمكان رؤية حجارته إلا بعد إزالة التراب عنه ، لأن هيكله لم يكن ظاهراً منه غير جبهته أو الجزء العلوى من الوجهة . وكانت تكاد تملأ الفراغ الواقع بين البرجين . وقد سقط منها الأفريز واتخذ كقاعدة للجزء العلوى . وصار في متناول اليد ولم يبق منه غير كابولين بطرفيه . وقد استند عليهما الجزء العلوى من الجهتين .

وعلى الوجه الأسفل من الكابولين صورة النسرة الرومانى بالنقش البارز بوضع يدل على أنه من عصر الانحطاط البيزنطى وقد نقله رسامو الحملة الفرنسية ولكنهم أتقنوا رسمه وجعلوه على الأسلوب البيزنطى المتواتر رغم ما فى رسم استداراته من التراخى والتهاون فى تمثيل الهيئة الأصلية . وهما من علامات انحطاط الفن وخورة وتوقع ظهور أسلوب جديد .

قال بتلر : « كان يتخلل كل من الجانبين الجنوبي والشرقى من أسوار الحصن أربعة أبراج بارزة بينها مسافات غير متساوية . وكانت ثلاثة من هذه الأبراج الأربعة التى إلى الجنوب لا تزال ظاهرة إلى عهد قريب . أما الآن فإن برجاً منها تهدم واندثر ولم يبق إلا اثنان .

أما السور فكان بناؤه حقيراً وقد جدده المسيحيون الذين كانوا يعيشون فى هذا المكان بعيداً عن المجتمع القاهرى محتفظين بعوائدهم وعبادتهم .

أبراج الحصن وأبوابه :

يبلغ قطر كل من البرجين المستديرين بالحصن الرومانى الواقعين فى اتجاه جزيرة الروضة حوالى ثلاثين متراً . وبداخل كل منهما دائرة أخرى من البناء . وما بين الدائرتين الخارجية والداخلية قواطع ضخمة تقسمه إلى ثمانية أقسام . وكان بين هذين البرجين سور مرتفع وكان به باب تهدم ولم يبق له أثر .

قال المقرئى : « وكان هذا الحصن مطلاً على النيل وتصل السفن إلى بابه الغربى الذى يعرف بباب الحديد ومنه ركب القوقس السفن فى النيل » .

ويعرف كل من درس معالم هذا الحصن أن الباب الحديد المذكور فى رواية المقرئى ما هو إلا الباب الجنوبى الموجود للآن أسفل الكنيسة المعلقة .

وكان النيل فى وقت فتح العرب لمصر يصل إلى هذا الباب الجنوبى حيث كانت مراسى السفن الرومانية . وكان له درج يوصل إلى الماء إذا هبط النيل .

ولما أزاحت لجنة حفظ الآثار العربية ما تراكم من الأتربة والأنقاض على هذه المواقع التي لعبت دوراً هاماً في تاريخ الفتح الإسلامي ظهر الباب الحديد المذكور وظهر درب المعلقة وهو درب أسفل كنيسة المعلقة يؤدي إلى داخل القصر الروماني .



بقايا الحصن الروماني .
دهليز بداخل باب الحديد تحت الكنيسة المعلقة
يصل إليه الزائر بسلم من حديقة المتحف القبطي .

وكانت للقصر أبواب أخرى منها الباب الشمالي الشرقي المعروف باسم «باب درب الحجر» والباب الشمالي المعروف باسم «باب محط القرب» لأن السقاين كانوا يردون عليه بالقرب يستقون الماء من النيل .

وكانت المسافة بين باب الحديد وباب محط القرب فضاء . وكان الرومان يسمون هذا الفضاء «بروبونيا كولوم» وكان يستخدم المقاومة إذا تمكن العدو من اقتحام الباب الأول .

وكان بدائر الجدران في أعلى الحصن يمر يتجمعون فيه لضرب العدو المقتحم .

وقد أصبح هذا الفضاء مسقوفاً منذ توسيع كنيسة المعلقة . وكانت في الأصل رابطة على جزء من الحصن فقط شرقي الباب الجنوبي .

وكانت بالجهة الشرقية من الحصن في وقت الفتح مزارع وإلى شماله حدائق وكروم وفيما يليها إلى الجبل الشرقي كنائس وأديرة متصلة إلى الموضع الذي به اليوم جامع ابن طولون وقلعة الكباش .

حصن بابيلون اليوم :

قال بتلر : بقي من حصن بابيلون إلى نحو أوائل القرن العشرين ما يدل على ما كانت عليه هيئته وعظمة خطره . وكان الفضل للقبط في حفظ تلك البقية إذ اجتمعت لهم كنائس عدة فيه منذ أول عهد المسيحية لأنهم وجدوا وراء أسواره منعة لهم في أيام الخنة والشدة . وكانت كل أسوار الحصن للقبط إلا ما كان منها للروم للملكانيين وهو موضع كنيسة مار جرجس وإلا ما كان منها لليهود وهو موضع بيعتهم .

والظاهر أن المسلمين لم يحفلوا بالمحافظة على ذلك الأثر مع ما كان له من الخطر في أيام فتحهم ومع كثرة ما كتبته مؤرخوهم عنه .

وقد خرب الحصن تخريباً يرثى له في السنين التي تلت الاحتلال الإنجليزي لمصر . إذ شعر أهله بالاطمئنان والأمن بعد أن استقرت الأمور في مصر وأصبح الأمر في غير حاجة إلى الأسوار المنيعة . فشرع القبط واليونان واليهود وكأنهم يتبارون في هدم أسواره كلما بدا لهم فتح باب في ناحية أو إقامة بناء في جانب منه .

وقد تكون السنوات الثمانية عشرة بين سنة ١٨٨٤ وسنة ١٩٠٢ قد شهدت من تهدم هذا الحصن أكثر مما شهدته القرون الثمانية عشر التي قبلها .

فلما انتهى الأمر إلى ذلك وحدث الضرر الذي كان يخشى حدوثه تدخلت الحكومة وبسطت حمايتها على ما بقي من الحصن .

ولكن ما أقل ما قد بقي منه !!

ومع ذلك تدل البقية الباقية من هذا الحصن الآن على ما كان لساكنيه من المصريين المسيحيين المعروفين باسم القبط من شخصية تتجلى في تمسكهم بلغتهم إبان حكم الدولة البيزنطية في مصر وبعده ، وفي الخواص التي تميز فهم عن الفن البيزنطي فهم بلا نزاع حلقه الاتصال بين مصر الفرعونية ومصر الإسلامية .

وفي المتحف القبطي الذي أنشأته الحكومة المصرية بفضل مساعي العالم الجليل مرقس سميكه باشا بجوار كنيسة المعلقة داخل أسوار حصن بابليون القديم وأفتتحه جلالة الملك فؤاد الأول رحمه الله سنة ١٩٣٠ بدائع رائعة لهذا الفن !!

ويتصل هذا البحث بتاريخ القبط فلا بد هنا من كلمة عن القبط وعن الفن القبطي فنقول :

القبط والفن القبطي :

ليست لفظ « قبط » في الواقع إلا تحريف ظاهر لكلمة « جبت » التي سميت بها مصر في العصر اليوناني . وهذه الكلمة اليونانية نفسها مأخوذة من أحد أسماء جبانة منف باللغة الهيروغليفية بعد تحريفها . وهذا الاسم هو « هت - كا - بتاح » ومعناه أرض قرينة الأله فتاح ، فنطقه الوافدون من الإغريق محرفاً هكذا « أيجبتاه » ثم انتقل هذا الاسم بعد ذلك إلى اللغات الأخرى ونطق هكذا « أيجبت » وأطلق على مصر التي عرف أهلها عند العرب باسم « جيبت » أو « قبط » .

وقد أجمع العلماء على أن القبط هم سلالة قدماء المصريين وأن تسعة أعشار المصريين الحاليين متناسلون من القبط الذين اعتنقوا الدين الإسلامي .

ولذا تعرف الكنيسة المصرية في أوروبا وفي الخارج الآن باسم الكنيسة القبطية .

لقد كان فتح اليونان لمصر سنة ٣٣٢ ق . م . حداً فاصلاً بين عهدين في تاريخ مصر السياسي ، عهد العظمة والاستقلال وعهد العبودية والاستعمار .

كانت مصر قبل العهد اليوناني والعهد الروماني أمة واحدة يحكمها المصريون بحكمة ووطنية وتدبير وإحكام وكرامة وفرن ، أما بعد الاحتلال اليوناني والروماني فقد حكمها الروم بالعنف والصرامة ، ورغم ذلك احتفظت بقوميتها وحافظتها بمذهب ديني مستقل حافظت عليه أشد المحافظة .

وما كانت محافظتها على مذهبها الديني إلا صورة من صور الحرص على بقاء شخصيتها ودوام استقلالها .

فلما اشتد ساعد المقاومة السلبية للمحتلين ، الذين فرضوا على البلاد دينهم ولغتهم ، ظهرت اللغة القبطية وهي لغة قدماء المصريين ، استعويض فيها عن الرموز الهيروغليفية بالحروف اليونانية بعد أن أضيفت إليها سبعة حروف أخذت من الديموتيقية .

وكان ظهور هذه اللغة هو رمز الثورة على الروم وعلى أساليبهم التعسفية في حكم البلاد .

وفي سنة ٢٨٤ م لما اشتد الإمبراطور ديوكسيان في اضطهاد القبط ليردهم عن النصرانية إلى الوثنية ، فقتل منهم من قتل وعذب من عذب بأشد قساوة عرفت في التاريخ ، سمي القبط هذا العهد عهد الشهداء ، واتخذوه بداية لسنتهم القبطية المعروفة باسم سنة الشهداء ، تماماً كما كان يفعل أسلافهم قدماء المصريين في اتخاذ الحوادث المهمة بداية لتواريخهم . ولا تزال النتيجة القبطية معمولاً بها للآن في الكنيسة القبطية وهي تقل ٢٨٤ سنة عن السنة الميلادية التي أرخها الرومان .

فبفضل هذه المقاومة السلبية من شعب أعزل للاحتلال الأجنبي المساح ، بفضل هذه الرغبة عن الامتزاج بالروم ثم الفناء فيهم ، بقيت لمصر حتى اليوم الآثار القبطية التي تراها للآن ماثلة بمدينة مصر القديمة أو بمدينة بابلون القديمة ، والتي تعتبر حلقة الاتصال بين الفن الفرعوني والفن الإسلامي .

ومن المعروف أنه في عهد النصرانية الأولى ، أيام حكم الرومان ، كان القبط الذين اعتنقوا المسيحية يرزحون تحت عبء اضطهاد ثقيل ، ولم يكن مسموحاً لهم حتى بإقامة الشعائر الدينية ، فكانوا يجتمعون سرّاً للصلاة بالمغاور والمقابر المهجورة بأنحاء البلاد كافة كما يتضح ذلك من كتابات قبطية لا تزال موجودة على جدران تلك الأماكن .

ولما اعتنق الإمبراطور « تيودوسيوس » الدين المسيحي سنة ٣٨٩ م ، أصبحت المسيحية هي الدين الرسمي للإمبراطورية الرومانية . ولما كانت مصر في هذا العهد جزءاً من هذه الإمبراطورية ، وكانت من أول الدول التي انتشرت فيها المسيحية سرّاً بسرعة مذهشة ، فإنها قابلت مرسوم تيودوسيوس بترحاب وحماس . وعلى أثر ذلك قام القبط بتحويل المعابد الوثنية القديمة إلى كنائس ففكشوا الصلبان على أبوابها وأعمدتها ، وحطموا تماثيل الآلهة وغطوا

ما كان منقوشاً على جدرانها من صور الملوك والآلهة والكتابات الهيروغليفية بطبقة من الجبس رسموا عليها صور السيد المسيح والرسول والقديسين وبنوا عليها مذابح لإقامة القداس . ولا تزال آثار ذلك ظاهرة إلى يومنا هذا بمعابد الوجه القبلي خصوصاً بأسوان والأقصر والكرنك ودندره .

ولكن لما كان الشعب المصرى لا يميز كثيراً بين الوثنية والدين الجديد ، وكان يسجد أمام آلهة أجداده القديمة كما كان يسجد أمام المسيح على حد تعبير قياصرة الرومان ، رأى زعماء المسيحية إبعاده عن المعابد الوثنية ، فقرروا منذ القرن الرابع الميلادى تشييد كنائس وأديرة جديدة بقى منها الآن ، دير سمعان بأسوان ، وكنيسة دندرة بجوار معبد دندرة بالقرب من قنا ، وآثار دير أنبا أرميا بسقارة الذى أنشئ فى آخر القرن الخامس وخرّب حوالى سنة ٩٦٠ م ولحسن الحظ غطت الرمال خرابه إلى أن استكشفه كويبل سنة ١٩٠٦ ونقل ما به من آثار إلى المتحف المصرى ، وآثار كنيسة أنبا مينا بمريوط بجوار الإسكندرية التى استكشفتها كاوفان سنة ١٩٠٧ ، وهى أقدم كنيسة عرف تاريخ إنشائها بالضبط ، فقد بدأ عمارتها الإمبراطور أركاديوس سنة ٣٩٥ م وتم بناءها الأنبا تيموثاوس البطريك السادس والعشرون ، ودفن بها الأنبا مينا الذى كان يؤم ضريحة الحجاج المسيحيين من جميع أقطار العالم ويعودون من هناك ومعهم أوانى خزفية عليها صورة هذا القديس وبها مياه مقدسة كانوا يعتقدون أنها تشفى الأمراض .

وقد نقلت كثير من أعمدة هذه الكنيسة وأحجارها المنقوشة وصور القديسين المرسومة بالألوان التى وجدت فى حفائرها إلى المتحف اليونانى الرومانى التابع لبلدية الإسكندرية ، وإلى المتحف المصرى بالقاهرة ، وإلى بعض متاحف أوروبا وأمريكا .

ومن هذه الكنائس والأديرة القديمة جداً ما لم يزل معداً لإقامة الشعائر الدينية رغم تصاريه الزمن وتقلباته مثل كنيسة الديرين الأبيض والأحمر بجوار سوهاج ، وكنيسة العذراء بدير الطير بمركز سمالوط ، وديرى أنطونيوس وبولا بصحراء العرب بالقرب من البحر الأحمر ، وأديرة وادى النطرون التى سبق تكلمنا عنها بإسهاب فى الجزء الأول من هذا الكتاب ص ٦٦ وما يليها ، وكنائس مدينة مصر القديمة موضوع هذا البحث

طراز كنائس مدينة مصر :

شيدت هذه الكنائس على طراز يجمع بين البازيليكى والبيزنطى .

أما الطراز البازيليكى فأخوذ عن المباني الرومانية بمدينة الإسكندرية ومدينة بابليون أعنى عن المباني الرومانية التى أقيمت بمدينة مصر نفسها .

وقد وجد مهندسو هذه الكنائس الجديدة من القبط نماذج جاهزة لمعابدهم الحديثة في الكنائس التي شيدها مهندسو الإمبراطور قسطنطين بمصر وفلسطين وسوريا .



مدينة مصر — منظر طواحين حجرية كانت تطحن فيها الغلال وبجوارها فرن . وتدل هذه المباني على أن إنشاء العقود في فتحات الأبواب والشبابيك كان منتشراً في مدينة مصر منذ القدم .

ومن مميزات هذه الكنائس أنها كانت تبنى على شكل مستطيل وتنقسم — من اليمين إلى اليسار — إلى ثلاثة أقسام كما هو الحال في كنائس أبوسرجه والسيدة بربارة وأبنا شنودة بمصر القديمة ، أو إلى أكثر من ثلاثة أقسام ، كما يشاهد ذلك في كنيسة المعلقة أو في كنيسة السيدة العذراء بحارة زويلة بقسم باب الشعرية .

ويفصل هذه الأقسام عن بعضها ، صفوف من الأعمدة يرتكز عليها سقف صحن الكنيسة وهو غالباً على شكل جملون . وهذا هو الطراز البازيليكي .

أما الطراز البيزنطي — وأهم أنموذج باق له للآن هو كنيسة أجياصوفيا بالقسطنطينية — فيمتاز بأن كنفائه كانت تبنى على شكل صليب وتغطيها القباب المبنية من الطوب .

وقد نقلت بيزنطة استعمال القباب على الأرجح عن المصريين وهم أول من استعمالوها سقوفاً في مبانيهم لقلعة الأخشاب في بلادهم .

فلما قام القبط بتشييد كنائسهم بمصر القديمة بنوها على الطراز البازيليكي المذكور سابقاً . مع استعمال القباب التي كانت شائعة في بلادهم وهي من أهم مميزات الطراز البيزنطي . فطران هذه الكنائس إذن يجمع بين البازيليكي والبيزنطي .

وقد كسيت جدران هذه الكنائس وأعمدها وقبابها من الداخل بطبقة من المصيص النقي وزينت بصور مشرقة الألوان للقديسين والشهداء تماماً كما كان يفعل قدماء المصريين في تزيين معابدهم وبرابيهم .

كنيسة المعلقة

عرفت هذه الكنيسة بالمعلقة لأنها شيدت ، فوق أبراج حصن بابيلون ، الذي تكلمنا عنه سابقاً ، على ارتفاع ١٣ متراً فوق سطح الأرض الأصلية لهذا الحصن . ولم يزل جزء منها وبه المعمودية بأعلى أحد البرجين القائمين على جانبي الباب القبلي المعروف عند العرب باسم باب الحديد .

بنيت هذه الكنيسة على الأرجح في القرن الرابع كما يتضح ذلك من لوحة من أخشاب العمارة الأولى المحفوظة

بالمتحف القبطي وهي تمثل دخول السيد المسيح إلى أورشليم، في أحد الشعانين، وقد ركب أتاناً وفرشت أمامه الطريق بعصون النخيل واستقبلته الجماهير على أبواب المدينة بالتهليل والفرح . وقد كتب على هذه اللوحة بالحروف اليونانية تاريخ سنة ٣٤٩ م . ومن هذا يتضح أن هذه الكنيسة أقدم كنيسة بنيت في حصن بابليون .



كنيسة المعلقة وكنيسة مار جرجس .
الواجهة المظلة على شارع مار جرجس بمصر القديمة .

وقد كانت في الأصل متسعة جداً ولكنها صغرت من كثرة ما أدخل عليها من تعديلات كان آخرها على يد المعلم عبيد أبي خزام

سنة ١٤٩١ قبطية (١٧٧٥ م) . وبعد ذلك على يد المرحوم نخله بك الباراتي سنة ١٨٩٠ تقريباً . وهو الذي يرجع إليه الفضل في المحافظة على كثير مما كان بها من الأحجبة النفيسة والإيقونات والمنبر الرخامي .

ويبلغ طول هذه الكنيسة اليوم ٢٣ و ٥ متراً وعرضها ١٨ و ٥ متراً وارتفاعها ٩ و ٥ متراً . وينقسم الصحن إلى أربعة أقسام يفصلها عن بعضها صفوف ثلاثة من الأعمدة الرخامية يبدو من طراز تيجانها أنها ترجع إلى القرن الثالث . والغالب أنها منقولة من المعابد الرومانية الوثنية القديمة .

ويغطي صحن الكنيسة والهياكل جملون من الخشب . وهي الوحيدة في الكنائس القبطية القديمة بحصن بابليون التي لم تغط هياكلها بالقباب .

ولهذه الكنيسة شهرة عظيمة منذ القدم فقد ظلت مركزاً لأبروشية بابليون المعروفة أيضاً باسم أبروشية مصر منذ عهد البطريرك بنيامين سنة ٦١٧ م إلى عهد البطريرك يوساب سنة ٨٢٣ م . ثم أصبحت مقراً للكرسي البطريركي منذ قرر أنبا خريستودولوس البطريرك السادس والستون نقل مقر البطريركية القبطية من الاسكندرية إلى مدينة مصر سنة ١٠٣٩ م . وهو أول من أقام بها صلاة القديس ، بعد وصوله إلى مصر مخالفاً في ذلك العادة التي جرى عليها البطاركة السابقون في إقامة القديس بكنيسة أبو سرجه بعد الإسكندرية ودير أبي مقار بوادي النطرون . وقد لاقى معارضة شديدة من كهنة كنيسة أبو سرجه لما أعلن عن هذا العزم ولكنه تغلب عليها .

ومنذ ذلك العهد وكنيسة المعلقة قبلة طالبى العلم من رجال اللاهوت وعلماء الدين . وقد اشتهر رجالها أيضاً بالتعمق فى علم الفلك .

وفى القرن العاشر الميلادى كان بها مكتبة تحوى من كتب الفلك ما كان مرجعاً لرجال البحث فى القرون الوسطى لتقرير مواعيد أعياد النصرارى فى العالم كله .

وظلت كنيسة المعلقة مقراً للكرسى البطريركى مدة طويلة إلى أن نقل منها إلى كنيسة أبى السيفين فى القرن الرابع عشر للميلاد .

وتحوى هذه الكنيسة للآن بدائع رائعة من بدائع الفن القبطى فيها تسعون أيقونة يرجع أقدمها إلى القرن الخامس عشر الميلادى وأغلبها مؤرخ فى سنة ١٤٩٣ قبطية (١٧٧٧ م) والباقى صور من أيام نخله بك البارأتى حوالى سنة ١٨٩٠ وهى موزعة على جدران الكنيسة فيجد الزائر على الحائط الغربى صفين منها ، ويرى على الحائط القبلى أيقونات أخرى من صناعة يونانية .

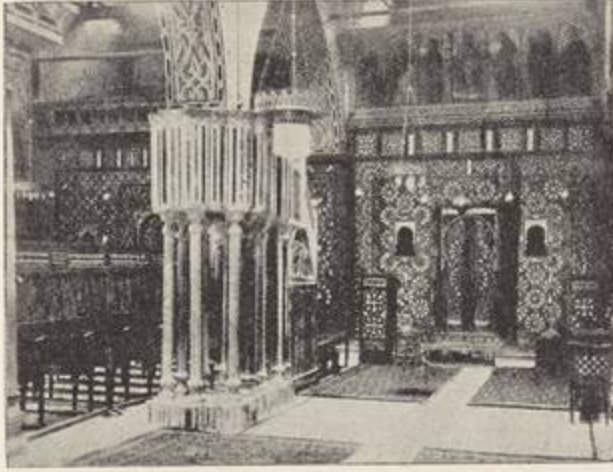
ثم يمر الزائر من باب من خشب الصنوبر مزخرف بنقوش بارزة ومطعم بصفايح شفافة من العاج ، يرجع تاريخه إلى القرن الحادى عشر الميلادى ، ونقش بأسفله بالخط الكوفى : « العز الدائم والسعادة الدائمة لصاحبها » ، فيجد إلى يمينه حجاب هيكل مار مرقص وهو مطعم بالعاج والأبنوس المنقوش نقوشاً بارزة جميلة ، يرجع تاريخه إلى القرن الثالث عشر . وقد نقل من أعلى البرج إلى مكانه الحالى محافظة عليه وقد فقدت بعض حشوات الباب . وعلى يسار الحجاب نافذة تطل على مدخل الحصن الرومانى أى باب الحديد وأمامها « المعمودية » وهى من حجر الجرانيت عليها نقوش على شكل خطوط متكسرة رمزاً للماء فى اللغة الهيروغليفية . ولم تزل بجدران هذه المعمودية الفسيفساء الجميلة التى كانت فى الماضى تزين كل جدران الكنيسة ، ولكنها أزيلت للأسف فى العمارات الأخيرة .

وقد كتب على حجاب هذه المعمودية بالقبطية والعربية اسم المعلم عبيد أبو خزام وتاريخ سنة ١٤٩٣ للشهداء (١٧٧٧ م) مع دعوات أخرى .

ويجد الزائر بعد ذلك هيكلًا باسم القديس نكلا هيانوت الحبشى وفيه صور لبعض القديسين يرجع تاريخها إلى القرن الخامس الميلادى مع بعض كتابات قبطية من الإنجيل . أما حجاب هذا الهيكل فيرجع تاريخه إلى القرن الثالث عشر وهو مطعم بالعاج المنقوش وفوقه وتحتة كتابات بارزة من آيات الإنجيل .

أما الهيكل الذى فى صدر الكنيسة فيها مدرجات نصف دائرية وأمامها المنبر الرخامى الدقيق الصنع المرتكز على خمسة عشر عموداً كل عمودين منها من طراز يختلف عن الطراز السابق وأحجبتها محشوة بالنقوش ومطعمة بالعاج .

ولم يبق من الصور التي كانت في الزمن الماضي تزين جدران هذه الكنيسة وأعمدتها ، والتي محيت في أزمنة



كنيسة المعلقة من الداخل . وترى أحجبة الهياكل في صدر الكنيسة وهي مطعمة بالعاج والأبنوس بدقة ورشاقة . كما ترى المنبر الرخامي الدقيق الصنع المرتكز على خمسة عشر عموداً كل عمودين منها من طراز يختلف عن الطراز السابق .

الاضطهادات ، إلا التي بالجدار الشرقي لهيكل تكلا هيانوت بجانب المعمودية وصورة شماس على أحد الأعمدة التي تفصل الخورس القبلي عن صحن الكنيسة .

وقد ذكر الأب فانسليبي الذي أوفده لويس الرابع عشر ملك فرنسا لدرس حالة كنائس وأديرة القطر المصري حوالي سنة ١٦٧١ م ، أنه رأى على أحد جدران كنيسة المعلقة كتابة بخط يد عمرو بن العاص يوصي بها المسلمين بالأب يتعرضوا لهذه الكنيسة بأذى .

ومما يذكر بمناسبة هذه الكنيسة ، أن الخليفة المعز لدين الله الفاطمي ، استحضر

الأنبا إبرآم البطريك الثاني والستين سنة ٩٦٩ م وطلب منه نقل جبل المقطم عملاً بما جاء بالإنجيل : « لو كان لكم إيمان مثل حبة خردل لكنتم تقولون لهذا الجبل انتقل من هنا إلى هناك فينتقل » (متى ١٧ : ٢٠) .

فوقع البطريك في حيرة ما بعدها حيرة ولكنه رجع إلى ربه وقضى ثلاثة أيام في الصلاة والصوم ، ويؤثر أن السيدة العذراء ظهرت له في رؤيا وطمأنته . ويذكر التاريخ أنه في اليوم المحدد حصل فعلاً زلزال شديد تشقق منه المقطم ، فأكرم الخليفة ذلك البطريك ، وسمح له بترميم هذه الكنيسة وإعادة بناء كنيسة أبي السيفين أيضاً .

وتعتبر كنيسة المعلقة أهم الكنائس القبطية فناً وجمالاً وصناعة . ففي أبوابها المحشوة المطعمة بالعاج والأبنوس بدقة ورشاقة وهندسة ونظام ، وفي هياكلها المصنوعة من خشب الصنوبر المخروط والحشو ، وفي صورها المشرقة وفي منبرها البيزنطي الرشيق بدائع تستحق عناية الفنان .

رموز كنائس مدينة مصر :

وهناك رموز كثيرة تستحق الوقوف عندها .

فالحمامة في الرسوم الكنائسية طائر يرمز به إلى الطهارة والوداعة وقد أراد الفنان بوضعه في صور كثيرة من صور هذه الكنائس أن يشير إلى هذا المعنى .

أما الكرمة والكرام فتشير إلى السيد المسيح وإلى الكنيسة المسيحية التي أسسها ويرعاها .
أما غصن الزيتون فرمز السلام الذي أراد السيد المسيح أن تنتشر مبادئه في هذا العالم بتعاليم الإنجيل .
أما الزعف وغصون النخيل فرمز النصر في مواقف كثيرة من مواقف المسيحية .
وأما الصليب ، وهو شعار المسيحية الأول ، فيرمز إلى مفتاح الحياة ، وهو مشتق من الرمز المصرى القديم « أونخ » الذي يعرف أيضاً باسم مفتاح النيل .

أما بيض النعام الذي يعلق في الكنائس والجوامع أيضاً فرمز الثبات في العقيدة لما يؤثر عن هذا الحيوان من أنه يظل ثابتاً أمام بيضة في الصحراء ينظر إليه باستمرار حتى يفقس فإذا تحول نظره عنه فسد البيض .
أما الأعمدة في الكنائس وكان عددها في الأصل اثني عشر عموداً فيرمز بها إلى تلاميذ السيد المسيح الاثني عشر الذين قامت على أكتافهم الكنائس المسيحية وانتشرت في العالم .
أما الزيوت والطيب فيرمز بها إلى الحالة النفسية التي يجب أن تكون عليها نفس المؤمن .

أما أحجبة الهيكل في الكنائس القبطية فترجع فكرتها إلى ما كان متبعاً في معابد قدماء المصريين من فصل الهيكل عن الجماهير ، ثم استعملت بعد ذلك لحماية القبط من القتل حين كان يعتدى عليهم في الطرق العامة من إخوانهم المصريين الذين اعتنقوا الإسلام ، فجرد التجاء القبطى إلى الهيكل كان يكفي لوقف زميله عن قتله سواء لتأثير قديم في نفس المعتدى أو غير ذلك من الاعتقادات القديمة . ولذا يلاحظ أن أحجبة الهيكل لا توجد في الكنائس الغربية قط وإنما توجد فقط في الكنائس المصرية .

كنيسة أبى سرجه

شيدت هذه الكنيسة في المكان الذي أقامت به العائلة المقدسة ، عائلة السيد المسيح ، لما هربت إلى مصر من وجه هيرودوس ملك اليهود المعين من قبل روما . ولهذا السبب يحج إليها الزائرون من جميع أنحاء العالم المسيحي . ولا يزال هناك مغارة على عمق عشرة أمتار تقريباً تحت منسوب سطح الشارع الخارجى يقال إن العائلة المقدسة أقامت فيها مدة وجودها بمدينة مصر . وقد حولت هذه المغارة الآن إلى كنيسة صغيرة طولها ستة أمتار وعرضها خمسة أمتار وارتفاعها متران ونصف متر تقريباً ، وبها صفان من الأعمدة الرخامية يقسمانها إلى ثلاثة أقسام : في القسم الأيمن مذبح بتجويف في الحائط القبلى عليه صليب بارز وعمودية في الشرق ، وفي القسم الأوسط مذبح بتجويف في الجدار الشرقى ، وفي القسم الأيسر مذبح بتجويف في الجدار البحرى . ويحتفل فيها كل سنة بتذكار دخول السيد المسيح أرض مصر في ٢٤ بشنس الموافق أول يونيو .

وبالمغارة سلم يؤدي إلى الهيكل البحري ، وبهذا الهيكل بئر ، وحجابه من الخشب المطعم بالسن البسيط كتب على بابه بالقبطية والعربية آيات وأدعية . ومما يلفت النظر النسيم العليل الذي ينتشر في جو هذه المغارة صيفاً وشتاء . وفوق هذه المغارة تقوم كنيسة أبي سرجه ، وقد أنشئت في أواخر القرن الرابع باسم القديس سرجيوس الذي استشهد في عهد الإمبراطور مكسيميان سنة ٢٩٦ م . ويبلغ طولها ٢٧ متراً وعرضها ١٧ متراً وارتفاعها ١٥ متراً تقريباً ، وهي على عمق ثلاثة أمتار من منسوب الشارع الخارجى . ولا تقل في الأهمية عن كنيسة المعلقة من الوجهة التاريخية والفنية .

وتقع هياكل هذه الكنيسة في القسم الشرقى وتحت هذا القسم توجد « المغارة » . ويحيط صحن الكنيسة من الجهات الشمالية والجنوبية والغربية ثلاثة صفوف من الأعمدة الرخامية لا يزال ظاهراً على بعضها صور القديسين . وتربط هذه الأعمدة ببعضها من أعلى بعوارض خشبية مكتوب عليها آيات من المزامير بالقبطية والعربية . ويغطي صحن الكنيسة والهيكل الأوسط جملون من الخشب ، أما الهيكل الشمالى فقد شيدت فوقه قبة مرتفعة .

وكان الدور العلوى المحيط بصحن الكنيسة مخصصاً للسيدات ، أما الآن فقد خصص لهن القسم الشمالى لصحن الكنيسة . ويرى الزائر بهذه الكنيسة كثير من الأيقونات الكبيرة الحجم ، وأحجبة الهياكل للطعمة بالعاج البسيط والمنقوش عليها آيات عربية وقبطية من الإنجيل وأدعية كثيرة أخرى . ويرجع تاريخ هذه الأحجبة إلى القرن الثالث عشر . وتقع العمودية إلى غرب صحن الكنيسة . ويقابلها الهيكل الأوسط وداخله مذبح تعلوه قبة من الخشب مرتكزة على أربعة أعمدة مزينة بالصور . وخلف المذبح مدرج نصف دائرى من الرخام كان يجلس عليه القسوس حسب درجاتهم أثناء قراءة الرسائل . وبأعلى المدرج كرسى البطريرك . والجدار المحيط به مزين بالفسيفساء . وبصحن الكنيسة منبر رخامى يرتكز على عشرة أعمدة جدد حديثاً .

كنيسة الست برباره

كانت الست برباره ابنة ديفوروس أحد أغنياء مدينة نيكوميديا بأسيا الصغرى . وقد اعتنقت المسيحية على يد العلامة أوريجانوس المصرى فى أوائل القرن الثالث الميلادى . وكان أبوها وثنياً يعبد الأوثان ، فعابت على أبيها عبادته لها فغضب عليها وقتلها .

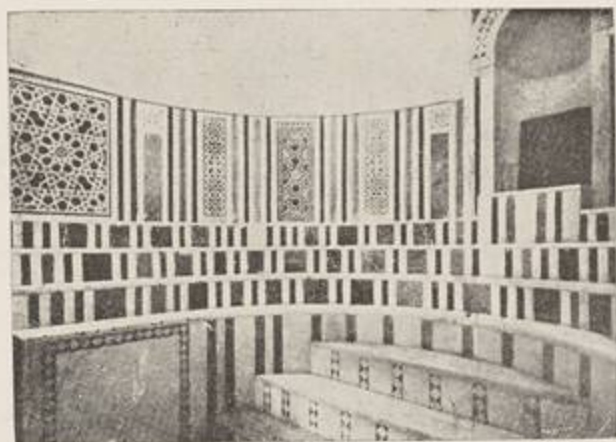
وقد شيدت هذه الكنيسة فى القرن الرابع الميلادى باسم هذه السيدة الشهيدة داخل حصن بابيلون . ويبلغ طولها ٢٦ متراً وعرضها ١٤ و٥ متراً وارتفاعها ١٥ متراً . وهى تعد من أجمل كنائس الأقباط . وقد تهدمت فى القرن العاشر الميلادى وأعاد بناءها هى وكنيسة أبى سرجه المذكورة سابقاً الوزير يوحنا ابن الأبرح أو الأبرح وزير أحد

الخلفاء الفاطميين . و يروى أنه كانت له حظوة عظيمة عند الخليفة . فاتهمه حساده بالخيانة . ولما تبينت للسلطان براءته أجابه إلى طلبه أن يعيد بناء كنيسة أبي سرجه . وبعد أن بناها تبقى من الأدوات ما يكفي لبناء كنيسة أخرى ، فأعاد بناء كنيسة الست بربارة بدون تصريح من السلطان . فشكاه أعداؤه . ولما تحقق السلطان الأمر حكم عليه بهدم إحدى الكنيستين ، فصار الوزير ينتقل من الواحدة إلى الأخرى ليختار إحداها غير مستقر على حال . ولما أعياه التعب سقط ميتاً . ولما بلغ خبر موته إلى مسامع السلطان عدل عن هدم الكنيسة الثانية قائلاً أنا أمرت ببناء الواحدة وقد وهبت الثانية دية له .

وقد عثر العلامة مرقص سميكة باشا على بعض أحجار منقوشة من آثار الكنيسة الأصلية ، كما عثر على باب يعد آية من آيات الفن القبطي في القرن الرابع ، فنقلها جميعها إلى المتحف القبطي كما نقل أيضاً بعض أبواب وأحد أحجبة العارة الثانية .

وقد عنيت لجنة حفظ الآثار العربية بترميم هذه الكنيسة الجليلة وأعدت لها روتقها القديم فعدت من أشهر الكنائس وأجملها .

يحيط بصحنها ثلاثة صفوف من الأعمدة الرخامية من الشمال والجنوب والغرب . أما الجانب الشرق فتقع فيه الهياكل .



كنيسة الست بربارة
مدرج نصف دائري مزين بالفسيفساء خلف المذبح .

ويغطي صحن الكنيسة والهيكل الأوسط جملون . وكان الدور العلوى المحيط بصحن الكنيسة مخصصاً للسيدات . وبهذه الكنيسة كثير من الأيقونات الجميلة والأخشاب المطعمة بالعاج والمنقوش على حشواتها نقوش بارزة وآيات من المزامير بالخط العربي الجميل من القرن الثالث عشر .

وبداخل الهيكل المذبح وخلفه مدرج مزين أعلاه بالفسيفساء كالموجود في كنيسة أبي سرجه . وفي صحن الكنيسة يوجد المنبر

الرخامي وهو يرتكز على عشرة أعمدة ومزين بنقوش بارزة يتخللها الصليب . وبأرضية الصحن لقان مستدير الشكل . وتقع بالجهة الشمالية من هذه الكنيسة ، كنيسة أخرى باسم القديسين أبي قير ويوحنا رمتها لجنة حفظ الآثار العربية أيضاً . وبجوارها أيضاً كنيسة مار جرجس .

كنيسة مارجرمس المعروفة أيضاً باسم قاعة العرسان

كانت هذه الكنيسة من أجل كنائس الحصن الروماني ، شيدها كاتب ثرى اسمه اثناسيوس حوالى سنة ٦٨٤ م ولكنها حرقت لسوء الحظ منذ حوالى تسعين سنة وبنى مكانها كنيسة جديدة ليس فيها شئ يستحق الذكر .

ولم يبق من الكنيسة القديمة إلا قاعة استقبال بخارجها تعرف باسم قاعة العرسان يرجع تاريخها إلى القرن الرابع عشر .

ويبلغ طول هذه القاعة ١٥ متراً وعرضها ١٢ متراً وتنقسم إلى درقاعة وإيوانين . بالإيوان القبلى بعض نوافذ من الخشب عليها نقوش بارزة وتزين جدرانها نقوش بارزة من الجبس وعلى سقفها رسوم ملونة . وقد قامت لجنة حفظ الآثار العربية بإعادة هذه القاعة إلى رونقها القديم .

كنيسة قصرية الريحان

تقع هذه الكنيسة بزقاق بنى حصين . أقام بها البطريرك أنبا خائيل حوالى سنة ٨٦٥ م لما أتى يفاوض الولى فى أمر خراج الكنائس .

وقد تهدمت وأعيد بناؤها فى القرن الثامن عشر . ويبلغ طول هذه الكنيسة ١٦ متراً وعرضها ١٤ متراً وارتفاعها عشرة أمتار . ويغطى سحنها وهياكلها قباب من الطوب مرتكزة على أعمدة رخامية . وبها كثير من الأيقونات والأخشاب المطعمة بالعاج البسيط وعليها نقوش وكتابات بارزة .

دير مارجرمس للراهبات :

يقع دير مار جرجس للراهبات بجوار كنيسة قصرية الريحان وإلى يمينها . وبهذا الدير أربعون راهبة . وبه مقصورة شاهقة البناء يرجع تاريخها إلى القرن العاشر . طولها ٢٣ متراً وعرضها ٩ أمتار تقريباً . زال سقفها وقد استبدلته لجنة حفظ الآثار العربية بسقف جديد . ولحسن الحظ توجد للآن كثير من نجارتها الأصلية أهمها باب ارتفاعه سبعة أمتار وبجانبه بابان صغيران . جميعها مزينة بنقوش بارزة آية فى الاتقان تمثل طيوراً وحيوانات .

وبجوار هذا الدير باب الحصن الروماني الغربى وهو مصفح بحديد وله متراس على شكل ضبة كبيرة ويبلغ هنا سمك جدار الحصن مترين تقريباً .

وتقع جميع الكنائس المذكورة سابقاً داخل أسوار هذا الحصن .

كنائس مدينة مصر الواقعة خارج أسوار الحصن الروماني .

دير أبي السيفين :

فيما عدا كنائس حصن بابلون لم يبق من الكنائس القديمة التي ذكرها أبو صالح الأرمني والمقريري بمدينة مصر ، إلا أربع كنائس ، ثلاث منها بدير أبي السيفين وواحدة بدير مار مينا . ويقع دير أبي السيفين بشارع جامع عمرو بقرب مزلقان سكة حديد حلوان . ويحيط به سور عال . وكان له في الزمن الماضي مدخل واحد بالجهة الغربية بابه من خشب الجميز المصفح بالحديد وقد نقل إلى المتحف القبطي وفتح للدير باب آخر بالجهة الجنوبية .

وكان النيل يصل قديماً إلى هذا الموقع . وكان شاطئه يعرف إذ ذاك باسم ساحل الشعير . ولا يزال اسم الطريق الرئيسي بداخل هذا الدير يعرف لليوم باسم « حارة البطريك بدرب البحر » . وفي داخل هذا الدير ثلاث كنائس :

- (١) كنيسة أنبا شنوده (٢) كنيسة أبي السيفين (٣) كنيسة العذراء الدمشيرية .
- وفيه أيضاً دير للراهبات على اسم القديس مرقوريوس جدد بناءه الأنبا كيرلس الخامس .

كنيسة أنبا شنوره :

يدخل الزائر من الباب القبلي للدير فيجد على يمينه كنيسة أنبا شنوده ويرجع عندها إلى القرن الخامس . وقد بنيت على الطراز البازيليكي . ويبلغ طولها ٣٥ متراً وعرضها ١٥ متراً وارتفاعها ١٥ متراً تقريباً . وهي منخفضة مترين عن منسوب سطح الشارع . وتقع هياكلها في الجهة الشرقية كالعادة ويحيط بصحن الكنيسة ثلاثة صفوف من الأعمدة الرخامية في الجهات الأخرى . ويغطي الصحن جملون من الخشب . أما الهيكل الأوسط ففوقه قبة من طوب يرجع عهدها إلى القرن الثاني عشر .

وكان بالدور الأعلى المحيط بصحن الكنيسة عدة كنائس صغيرة اندثرت كلها ونقلت أحجبتها إلى كنيسة حارة السقاين والست دميانه ببولاق بأمر الأنبا كيرلس الخامس .

أما الصور والأخشاب المطعمة بالعاج والمذبح والمدرج الموجودة بهذه الكنيسة فتأمل ما سبق ذكره في كنائس الحصن الروماني .

والأنبا شنوده صاحب هذه الكنيسة راهب ولد بقرب أخميم في أوائل القرن الرابع ووصل إلى مركز رئيس الرهبنة بمصر .

وقد حضر مجمع أفسس الذي عقد سنة ٤٣١ م مع الأنبا كيرلس البطريك الرابع والعشرين لحاكمة نسطور الجديف صاحب المذهب النسطوري المعروف .

وقد عاش الأنبا شنوده ١٢٠ سنة وترك مؤلفات كثيرة عثر عليها بكنيسة الدير الأبيض بسوهاج ، ونقلت إلى دار الكتب الأهلية بباريس .

وقد عنى أميلينو وريثيو من أعضاء المعهد الفرنسى للآثار بمصر بترجمتها ونشرها . وتوجد بمكتبة المتحف القبطى بمصر القديمة نسخة منها الآن .

كنيسة أبى السيفين :

بعد الانتهاء من زيارة كنيسة أنبا شنوده يتجه الزائر إلى كنيسة أبى السيفين .

وأبو السيفين هذا كان ضابطاً فى الجيش الرومانى استشهد حوالى سنة ٣٦٢ م فى عهد الامبراطور يوليانوس الذى جحد الدين المسيحى وارتد إلى عبادة الأوثان بعد أن كان نصرانياً واضطهد المسيحيين .

وترسم صورة هذا القديس بملابسه العسكرية ممتطياً جوادا وقد شهر سيفين فوق رأسه وأخذ يدوس يوليانوس تحت سنابك جواده .

واسم هذا القديس الأصلى مرقوريوس وينتسب إلى عائلة شريفة .

ويبلغ طول هذه الكنيسة ٣١ متراً وعرضها ٢١ متراً وبها أكبر مجموعة صور وايقونات فى كنائس القبط . أنشئت هذه الكنيسة فى القرن السادس الميلادى ، وتعتبر من أهم كنائس مدينة مصر من الوجهتين التاريخية والفنية . وقد هدمت ضمن ما هدم من الكنائس فى القرن الثامن وحولت إلى شونة قصب ثم أعيد بناؤها فى عصر الخليفة المعز لدين الله الفاطمى سنة ٩٧٠ م على يد الأنبا إبرام السريانى البطريك الثانى والستين وصاحب أعجوبة نقل جبل المقطم التى ذكرناها سابقا . فعقب الزلازل التى حصلت فى هذا العهد وشقت جبل المقطم سمح الخليفة لهذا البطريك باعادة بناء الكنائس . فأعيد بناؤها على نفقة الشيخ أبى اليمين قرمان بن مينا الذى كان وزيراً فى عهد الأخشيد وأقره المعز فى الوزارة وأولاه ثقته .

وفى سنة ١١٦٨ م أحرقت هذه الكنيسة فى عهد شاور السعدى وزير العاضد لدين الله ثم رمت سنة ١٨٧٦ م . أما عن جمال صور هذه الكنيسة وعن جمال أخشابها المطعمة بالعاج والأبنوس وعن قيمتها الفنية والتاريخية فحدث ولا حرج .

وبعد الانتهاء من زيارة كنيسة أبى السيفين يميل الزائر إلى شماله فيجد دير أبى السيفين للبنات الذى جدد بناءه الأنبا كيرلس الخامس البطريك الأسبق . وبه مقصورة بديعة . وقد وصفه الدكتور بتلر فى كتابه عن الكنائس وصفاً بديعاً .

ثم يخرج الزائر من الدير ويتجه إلى الشمال الغربى فيجد كنيسة العذراء الدمشيرية .

كنيسة العذراء الدمشيرية :

سميت بالدمشيرية لأن الذي قام بترميمها في القرن الثامن عشر أحد أعيان دمشق إحدى قرى مديرية المنيا .
ويبلغ طول هذه الكنيسة ١٩ متراً وعرضها ١١ متراً وارتفاعها ٩ أمتار ويغطي صحنها جملون من الخشب ،
أما الهيكل فتغطيه قبة من الطوب . وفوق الهيكل القبلي كنيسة مهملة باسم الملاك .

وحجاب هذه الكنيسة من الخشب المطعم بالعاج يرجع تاريخه إلى سنة ١٤٧٧ قبطية (١٧٦١ م) . أما منبرها
نحشي ومثبت بالحائط الشمالي وعلى يساره العمودية .

وبعد زيارة هذه الكنيسة يتجه الانسان شمالاً في شارع أبي السيفين وشارع الديوره حتى يصل إلى ميدان
الطبيحي حيث يجد كنيسة مار مينا بقم الخليج

كنيسة مار مينا :

كان الخط الذي تقع فيه هذه الكنيسة الآن يعرف قديماً باسم الحمراء .
قال أبو صالح : كانت الحمراء تقع بين القسطنطينية والقاهرة .

واختلف المؤرخون في أصل هذه التسمية فذهب الكندي إلى أنه اسم القبائل التي كانت تقيم به وهي بنو نبيه
وبنو الأزرق وبنو ربييل وكانوا من الروم واليهود ودعاهم عمرو بن العاص « بالحمرا » لأنهم من العجم الذين أسلموا .
وذهب غيره من المؤرخين إلى أن هذا الاسم أخذ عن الراية الحمراء التي نصبت بهذه النقطة عند فتوح العرب
ليستظل بها من يريد أن يستأنهم .

وكانت الحمراوات تنقسم إلى ثلاثة أقسام : الحمراء القسوي ، والحمراء الوسطى ، والحمراء الدنيا .

أما أنبا مينا صاحب هذه الكنيسة فكان جندياً في الجيش الروماني ، ولد في نقيوس (زاوية روزين بمركز
منوف) في القرن الثالث الميلادي ، وكان والده أودكس حاكماً لإفريقيا ببلاد المغرب .

ولما خالف مينا أمر الإمبراطور دقلديانوس ورفض أن يترك الدين المسيحي ويعبد الأوثان ، قطع رأسه بعد أن
سامه العذاب ألواناً وهو ثابت على الإيمان ، ودفن بمريوط ، واكتشف أحد رعاة الغنم بالقرب من ضريحه ينبوع
ماء يشفي الأمراض الجلدية المستعصية لم يلبث أن ذاع صيته فكان الناس يؤمونه من كل البلاد للاستشفاء . وكان
من بين من شفى منه ابنة أحد ملوك الرومان ، فأنشأ الإمبراطور اركاديوس في أواخر القرن الرابع على هذا
الضريح كنيسة أنبا مينا التي اشتهرت في العصر المسيحي وكان يؤمها الحجاج من كافة أقطار العالم . ولا تزال
آثارها ماثلة في ضواحي الإسكندرية الغربية بالقرب من المعجمي .

ويعتبر أنبا مينا من أشهر قديسي الكنيسة القبطية ، وقد شيدت كنائس في كثير من بلاد القطر المصري على اسمه أقدمها كنيسة أنبا مينا بمريوط سنة ٣٩٥ م ثم كنيسة مار مينا بقم الخليج في آخر القرن الخامس وهي موضوع هذا البحث . وقد هدمت هذه الكنيسة وتجددت عمارتها عدة مرات .

ذكر أبو صالح الأرمني أن كنيسة مار مينا هدمت في خلافة هشام بن عبد الملك بن مروان وولاية ابن رفاعه سنة ١٠٦ هـ (٧٢٤ م) وتجددت في عهد الأنبا يوحنا البطريك الرابع والسبعين سنة ١١٨٠ م باهتمام أعيان قبط الحمراء .

ثم حرق في وزارة شاور السعدى في الخلافة العاضدية حوالى سنة ٥٦٠ هـ (١١٦٨ م) وجددت بعد ذلك باهتمام الشيخ الأسعد صليب بن الإيغومانوس .

وقد أدخلت على الكنيسة تعديلات كثيرة في أزمنة مختلفة أهمها النزول للأرمن عن الجانب الشمالى منها ليقيموا الشعائر الدينية بلغتهم وحسب طقوسهم . وفصل هذا الجانب عن باقى الكنيسة وظل في حيازة الأرمن إلى أن ردوه بطريق الاستبدال سنة ١٩٢٦ . وقد اتهمزت لجنة حفظ الآثار العربية الفرصة وأعدت الكنيسة إلى رسمها الأصيل .

ومن المعلوم أن الأرمن استوطنوا مصر في القرن الحادى عشر الميلادى في خلافة المستنصر بالله ووزارة بدر الدين الجمالى الأرمنى الجنس . ذكر أبو صالح الأرمنى أن بطريكى القبط والأرمن اجتمعوا بحضور جمع غفير من رجال الدين والأعيان وأعلنا اتفاق الأقباط والأرمن والسريان والأحباش وأهل النوبة في العقيدة الأرثوذكسية وتنازل القبط للأرمن عن جملة كنائس منها واحدة بدير الخندق لعسكر الأرمن الذين أقطعوا خط الحسينية وكنيسة يوحنا بأعلى العذراء بحارة زويلة والجانب الشمالى لكنيسة مار مينا موضوع هذا البحث .

ومن التعديلات التى أدخلت على هذه الكنيسة عمارة المعلم لطف الله لها سنة ١٧١٠ م وعمارة المعلم ابراهيم وأخيه المعلم جرجس الجوهري سنة ١٧٧١ م . وكان المعلم جرجس الجوهري زعيم الأقباط في زمن الحملة الفرنسية وتوجد صورته مع صور معاصريه الشيخ الشرفاوى والشيخ البكرى والشيخ السادات بقصر فرساي بالقرب من باريس . وقد نقلت عنها الصورة الموجودة الآن بمكتبة المتحف القبطى بمصر القديمة .

ويبلغ طول هذه الكنيسة ٢٠ متراً وعرضها ١٥ متراً وارتفاعها ١٣ متراً . وتقع هياكلها في الجهة الشرقية كالعادة وقد استبدلت أعمدتها الرخامية بأكتاف حجرية بمعرفة لجنة حفظ الآثار العربية لقلّة المال اللازم لإعادة حالتها إلى أصلها .

ويغطي صحن الكنيسة جملون من الخشب . وكان القسم الأعلى المحيط بالصحن مخصصاً للسيدات . وبهذه الكنيسة كثير من الصور والأيقونات القبطية واليونانية . أما منبرها الرخامي وأحجبتها المصنوعة من الخشب المطعم بالعاج فتماثل الصناعة القبطية التي سبق ذكرها في الكنائس السابقة .

المتحف القبطي :

يقع هذا المتحف بجوار الكنيسة المعلقة بمصر القديمة . ويدين بوجوده إلى مساعي واهتمام حضرة صاحب السعادة العالم الجليل مرقص سميكة باشا ، الذي بذل واستهان بكل الصعاب حتى وصل إلى تحقيق أغراضه في إقامة هذا الصرح الضخم الذي يضم الآن البقية الباقية من آثار الفن القبطي الذي كاد يندثر لولا همة هذا العالم الشجاع .

بدأ مرقص سميكة باشا في جمع ونقل ما عثر عليه من الآثار القبطية من الكنائس والأديرة بمصر القديمة والقاهرة والإسكندرية وبالوجهين البحري والقبلي سنة ١٩١٠ ، وخصص لعرضها غرفة واحدة بجوار كنيسة المعلقة بموافقة أنبا كيرلس الخامس البطريك الأسبق . وبمساعده أنبا يوانس التاسع عشر البطريك السابق . ثم أخذ المتحف في الاتساع تدريجاً حتى أصبح الآن مكوناً من أكثر من خمسة وعشرين قاعة أنشئت على الطراز القبطي واستعمل في بنائها ما جمعه سعادة سميكة باشا من خرائب البيوت القبطية القديمة سواء كانت أسقفياً منقوشة أو مشربيات أو أعمدة رخامية أو فساق الخ . . .

وقد أنشئ هذا المتحف لسد الفراغ الذي كان ملحوظاً في سلسلة تاريخ الفن المصري . ذلك أن المتحف المصري بقصر النيل يحوى آثار الفن الفرعوني ، والمتحف اليوناني الروماني التابع لبلدية الإسكندرية يحوى آثار الفن اليوناني الروماني ، ودار الآثار العربية تحوى آثار الفن العربي الإسلامي ، أما الفن القبطي وهو حلقة الاتصال بين هذه الفنون وبعضها فلم يكن له معهد يجمع أشتات آثاره رغم أهميتها ، فكان لا بد من إنشاء هذا المتحف لتسهيل دراسة الآثار المصرية في عصورها المختلفة وتبعية تطوراتها مع الزمن .

ولما اكتشف قبر توت عنخ آمون وضاق نطاق المتحف المصري عن أن يتسع لعرض ما وجد بهذا القبر من الآثار النفيسة ، اقترح سميكة باشا على الحكومة نقل ما بهذا المتحف من آثار العصر اليوناني الروماني إلى متحف الإسكندرية ، ومن الآثار القبطية إلى المتحف القبطي ليسهل على الزائرين مشاهدة آثار كل عصر على حدة فوافقت الحكومة على ذلك .

وبذا أمكن جمع أشتات الفن المسيحي في المتحف القبطي وأمكن دراسة هذا الفن وتبعية تطوراته .

تطورات الفن القبطي

يبدأ العصر المسيحي من القرن الرابع الميلادي الذي أصبحت فيه المسيحية دين الحكومة المصرية الرسمي وينتهي في القرن السابع بعد الفتح العربي لمصر سنة ٦٤١ م .

وتبدو في آثار هذا العصر مبلغ تأثير الحضارة القبطية بالفن اليوناني المتمصر الذي نشأ وترعرع بمدينة الإسكندرية . فالمسيحية الأولى التي انتشرت بهذه المدينة وانتقلت منها إلى داخلية البلاد ، تأثرت فنونها بطبيعة الحال بفنون هذه المدينة وبذوقها وتشكلات بتشكيلاتها وترى ذلك واضحاً تمام الوضوح في مباني هذا العصر وفي زخارفه وفي قبابه وفي جملواته وفي صورته وفي تجارته وفي منسوجاته وفي فن الصياغة .

هذا مع العلم بأن الفن اليوناني نفذ إلى مصر حتى قبل فتح الإسكندر المقدوني بزمن طويل ، في أيام الأسر الفرعونية الأخيرة التي استعانت باليونان في بعض مصالح الدولة وكونت منهم وحدات في الجيش المصري . فبسبب وجود هؤلاء اليونان بمصر كان الفن اليوناني معروفاً لهذه البلاد ، ولكنه كان مصبوغاً بصبغة محلية مصرية .

وكانت هناك عمارات ومبانٍ وهياكل ومعابد مشيدة على هذا الطراز المختلط مثل هيكل بيتوسيرس بدروه بقرب ملوى . ثم ازداد هذا الفن نفوذاً على الخصوص مدة حكم البطالسة الذي بدأ قبل الميلاد بثلاثة قرون واستمر بعد أن أصبحت مصر إقليماً تابعاً للإمبراطورية الرومانية . فخلت اللغة اليونانية محل اللغة المصرية في مصالح الحكومة ، واختلطت الألفاظ اليونانية بالألفاظ المصرية ، واستبدلت الرموز الهيروغليفية بحروف يونانية عدا سبعة حروف تمثل أصواتاً غير موجودة في اللغة اليونانية ، وترك المصريون في مبانيهم الطراز الفرعوني الفخم وأعمدة الجرانيت الهائلة والأسقف الحجرية وأخذوا يقيمون مباني أقل نفامة ذات أسقف خشبية وقباب ويستعملون أعمدة رخامية متوسطة الحجم كانوا يجلبونها من الخارج أو أعمدة من الحجر الجيري .

وقد عرف هذا الفن في تاريخ العمارة باسم الفن القبطي .

وظل الفن القبطي هذا حتى القرن السابع الميلادي يوناني الصبغة أدخل عليه تعديل يسير مما ورثه القبط بالتناقل عن أسلافهم قدماء المصريين . فأتخذوا مثلاً الأنح Ⲁ أى علامة الحياة عند قدماء المصريين أول شكل للصليب ، ورسّموا العذراء تحمل الطفل يسوع كما كان قدماء المصريين يرسمون الإلهة إيزيس تحمل طفلها هورس ، ورسّموا مار جرجس ممتطياً جواداً وهو يطعن الشيطان بشكل تنين كما كان قدماء المصريين يرسمون الإله هورس ممتطياً جواداً وهو يدوس ست إله الشر تحت أقدام جواده .

ولما فتح العرب مصر في القرن السابع الميلادي بدأ نفوذ هؤلاء القوم يحل بمصر محل نفوذ الروم ، فخلت اللغة العربية في مصالح الحكومة محل اللغتين اليونانية والقبطية اللتين استمرتتا مستعملتين في المعاملات الخاصة فقط .

وفي القرن الثالث عشر بطل استعمالها في المعاملات الخاصة أيضاً إلا في القرى البعيدة من بلاد الصعيد حيث استمرت مستعملتين إلى القرن الثامن عشر .

يذكر المقرئ أن نساء القبط في الصعيد كنّ في وقته لا يتكلمن سوى القبطية وكنّ يُجِدْنَ معرفة اللغة اليونانية أيضاً .

أما في الوقت الحاضر فقد اقتصر استعمال القبطية واليونانية على صلوات القديس في الكنائس فقط ، وقد بدأوا في بعض الكنائس يتلون جزءاً من هذه الصلوات باللغة العربية ، فإذا استمر الحال على هذا المنوال لا بد للغة القبط من الاندثار ما لم تتداركها يد الأقدار .

وأن نس فلا ننسى أن نذكر هنا ، إنه بفضل هذه اللغة ، تمكن شامبوليون من حل طلاسم اللغة الهيروغليفية ، ونشر للعالم أسرار المدينة الفرعونية التي تفاخر بها مصر العالم المتمدن الآن .

على أن الفنون المصرية أخذت منذ الفتح العربي تتدهور تدهوراً محسوساً حتى العصر الطولوني حيث انتعشت قليلاً . فلما فتح الفاطميون مصر في نهاية القرن العاشر الميلادي هبت بهذه البلاد نهضة غريبة في جميع فروع الفن ، وتلاحظ ذلك جيداً في الزخارف وصور الأشخاص والطيور والزهور والنباتات التي لم تزل محفوظة في الآثار التي نقلت من الكنائس القبطية القديمة إلى المتحف القبطي . فتجد صوراً تمثل رجالاً يصطادون الغزال والخنزير البري والأرانب ، كما تجد على حجاب كنيسة الست بربارة القديم نقوشاً تمثل رجالاً يمتطون الخيول ويصطادون الفهد والغزال ويستعينون في الصيد بالصقور والكلاب ، وتجد أيضاً على الأخشاب المنقولة من كنيسة دير البنات بمار جرجس نقوشاً تمثل أشخاصاً يعزفون على آلات الطرب ويرقصون ويلعبون ألعاباً رياضية إلى غير ذلك .

ومن ابتداء العصر الأيوبي منع استعمال صور الأشخاص والحيوانات والطيور فاستعاض الفنانون عن ذلك بأشكال هندسية لا تدخل تحت حصر ووصلوا بها إلى درجة عظيمة من الاتقان .

ومع ذلك فمن المعروف أن فنون العصر المسيحي بمدينة مصر القديمة فنون ضعيفة متأخرة لا يمكن مقارنتها بفنون مصر الفرعونية ، ولا بفنونها اليونانية والرومانية ، وذلك لما انتاب البلاد من الفقر بسبب مساويء الحكم البيزنطي وانصراف الناس عن الأعمال النافعة إلى المشاحنات الطائفية والمناقشات الدينية العقيمة ، وازدادت الحالة سوءاً في القرنين الأولين من العصر الإسلامي بسبب طمع وسوء تصرف بعض الولاة الذين كان يوفدهم الخلفاء الأمويون والعباسيون لحكم مصر .

ولما نهضت البلاد نهضتها للمحوظة في عهد الطولونيين والفاطميين والأيوبيين والشراكية واستتب الأمن فيها وساد العدل وارتقت الزراعة والتجارة وزادت الثروة ، تقدمت الفنون إلى درجة الكمال كما يشاهد ذلك في المباني والجوامع والمساجد والكنائس والقلاع التي ترجع إلى هذه العهود .

وقد قام سميكة باشا بجمع آثار هذه القرون وما سبقها ، وتبع تطورات الفن القبطى فى خلالها ، ورتبها ترتيباً بديعاً جذاباً فى المتحف القبطى الذى يشمل الأقسام الآتية :

القسم الأول : خاص بالمكتبة التى أنشئت سنة ١٩٢١ بمناسبة زيارة حضرة صاحب الجلالة الملك فؤاد الأول رحمه الله للمتحف القبطى يوم ٢١ ديسمبر سنة ١٩٢٠ وبها مجموعة من المخطوطات القبطية الثمينة المحلاة بالزخارف الجميلة ، وأغلب الكتب التى ظهرت بمختلف اللغات عن تاريخ الأقباط ولغتهم وديانتهم . . . ويقع هذا القسم بالدور الأرضى للمتحف .

القسم الثانى : خاص بأحجار عليها نصوص قبطية عبارة عن شواهد قبور وأحجار كانت مستعملة فى بناء الكنائس بها نقوش بارزة تمثل أشخاصاً وطيوراً وحيوانات وزهوراً ونباتات . ويقع بالدور الأرضى من المتحف .

القسم الثالث : خاص بالمعادن من فضية ونحاسية ويشتمل على أوان وأبواب وصلبان وقناديل وشمعدانات وتقع بالدور العلوى من المتحف .

القسم الرابع : خاص بالأقنعة والمنسوجات القبطية والملابس الكهنوتية المزركشة والستور الحريرية المطرزة بالدور العلوى من المتحف .

القسم الخامس : خاص بالآثار الزجاجية والخزفية وأغلبها من القرن الرابع عشر إلى السادس عشر مما عثر عليه فى أطلال القسطنطينية . بالدور العلوى من المتحف .

القسم السادس : خاص بأشغال النجارة على اختلاف أنواعها وأهم ما بها أبواب خشبية وأحجبة بها نقوش بارزة تمثل صور القديسين والشهداء والطيور والنباتات والزهور وهناك كذلك مجموعة من الخزائن والأبواب والصناديق المطعمة بالعاج بأشكال هندسية بديعة بالدور العلوى من المتحف .

القسم السابع : خاص بالصور والأيقونات ويقع بالدور الأرضى من المتحف . وهناك أيضاً قاعة الأثاث وقاعة الأبواب الملحقتان بقسم الأخشاب وهى بالدور الأرضى .

وبحديقة المتحف سلم يؤدى إلى الباب القبلى للحصن الرومانى والبرجين العظيمين المقامين على جانبيه تحت كنيسة المعلقة .

هذه هى مدينة مصر وفنها فى العصر المسيحى .

أما فى العصر العربى فقد انتقلت الحضارة المصرية إلى العواصم الإسلامية الجديدة التى سنتكلم عنها تباعاً فيما يلى .

لفضل السائرين

مدينة الفسطاط

جاء عمرو بن العاص القائد العربي إلى مصر في فرسان أربعة آلاف بايعوا أنفسهم على نزعها من يد الروم . وكان أكثر من مع عمرو من الجند من قبيلة « عك » وإن كان الكندي يقول إن ثلث الناس كانوا من « غافق » . ويرى ابن دقاق أنه كان مع جيش العرب جماعة ممن أسلم من الروم والفرس الذين كانوا باليمن . ولعل هؤلاء جاءوا فيما بعد مع الأمداد التي طلبها عمرو بن العاص من الخليفة عمر بن الخطاب لاقتحام حصن بابليون .

كان عمرو بن العاص تاجراً في الجاهلية ، وكان يختلف بتجارته وهي الأدم والعطر إلى مدينة مصر ومدينة الاسكندرية ، فكان ملماً ، والحالة هذه ، بطرق هذه البلاد ومسالكتها وأحوالها السياسية والاجتماعية . فلما أسلم في السنة السابعة أو الثامنة للهجرة وأسندت إليه قيادة الجيوش ، كان على بينة من أمر مصر وضعف جيشها ونفسية جنودها واضطهاد أهلها على يد المقوقس ، هذا البطريك الملكاني المعين من قبل هرقل ملك الروم والياً على حكومة مصر ورئيساً للسلطة الدينية والمدنية فيها .

كان عمرو بن العاص يعرف جيداً أن هذا الحاكم العشوم عسف في الحكم حتى صار اسمه مفرعاً للقبط كرهها عندهم .

كان عمرو يعرف جيداً أن جيش مصر مكون من كتائب من المرتزقة ومن جنود القبط المتذمرين ، وأن مجرد ظهور جيش العرب سوف يخلق جواً يمهده له السبيل لفتح هذه البلاد ، ولذا لم يتردد في مهاجمتها بفرسانه الأربعة آلاف المسلحين بالدروع والسيوف فقط ، مع ما أظهره الخليفة عمر بن الخطاب من الخوف والفرع أمام هذه المجازفة المخارقة للعادة .

أما القبط فما إن بلغهم خبر الحركة العظيمة التي ثارت في بلاد العرب وهزت مدائن بلاد الشام هزاً ، حتى خطر بقلوبهم عند ذلك أن الخضوع للمسلمين قد يخفف من الآلام التي نعّصت عليهم حياتهم ، وأن نير المسلمين قد يكون أخف حملاً من نير الملك المسيحي هرقل ملك الروم ، فأروا في مجيء المسلمين نازلة أرسلها الله لينتقم لهم بها من ظالمهم . ولذا قاموا بمساعدة جيوش عمرو ضد جيوش الروم في احتلال بلادهم .

وهكذا دفع سوء الحكم بالبلاد المصرية إلى مأزق ما أضيقه !!

ولكنها جنابة هرقل ملك الروم وجفافية للمقوقس هذا الرومي المتمصر !! فانهما كانا يعملهما يمهدان السبيل لمطلع جنود الاسلام .

وقد كان استقلال القبط في أمور الدين أكبر ما تتعلق به نفوسهم في هذا العصر المسيحي المتأخر، لأن استقلالهم القومي كان قد ضاع منذ انتهاء العصر الفرعوني سنة ٣٣١ ق. م. وبقوا مدة ألف سنة تقريباً يرزحون تحت نير اليونان وتحت حكم الرومان والبيزنطيين إلى أن جاء العرب .

وصل عمرو بن العاص بجيوشه من الشام إلى العريش واحتلها سنة ١٨ هـ ثم تابع سيره إلى الفرما فهزم جيوش الروم بها ، ومن ثم سار إلى بلبس فاستولى عليها ثم إلى أم دنين فاستولى عليها أيضاً ثم تقدم إلى حصن بابلون فحاصره ثمانية أشهر ثم فتحه في أبريل سنة ٦٤١ م وعقد مع القوقس صلحاً على أن يدفع المصريون الجزية بمقدار دينارين عن كل شخص ما عدا الشيوخ والصبيان والنساء ، وذلك نظير تركهم أحراراً في عبادتهم . أما من يسلم فإنه يعفى من الجزية .

فتحت جيوش عمرو بن العاص إذن مصر فتحاً سهلاً ممهداً ، فلما تم لهم احتلال الإسكندرية سنة ٦٤١ م ، أحب عمرو أن يتخذها مقراً له لا سيما وأنها كانت مقر الحكم في عهد الروم وكانت بها قصور كثيرة خلت من أصحابها الذين فروا أمام العرب الغزاة إلى بلاد الروم ، تاركين قصورهم وممتلكاتهم غنيمة باردة للفاتحين . فكانت الإسكندرية إذن أخاذة . من أخذ من العرب منزلاً سكن فيه هو وبنو أبيه . ورأى عمرو أن يبنيها وبناءها مفروغاً منها وهم أن يسكنها وقال : « مساكن قد كفيناها » .

ولكن الخليفة عمر بن الخطاب كتب إليه يقول : « لا أحب أن تنزل بالمسلمين منزلاً يحول الماء بيني وبينهم شتاءً ولا صيفاً » .

فعاد عمرو إلى حصن بابلون على أن يبني للمسلمين مدينة في السهل الذي يلي الحصن الروماني أي في السهل الواقع بين الحصن وبين جبل المقطم وكان موضع عسكره حين محاصرته للحصن .

موقع الفسطاط

وقد راعى عمرو في اختيار هذا الموقع لبناء عاصمة الإسلام الأولى بمصر ما كان يراعيه القدماء في انتخاب مواقع عواصم الانقلابات السياسية والاجتماعية ، وهي أن تكون عند رأس الدلتا تشرف على جميع طرق الملاحة في فروع النهر السبعة وعلى جميع طرق القوافل في الصحراء . ويسهل انتقال الجيوش منها إلى أي جهة في الوجه القبلي أو الوجه البحري برّاً وبحراً ما دامت في مركز متوسط بين الوجهين ، وذلك لقمع أي فتنة في البلاد ضد النظام الجديد .

صحیح أن عمرو أراد ، لسهولة الاتصال ببلاد العرب ، أن يبني العاصمة الجديدة على البحر الأحمر بجوار مدينة القلزم مكان مدينة السويس الحالية ولكنه عدل عن هذه الفكرة وأقامها بجوار حصن مدينة مصر القديمة

لما تبين ما في هذا الموقع من مزايا لحكم هذه البلاد ، مع إمكان الوصول منه إلى بلاد العرب بالسهولة المطلوبة عن طريق القوافل التي تخترق الصحراء إلى القلزم ، وقد عرفت هذه الطريق فيما بعد باسم درب الحج . وتكاد تكون هي طريق مصر - السويس الحالية .

تخطيط مدينة الفسطاط

وقد روى البلاذري أن الزبير هو الذي اختط المدينة الجديدة واتخذ فيها لنفسه داراً وجعل فيها السلم الذي صعد عليه إلى سور الحصن واقتحمه بواسطته . وبقى هذا السلم بدار الزبير حتى احترق .

ولكن لا شك في أن الذين خططوا المدينة وبنوها كانوا من مهندسي القبط ، إذ لم يكن عند ذلك في العرب من له علم بفن إنشاء المدن ولا دراية به .

ومن الجلي أن اسم الفسطاط الذي سميت به المدينة الجديدة اسم أعجمي . وقد قيل في سبب تسميتها بهذا الاسم إنها شيدت في المكان الذي عسكر فيه عمرو بجنوده ، حين محاصرته لحصن بابيلون ، وكان قد ضرب فيه فسطاطه أي خيمته . ولذا سميت المدينة الفسطاط أي مكان خيمة عمرو . وهناك رواية أخرى عن سبب هذه التسمية وهي أنه لما أتم عمرو فتح الحصن ، وشرع في السير إلى الإسكندرية لفتحها ، وجد يمامة قد باضت فوق الفسطاط ، فأمر جنوده أن يتركوا الفسطاط في مكانه حتى يتم فقس البيض . فترك الفسطاط في مكانه وعرف المكان لذلك باسم الفسطاط .

ولكن الأرجح أن يكون اسم الفسطاط مشتقاً من كلمة « فوساتم » وهي كلمة رومية معناها « الحصن » ويكون معنى مدينة الفسطاط مدينة الحصن .

وإنه لمن البعيد أن تكون مدينة الفسطاط قد جعلت عند تخطيطها مدينة عظيمة ، أو أنه كان يقصد منها أن تكون عاصمة للمسلمين تضارع عواصم مصر القديمة .

كلا ! فكل ما في الأمر أن بقاء الجنود في الحصن كان قد أفسد حالهم ونقص عليهم عيشهم .

وما كان من العدل ولا من المستحسن أن يُخرج المسلمون أهل مصر من ديارهم ليحلوا فيها محلهم .

وعلى ذلك فقد رأى العرب أنهم يستطيعون البناء خارج أسوار الحصن ، لا يخافون شيئاً بعد أن وضعت الحرب أوزارها .

بنى عمرو بن العاص إذن مدينة الفسطاط في السهل الواقع بين الحصن وجبل المقطم متبعاً القواعد التي وضعها قدماء المصريين في تخطيط مدنهم وهي إنشاء المعبد أولاً ثم إنشاء مرافق المدينة ومساكن الأهالي حوله .

فاختط في أول الأمر مسجداً صغيراً أبعاده لا تزيد عن ٥٠ × ٣٠ ذراعاً يقوم مكانه الآن جامع عمرو بن العاص
الفسيح بمصر القديمة . وبعد ذلك أذن للقبائل أن تختط حول الجامع . فانضمت القبائل بعضها إلى بعض ،
وتنافسوا في المواضع ، فولى عمرو على انخطط معاوية بن جديح التجيبي وشريك بن سمى وعمرو بن قحزم الخولاني
وجبريل بن ناشرة المعافري ، فأنزلوا الناس في أماكنهم المعينة وفصلوا بين القبائل وبعضها .

وهكذا نشأت الفسطاط في أول أمرها على النظام الذي اعتاده العرب في الصحراء ، لكل قبيلة خطة منفصلة
عن سواها ، وهذا النظام يشبه نظام النجوع الذي نراه إلى الآن في مدينة أسوان وفي ناحية السنانية
مقابل دمياط .

ولما كان من حسن الاحتياط ، أن يتمكن العرب من الالتفاف حول مركز رئيسي بأسرع ما يمكن إذا هوجموا
مهاجمة مفاجئة ، أقام عمرو لنفسه داراً في شرق المسجد الجامع وسط هذه النجوع المتفرقة ، وترك أمامها فضاءً أوى
ميداناً واسعاً لموقف دواب الجند من خيل وجمال وحمير . فكان من السهل على العرب الالتفاف حول قائدهم
الأعلى عند اللزوم .

وقد سميت دار عمرو هذه الدار الكبرى ، وكان مدخله إليها من بابها القبلي في زقاق عرف بزقاق القناديل .

وقد ذكر الكندي هذا الزقاق وقال : « إنه وسم بزقاق القناديل لأنه كان منازل الأشراف وكان على
أبوابهم القناديل » .

وقيل : إنما قيل له زقاق القناديل لأنه كان يرسمه قنديل يوقد على باب عمرو .

ثم أقام عمرو لابنه عبد الله داراً أخرى بملاصقة داره ، عرفت أيضاً باسم دار عمرو الصغرى .
واتخذ الزبير بن العوام داره في غرب هذه الدار .

ولم يتخذ عمرو للامارة داراً مخصوصة بل نزل بداره . واستمر كل أمير بعده ينزل بالدار التي يكون بها سكنه
إلى زمن معاوية . ولكن عمرو شيد بالفسطاط بيتاً للمال ، وجعل من مسجده مقراً لرئيس القضاة ومجلساً ومجمعاً
للعلماء ، تماماً كما كان يفعل قدماء المصريين في معابدهم .

وعمرت مدينة الفسطاط بعد سنة واحدة من إنشائها واتسعت حتى عمت الفضاء الفسيح المعروف في جنوب
القاهرة والمحدود من الشرق بسفح جبل المقطم ومن الشمال بالخليج المصري عند ميدان السيدة زينب
وجبل يشكر ومن الغرب بالنيل الذي كان يمر إذ ذاك محل شارع مار جرجس تحت الحصن الروماني وتحت جامع
عمرو ومن الجنوب ببركة الحبش وقريّة دير الطين . وقد قصدتها الناس من كل جانب . وكثرت فيها الدور

يزاحم بعضها البعض حول الجامع وعلى مقربة من قصر الشمع . وأطلق عليها اسم فسطاط مصر ، وكانت تسمى أحيانا الفسطاط فقط وأحيانا أخرى مصر وصارت عاصمة هذه البلاد المصرية . وكانت دورها تتخللها دور كثيرة لجماعة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم .

مباني الفسطاط

ولم يكن البنيان في أول الأمر منيعاً ولا مرتفعاً ، إذ كانت البيوت طبقة واحدة في الارتفاع ، تبنى من اللبن ، ثم علا فيها البناء حتى صار إلى طبقات أربع أو خمس على غير استواء ولا نظام تدعمها أحجار وأعمدة رومانية لا شيء فيها من الزينة ولا من جمال التنسيق .

ذكر أن خارجة بن حذافة ، ابني مشربة أو طنفاً أى غرفة فوق سطح منزله وكتب عنها إلى عمر . فأمر عمر بأن يدخلها عمرو بن العاص وينصب فيها سريراً ويقم عليه رجلاً ليس بالطويل ولا بالقصير ، فإن اطلع من كواها على عورات جيرانه هدمها . ففعل ذلك عمرو ولم يبلغ الكوى فأقرها . وهذه أول طنف بنيت بالدور الثاني بالفسطاط .

و بنى عثمان بن قيس السهمي داراً لضيافة الناس ، فكانت أول ما بنى من دور الضيافة بمصر .

مواقع الخطط بمربطة الفسطاط

قلنا إن عمراً أذن للقبائل أن تختط حول الجامع ، وأنه ولي معاوية بن جديح وآخرين على الخطط ، فأنزلوا الناس في المواقع المعينة لهم وفصلوا بين القبائل وبعضها على النظام الذي اعتاده العرب في الصحراء .

وإليك الآن مواقع الخطط والقبائل المختلفة :

أولاً — خطة أهل الراية وكانت تقع على مقربة من جامع عمرو وتمتد إلى قصر الشمع .

قال المقرئى : أهل الراية جماعة من قریش والأنصار وخزاعة وأسلم وغير ذلك ، وإنما سموها أهل الراية ونسبت الخطة إليهم ، لأنهم جماعة لم يكن لكل بطن منهم من العدد ما ينفرد بدعوة من الديوان ، فكبره كل بطن منهم أن يدعى باسم قبيلة غير قبيلته ، فجعل لهم عمرو بن العاص راية ولم ينسبها إلى أحد ، فقال : يكون موقفكم تحتها ، فكانت لهم كالنسب الجامع ، وكان ديوانهم المخصص لحصر الجنود والغنائم وتوزيعها على مستحقيها يعقد تحت هذه الراية .

ثانياً — خطة مهرة — وكانت تقع في الجنوب الشرقى من خطة أهل الراية . وكان لهذه القبيلة خطة أخرى على جبل يشكر مكان قلعة السكبش الآن .

ثالثاً - خطة تجيب - وكانت تجيب ، بعد خطة مهرة فتكون إلى الجنوب الشرقى منها إذ كان من بين دروبها ، درب المصوصة الذى يؤدى إلى شرقى قصر الشمع أى الشمال الشرقى منه .

رابعاً - خطط نخم وكانت تشمل ثلاثة مواقع :

الموقع الأول فيما يلي أهل الراية مباشرة نحو الشمال فتكون فى الشمال الشرقى من الجامع .

والموقع الثانى فى شرقى دير الملاك القبلى بمصر القديمة .

والموقع الثالث غير بعيد منها .

خامساً - خطة الليف وكانت تلاصق خطة أهل الراية .

سادساً - خطط أهل الظاهر وكانت تمتد شرقى نخم فى الشمال الشرقى حتى موقع حائط مجرى العيون الحالى .

سابعاً - خطة وعلان وكانت تقع إلى جنوب قصر الشمع .

ثامناً - خطط الفرس وكانت تقع على مقربة من المرتفعات الصخرية المعروفة باسم جبل الرصد أو جبل

اصطبل عنتر .

وكانت قبائل الفرس تشمل بنى وائل وراشده ولهم إلى اليوم مسجد يعرف بمسجد الفارسيين أو مسجد سيدي

العجمى بدير الطين .

وكان خليج بنى وائل متصلاً ببركة الحبش وكانت بساتين بنى وائل تقوم على شواطئ هذه البركة وقد بقي

اسمها فى اسم قرية البساتين الحالية .

ويظهر أنه كان للفرس خطة أخرى بالقرب من جبل يشكر حيث جامع ابن طولون الآن أعنى على الأرض التى

أقيمت عليها مدينة العسكر فيما بعد .

تاسعاً - خطط خولان وكانت تشمل موقعين :

الموقع الأول جنوبى قصر الشمع .

والموقع الثانى فى مكان الكوم المشرف على مصلى خولان التى كشفت عنها حفريات الفسطاط .

عاشرأ - خطة المعافر وكانت تقع على الشرف أو جبل الرصد المطل على بركة الحبش ومكانه اليوم جبل

اصطبل عنتر .

حادى عشر - خطط الروم واليهود وهم الذين أطلق عليهم اسم الحمراء . وكانت خططهم الثلاث تلى الواحدة

الأخرى وتمتد من جامع عمرو حتى جبل يشكر . وهذا الجبل مسمى باسم قبيلة بنى يشكر التى سكنته . ويقع

عليه الآن جامع ابن طولون . وكانت قبائل الروم واليهود تعرف باسم بنى نبيه و بنى الأزرق و بنى ريبيل . وكانت

خططهم تعرف باسم الحمراء القصوى والحمراء الوسطى والحمراء الدنيا . ومكانها اليوم الخط الذى يقع فيه دير مار مينا بميدان الطيبي بقسم مصر القديمة .

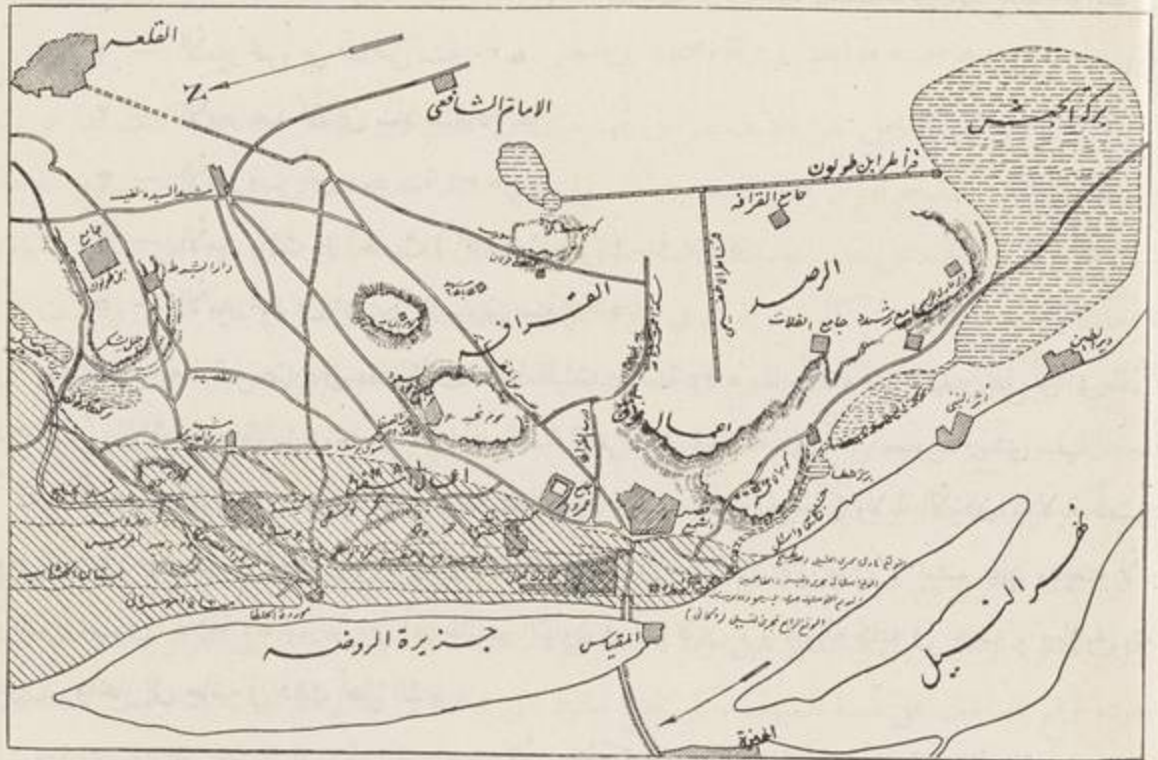
ثانى عشر - خطط القبط وقد أسكنهم عمرو قصر الشمع .

هذا ولم تكن الخطط كلها للسكن بل كان بينها ما خطط للتعليم كخطة عبد الرحمن بن ملجم فإنها أعطيت له بأمر أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، يتخذها منزلاً ليعلم الناس القرآن .

وكان عبد الرحمن قد قرأ على معاذ بن جبل باليمن ثم انتقل إلى مذهب الجوارح . وهو الذى قتل على ابن أبى طالب كرم الله وجهه .

وكانت خطة كل قبيلة قائمة على انفرادها منعزلة عن غيرها متوزعة فى السهل ، وكانت الخطط تمتد من النيل فى الغرب حتى عين الصيرة فى الشرق ومن جبل يشكر فى الشمال حتى الشرف وجبل الرصد أو جبل اصطبل عنتر فى الجنوب . وكان أكثرها التصاقاً ما كان على مقربة من الجامع ومن قصر الشمع .

وبنيت فى القسطنطينية الحمامات ، وأول حمام منها بناه عمرو بن العاص ، ورآه الروم فاستحرقوه وقالوا يصلح للفأر فصار يسمى حمام الفأر .



رسم بين موقع شاطئ النيل الشرقى تجاه القاهرة ومصر القديمة فى عصر الفتح العربى بالنسبة لموقعه فى العصر الحالى . وترى بركة الحبش وخليج بنى وائل وجبل الرصد وأهم المعالم الأخرى . كما تفهم منه مواقع الخطط بمدينة القسطنطينية .

أما حمامات الروم في مدينة مصر القديمة فكانت ديماسات كبارا واسعة ذات ثلاث طبقات يدخل من الأولى إلى الثانية ثم إلى الثالثة .

ولبث المسلمون مقيمين في الفسطاط لا ينتشرون في القرى إلى ما بعد عصر الصحابة والتابعين . وكانوا يلتزمون القصد والاعتدال في عيشتهم لأنهم كانوا منصرفين إلى الجهاد والفتح .

هذه كانت حالة الفسطاط في القرن الأول الهجري ، ولكنها بعد ذلك ، اتسع نطاقها على توالي القرون ، وارتقت حالها فاستبدلت خططها بغيرها واتسعت حدود الخطط وتلاصقت مبانيها حتى نشأ عن مجموعها مدينة واحدة بلغت أوج كمالها ، حوالي القرن الرابع الهجري .

وظلت مدينة الفسطاط عاصمة البلاد المصرية من سنة الفتح إلى سنة ١٣٢ هـ حين زالت دولة بني أمية وخلفتها الدولة العباسية . فبني ولاية مصر من قبل العباسيين إلى الشرق من الفسطاط ضاحية جديدة سموها العسكر ، وصارت العسكر مقر ولاية مصر إلى سنة ٢٥٤ هـ .

أمراء الفسطاط في عهد الخلفاء الراشدين

وإليك الآن أسماء الحكام العرب الذين تولوا الأمر بمصر وكان مقرهم بمدينة الفسطاط في عهد الخلفاء الراشدين :

١ - الأمير عمرو بن العاص سنة ٢٠ هـ

٢ - الأمير عبد الله بن سعد سنة ٢٥ هـ

٣ - الأمير قيس بن سعد سنة ٣٦ هـ

٤ - الأمير مالك بن الحارث (الاشتهر النخعي) سنة ٣٧ هـ

٥ - الأمير محمد بن أبي بكر الصديق سنة ٣٧ هـ

ومن المعلوم أنه لما قتل عثمان بن عفان ثالث الخلفاء الراشدين سنة ٣٥ هـ ، بايع كثير من المسلمين على بن أبي طالب ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وزوج ابنته فاطمة الزهراء على الخلافة ، ولكن معاوية بن أبي سفيان أحد كتاب الوحي في أيام النبي ، وأحد قواد الجيش العربي في حروب الشام ، وحاكم ولاية الأردن وولاية دمشق وما يتبعها في عهد عمر بن الخطاب ، ثم حاكم بلاد الشام كلها في عهد عثمان بن عفان ، امتنع عن مبايعته لأنه كان يرغب في الخلافة ، فاتهم على بن أبي طالب بالتهاون في أمر عثمان ، وبايوائه قتلته في جيشه ، وطالبه بدم عثمان . وانحاز إلى جانبه في ذلك أهل الشام .

ودارت بين الفريقين المواقع الحربية وانتهى الأمر بالتحكيم وخلع على وتثبيت معاوية في الخلافة .

فتولى معاوية خلافة المسلمين واتخذ دمشق عاصمته للخلافة . أما قبل ذلك فكانت المدينة المنورة حاضرة

المسلمين في عهد النبي صلى الله عليه وسلم ، وظلت كذلك في عهد أبي بكر وعمر وعثمان ، فلما ولى على الخلافة ، انتقل إلى الكوفة وجعلها مقر خلافته . ولما آل الأمر إلى معاوية بن أبي سفيان ، اتخذ دمشق عاصمةً للملكة ، كما قلنا واستمرت كذلك طوال حكم الدولة الأموية .

عمرو بن العاص

كان عمرو بن العاص أول الحكام العرب الذين تولوا الأمر بمصر بعد أن زال حكم الروم عنها وخضعت للمسلمين ، فبشرع ينظم شؤونها ويصلح أحوالها ويرفع ظلم الروم عنها ، وعنى بالزراعة ، وحفر الترعة ، وأقام المقاييس في النيل ، وفرض الضريبة التي تتناسب مع ثروة السكان وكانت تقدر باثني عشر مليوناً من الدنانير أو خمسة ملايين من الجنيهات المصرية وهو نصف ما كان يجبيه الروم . ومهد الطرق البرية فانتعشت التجارة وتوثقت العلاقات التجارية بين مصر والأمة الشرقية . وحفر الترعة القديمة التي كانت تصل النيل بالبحر الأحمر وسماها خليج أمير المؤمنين ، وتمتعت البلاد في عهده بعدل شامل ، لما أنشأه من المحاكم ، واستتب الأمن لعناية الحكومة به ، وأحب المصريون حكم العرب لاشتراكهم سويّاً في إدارة شؤون البلاد .

وقد وسع عمرو حدود مصر فأرسل عبد الله بن أبي السرح عامله على الوجه القبلي فغزا بلاد النوبة ، وضرب عليها الجزية وغزا هو نفسه طرابلس وبرقة وضمهما إلى مصر .

ثم عزل عمرو بن العاص عن ولاية مصر في عهد عثمان بن عفان لأن مطامع هذه الدنيا كانت قد غررت به وعصفت بقلبه فاستباح أموال بعض المصريين واستولى عليها . فلما بلغت الشكوى من ذلك مسامع الخليفة عثمان خلعه وولى مكانه على مصر عبد الله بن سعد سنة ٢٥ هـ فكان ذلك سبباً في تأب عمرو على الخليفة واتهامه له بمحاباة أقاربه وأنصاره . ثم كثر خلع الولاة في خلافة عثمان فانتشرت الثورة والفتنة في بلاد العرب وامتدت إلى الأقاليم . فلما قتل عثمان سنة ٣٥ هـ وشرع في انتخاب خليفة له ، انقسم المسلمون على أنفسهم ، فبايع قوم علياً بن أبي طالب وامتنع عن بيعته آخرون - معظمهم من بني أمية ، قبيلة عثمان ، أو ممن كانوا ينتمون إليه - وكان على رأس هؤلاء طلحة والزبير ومعاوية بن أبي سفيان ، حاكم الشام من قبل عثمان .

ولما اشتد الأمر بينهم خرج معاوية بن أبي سفيان لمحاربة علي في موقعة صفين ، فانضم عمرو بن العاص إلى صفوف معاوية وحارب إلى جانبه أربعين يوماً ، انهزم في آخرها معاوية وكاد يلجأ إلى الفرار ، لولا أنه أمر جنوده برفع المصاحف على أسنة السيوف ، كي يخضع جنود علي برغبته في تحكيم القرآن . فلما رفعت المصاحف امتنع جنود علي فعلا عن مواصلة الحرب . وانتهى الأمر بين الطرفين على أن ينتخب كل منهما حكماً ليتفاوضا في شروط الصلح .

فانتخب معاوية ، عمرو بن العاص . وانتخب على ، أبا موسى الأشعري ، وتم رأى الحكمين على أن يخلع كل صاحبه ، ويعاد انتخاب الخليفة من جديد .

ولما جاء وقت إعلان رأيهما ، خدع عمرو أبا موسى . فأعلن أبو موسى خلع على ، وأعلن عمرو تثبيت معاوية فاضطرب حال المسلمين ، وقرر فريق من جيش على أن يخرجوا عليه وعلى معاوية لأنهما في رأيهم سبب انقسام المسلمين وإضطراب شئونهم فسمى هؤلاء بالخوارج ، فانصرف على إلى محاربتهم وانتصر عليهم .

واتفق في ذلك الوقت ثلاثة من هؤلاء الخوارج على قتل على ومعاوية وعمرو . فنجح عبد الرحمن بن ملجم صاحب خطة التعليم بالفسطاط المذكورة سابقاً في قتل على بن أبي طالب وهو قائم لصلاة الفجر سنة ٤٠ هـ بينما فشل زميلاه الآخران . وهكذا خلا الجو لمعاوية بن أبي سفيان فتولى خلافة المسلمين وأسس الدولة الأموية وكان قد أعاد عمرو بن العاص على ولاية مصر سنة ٣٧ هـ ، فاستمر والياً عليها حتى توفي بعد أن جاوز الثمانين ودفن بالمقطم سنة ٤٣ هـ ولا يزال قبره مجهولاً .

أسماء الفسطاط في عهد دولة بني أمية

وإليك الآن أسماء الحكام العرب الذين تولوا الأمر بمدينة الفسطاط في عهد دولة بني أمية .

١ — الأمير عمرو بن العاص سنة ٣٧ هـ	١٤ — الأمير محمد بن عبد الملك سنة ١٠٥ هـ
٢ — « عقبة بن أبي سفيان » ٤٣ هـ	١٥ — « الحر بن يوسف » ١٠٥ هـ
٣ — « « عامر » ٤٥ هـ	١٦ — « حفص بن الوليد » ١٠٨ هـ
٤ — « مسامة بن مخلد » ٤٧ هـ	١٧ — « عبد الملك بن رفاعه » ١٠٩ هـ
٥ — « سعيد بن يزيد » ٦٢ هـ	١٨ — « الوليد بن رفاعه » ١٠٩ هـ
٦ — « عبد الرحمن بن جحدم » ٦٤ هـ	١٩ — « عبد الرحمن بن خالد » ١١٧ هـ
٧ — « عبد العزيز بن مروان » ٦٥ هـ	٢٠ — « حنظلة بن صفوان (ثانياً) » ١١٨ هـ
٨ — « عبد الله بن عبد الملك » ٨٦ هـ	٢١ — « حفص بن الوليد () » ١٢٣ هـ
٩ — « قرة بن شريك » ٩٠ هـ	٢٢ — « حسان بن عتاهية » ١٢٧ هـ
١٠ — « عبد الملك بن رفاعه » ٩٦ هـ	٢٣ — « حفص بن الوليد (ثالثاً) » ١٢٧ هـ
١١ — « أيوب بن شرحبيل » ٩٩ هـ	٢٤ — « حوثة بن سهيل » ١٢٨ هـ
١٢ — « بشر بن صفوان » ١٠١ هـ	٢٥ — « المغيرة بن عبيد الله » ١٣١ هـ
١٣ — « حنظلة بن صفوان » ١٠٢ هـ	٢٦ — « عبد الملك بن مروان » ١٣٢ هـ

ظل هؤلاء الولاة يحكمون بالفسطاط طول عهد الدولة الأموية التي مكثت ٩٥ سنة هجرية تقريباً ، لم يكف خلالها بنو هاشم - أهل بيت النبي وعلى بن أبي طالب - عن السعي لاسترداد الحكم من بنى أمية ، فكانوا يواصلون السعي سرراً خوفاً من بطش الأمويين بهم ، يعاونهم الفرس ، إلى أن دب الضعف في الدولة الأموية ، فأخذ بنو هاشم يعدون العدة للقضاء عليها ، فتم لهم ذلك في موقعة اشتبكوا فيها مع مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين قرب الموصل فانهمزم وفر إلى مصر ، فاقتفوا أثره وقتلوه .

و بموت مروان بن محمد انقضى حكم الدولة الأموية ، فقامت من بعدها الدولة العباسية التي تنتسب إلى العباس ابن عبد المطلب ، عم النبي صلى الله عليه وسلم . وأول خلفائها أبو العباس عبدالله السفاح . وكانت بغداد حاضرتها . وأهم ما تمتاز به الدولة العباسية انطباعها بالطابع الفارسي ، وسبب ذلك معاونة الفرس في قيامها ونشأتها ، بينما كانت الدولة الأموية عربية النشأة لاعتمادها في قيامها على العرب دون غيرهم .

و بعد أن استقرت أحوال مصر في يد عمرو بن العاص للمرة الثانية سنة ٣٧ هـ في خلافة معاوية بن أبي سفيان ، واستتبتم أمورها ، أقام المسلمون فيها حكومة عادلة ، عاملت القبط ، أغلبية سكان القطر إذ ذاك ، معاملة مبنية على العدل والتسامح حتى شعر المسيحيون بالفارق الكبير بين حكام الروم وحكام المسلمين الذين امتاز أغلبهم برعاية القبط والحدب عليهم ، ولم يشذ من هؤلاء الحكام سوى نفر قليل أخصهم بالذكر عبد الله بن الحبحاب عامل يزيد بن عبد الملك على خراج مصر ، فقد أمر هذا الحاكم في سنة ١٠٤ هـ (٧٢٢ م) بتحطيم الصور المقدسة في كنائس النصارى ، ولقد أدى ذلك إلى تمرد القبط في الفسطاط وغيرها وإعلانهم العصيان وامتنعوا عن دفع الخراج . حقيقة أن هذا التمرد سرعان ما قمع ولكنه كان يتجدد بين آونة وأخرى حتى اضطر ابن الحبحاب أن يجلب نحواً من خمسة آلاف عربي أقامهم بمصر يخضدون من شوكة القبط .

مربنة الفسطاط في العصر الأموي :

وقد اتسعت مدينة الفسطاط وارتقت حالها على عهد الخلفاء من بنى أمية ، وبقيت مقراً للأمرء الذين بعث بهم الأمويون إلى مصر .

قال القلقشندي : ولم يكن على أيام هؤلاء الأمرء دار خاصة للامارة ، إلا أن عبد العزيز بن مروان الذي كان أمير مصر من قبل أخيه عبد الملك اتخذ له داراً تعلوها قبة مذهبية . وكانت هذه الدار فسيحة جداً حتى سموها المدينة . ومن ثم يظهر أن بعض الأبنية التي شيدت في ذلك العصر بلغت من الكبر والزخرف حداً عظيماً .

ولقد جاء مصر في العهد الأموي اثنان من خلفائهم هما مروان الأول ومروان الثاني آخر خليفة أموي الذي عبط بعد هزيمته أمام خصومه العباسيين في واقعة الزاب الأكبر المشهورة . وقد أقام في طريقه فترة في الفسطاط

ثم أمر بإشغال النار في دار الامارة وفي الجسر الذي كان يصلها بجزيرة الروضة وفر إلى الضفة الغربية للنيل .
ولكن احتياطاته ذهبت عبثاً لأن القائد العباسي صالح بن علي بن عبد الله بن عباس ورجال خراسان عثروا
بسرعة على وسائل عبور النيل ودهمته جيوش العباسيين في بلدة بوصير بإقليم الجيزة حيث لقي حتفه في ٢٧ جمادى
الآخرة سنة ١٣٢ هـ وعمره سبعون سنة وحملوا رأسه وطافوا بها المدن لكي يرى الناس أن الخلافة قد انتقلت من
البيت الأموي إلى بيت أبي العباس الهاشمي أول خلفاء الدولة العباسية .

ولم يرض رجال العباسيين بالسكن في بيوت الفسطاط بعد أن عبثوا بالمدينة ونهبوا مساكنها وقتلوا بأهلها
بل قرروا إنشاء عاصمة أخرى جديدة لدولتهم في مصر . وصدر الأمر إلى صالح بن علي الوالي الجديد بالتخلي عن
دار الإمارة بالفسطاط وبنء الحاضرة الجديدة لدولة العباسيين بمصر .

فأقامها سنة ١٣٣ هـ حيث كان معسكره إلى الشمال الشرقي من مدينة الفسطاط . وعرفت هذه الحاضرة
الجديدة باسم مدينة العسكر . وصارت العسكر مقر ولاية مصر إلى سنة ٢٥٤ هـ . ولكنها لم تكن في الواقع سوى
ضاحية جديدة لمدينة الفسطاط .

مدينة الفسطاط في العصر العباسي

ظلت الفسطاط حتى بعد تأسيس مدينة العسكر مركزاً ممتازاً للصنائع والحرف والتجارة . وكان يطلق على
طرقاتها اسم شارع أو حارة أو درب أو زقاق تبعاً لعرض هذه الطرقات واتساعها وطولها .

وكانت الأسواق بمعزل عن بعضها البعض ، يطلق عليها اسم أرباب الحرفة أو الصنعة التي تباع فيها
مصنوعاتهم ، فيقال مثلاً : سوق العطارين ، وسوق السماكين ، وسوق القشاشين ، وسوق المغربلين كما هو الحال
اليوم في مدن الشرق كله .

وكانت الخطط تنسب إلى صنعة من الصنائع أو تجارة من التجارات . وقد تنسب لبعض الجوامع
أو الكنائس .

وكانت القاعدة المتبعة ، منع السير في الطرقات ليلاً بواسطة إغلاق أبواب الدروب ، إلى أن كانت سنة ١٦٢ هـ
(٧٧٨ م) رأى الأمير يحيى بن داود عامل مصر ، أن يبطلها من الفسطاط .

وكان لأبواب الدروب مصراعان اكتشفت بعض آثارها في حفرات الفسطاط .

وعند تلاقى بعض الشوارع كانت توجد رحاب صغيرة وهي عبارة عن اتساع ملتقيات بعض الدروب .

وما كان أوسع وأفسح من ذلك كان يسمى ميادين .

وكانت بعض الأسواق والشوارع تضاء بالفتاديل نهاراً لأنها مسقوفة لا يصل إليها النور ، كما يشاهد ذلك الآن في الأسواق القديمة أو القيساريات ببعض المدن كأسوان وسوها ، وذلك لانتقاء حرارة الشمس صيفاً وتلطيف الجو حيث يزداد ازدحام المارة .

قال ابن حوقل الذي زار مصر في القرن الرابع الهجري سنة ٣٦٧ هـ (٩٧٧ م) يصف الفسطاط : « والفسطاط مدينة حسنة ، ينقسم النيل لديها ، وهي كبيرة نحو ثلث بغداد ، ومقدارها نحو فرسخ ، وعلى غاية العماره والطيبة والذلة ، ذات رحاب في محالها ، وأسواق عظام فيها متاجر فخام ولها ظاهر أنيق وبساتين نضرة ومنتزهات على بحر الأيام خضرة » .

ولما أخذت الدولة العباسية في الضعف ، جعل خلفاؤها يجلبون الأتراك من الولايات التركية بوسط آسيا ، ويستخدمونهم في حكومتهم ويستعينون بهم في الدفاع عن أنفسهم ، ضد أبناء جنسهم العرب ونصرائهم الفرس . وقد نال هؤلاء الأتراك الحظوة عند الخلفاء العباسيين ، وصاروا يقلدونهم أهم وظائف الدولة ، ويولونهم حكومات الأقاليم التابعة لهم .

ومن هؤلاء أحمد بن طولون منشيء الدولة الطولونية بمصر . فقد انتخبه باكبك ، حاكم مصر من قبل الخليفة العباسي المتوكل ، قائداً للقوة العسكرية في الفسطاط ، ولكن أحمد بن طولون لم يقنع بهذا المركز ، بل عمل على أن تكون له الكلمة العليا في مصر . فتم له ما أراد منذ موت باكبك وتولية برقوق مكانه . وكان برقوق والد زوجة أحمد بن طولون فأطلق يده في إدارة شؤون مصر وحكمها .

أخذ عندئذ أحمد بن طولون يجمع لنفسه جيشاً قوياً مدرجاً ، ولما تم له ذلك وجد أن الفسطاط وضاحتها العسكر لا تتسعان لإقامة جيشه وسكن حاشيته ورجال دولته ، فشرع يبني عاصمة جديدة بين الفسطاط وجبل المقطم . وأسمها القطائع لأنه أقطعها لحاشيته ورجال جيشه وعماله ومن يتبعهم ، وأسكن كل طبقة منهم قطعة سميت باسمها . وبني لنفسه فيها قصرًا عظيمًا تقع القلعة الآن مكانه ، وكانت تتصل بهذا القصر حديقة غناء وميدان فسيح لسباق الخيل . وبني داراً للحكومة ومستشفى للمرضى وخط في مدينة القطائع الشوارع والطرق ثم شيد مسجده الشهير المعروف لليوم باسم جامع ابن طولون .

ولما عظمت قوته انسلخ عن الدولة العباسية واستقل نهائياً بالبلاد . فاسمعت مدينة القطائع وانتشرت في كل اتجاه حتى أصبحت هي ومدينة العسكر ومدينة الفسطاط مدينة واحدة متلاحقة المباني متصلة العمران . وقد أطلق على هذه المدن الثلاث فيما بعد اسم مدينة مصر أو اسم مدينة مصر الفسطاط . وهكذا عاد اسم مدينة مصر الأصلي القديم إلى الظهور مرة ثانية . على أن اسم مصر في الواقع ظل مقترناً باسم مدينة الفسطاط منذ تأسيسها ، فكان يقال لها أيضاً فسطاط مصر .

مدينة الفسطاط في عصر الفاطميين والأيوبيين :

جاءت على الفسطاط أيام كانت فيها مدينة جليلة زاهرة نامية ، ثم عصف بها الدهر فتغيرت أحوالها وزالت محاسنها وأصبحت خرائب غير معمورة سويت بالأرض ، فاندثرت خططها وعفارسمها واضمحلت ما بقي منها وتغيرت معالمه . ولم يبق منها سوى المسجد الذي يحمل اسم عمرو . وهكذا تحوت عاصمة الإسلام الأولى بمصر إلى أكواخ من التراب وتلال من القاذورات وظل تاريخها غامضاً حقبة من الزمان ، حتى كشف العالم الأثرى الجليل المرحوم علي بك بهجت بين سنة ١٩١٢ وسنة ١٩٢٠ عن آثارها وشرحها في كتابه النفيس « حفرات الفسطاط » فأزاح الستار عن هذه الغوامض وأخرج للناس صورة واضحة لما كانت عليه هذه المدينة الجليلة في عهد هذا الزاهر ثم تابع تطوراتها مع الزمن فرسم خططها ودرس هندسة دورها ومميزاتها وصناعاتها ونظام توزيع المياه فيها وغير ذلك حتى أصبحت معالم الفسطاط القديمة واضحة ظاهرة بفضل هذا المجهود الضخم العظيم .

وقد حاولنا هنا متابعة تطورات هذه المدينة مسترشدين بالنتائج الباهرة التي وصل إليها هذا العالم القدير في كشف حفائر هذه المدينة ، ونحاول الآن الاستمرار في تتبع تطورات هذه المدينة في عصر الفاطميين والأيوبيين . عرفنا مما سبق بعض تطورات المدينة في عصر الخلفاء الراشدين وفي العصر الأموي والعصر العباسي أما في عهد الفاطميين فقد كان تأسيس مدينة القاهرة الضربة القاتلة التي صوبت إلى نحر الفسطاط . صحيح أن الخلفاء الفاطميين اتخذوا القاهرة مقراً لهم ولحاشيتهم دون سواهم ، وصحيح أنهم جعلوها مدينة ملكية منفصلة عن الفسطاط تبعد عنها حوالي فرسخ إلى الشمال . صحيح أن الشعب والعسكر والتجار والصناع ظلوا يسكنون في الفسطاط دون القاهرة ، ولكن كل ذلك لم يمنع ظهور عوارض الضعف على الفسطاط كلما ارتقت القاهرة وتقدمت . فلما أتى اليوم الذي سمح فيه صلاح الدين الأيوبي للناس بالانتقال إلى القاهرة طغت موجات الهجرة فتدهورت الفسطاط وسقطت . نسب المقرزي سقوط الفسطاط إلى سببين : السبب الأول هو الغلاء الفاحش الذي حل بالبلاد أيام الشدة العظمى في خلافة المستنصر بالله الفاطمي . والسبب الثاني هو حريق الفسطاط في وزارة شاور بن مجير السعدي سنة ١١٦٨ م . ولكن الواقع أن أحوال الفسطاط تراجعت بعد الحريق حتى قاربت ما كانت عليه قبل الشدة ، وكل ما لوحظ أن مساحة المدينة الأصلية قلت عن ذي قبل ، ولكن موضع العسكر والتقاطيع وظاهر الفسطاط مما يلي القرافة كان قد تلاشى تماماً ولم يبق مكانه إلا السكمان المنتشرة إلى موقع بركة الحبش القديمة بجوار قرية البساتين في جنوب مدينة القاهرة الحديثة .

قال ناصر بن خوسرو يصف الفسطاط سنة ٤٣٩ هـ (١٠٤٦ م) : « حينما يرى الإنسان من بعيد مصر الفسطاط يظن أنها جبل ، ففيها دور من أربع عشرة طبقة ، وأخرى من سبع طبقات . وقد سمعت من ثقة أن بعض

الناس كان له بستان على سطح دار له من سبع طبقات . فأصعد إلى هذا السطح مجلا صغيراً ، وغذاه حتى أصبح ثوراً ، وركب في السطح ساقية يديرها الثور ، فصعد الماء إلى السطح الذي غرس فيه شجر البرتقال من الخلو والملح ، والبون ، وأشجار أخرى مثمرة ، وزرع فيه الأزهار والرياحين من سائر الأنواع .

ولكن ما يلفت النظر في وصف هذا السطح الفارسي ، إنما هو كثرة الثروة في الأسواق ، والازدحام فيها وجمال الأعياد التي حضرها حيث يقول :

« لو وصفت هذه الأعياد لما وسع كثيراً من الناس أن يصدق كلامي ، ويرميني بالمبالغة والإغراق ، فإن حوانيت القصابين والصيغ والحوانيت الأخرى مفعمة بالذهب والحلي والبضائع والأقشة من الحرير والقصب لدرجة لا يجد فيها المشتري مجلا يجلس فيه » .

وختم هذا الوصف بقوله :

« رأيت بمصر ثروة جسيمة ، وأموالاً آجة ، لو هممت بوصفها ، لما صدق أحد من سكان بلاد العجم كلامي . ومع ذلك ، لم تكن هذه المدينة التجارية تصلح للسكنى ، فإن ابن رضوان المصري الطبيب الخاص للحاكم بأمر الله في القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) قابل بينها وبين القاهرة من حيث الصحة والنظافة فقال :

« وأزقة الفسطاط وشوارعها ضيقة وأبنيتها عالية ، ومن شأن أهل الفسطاط أن يرموا ما يموت في دورهم من السنابير والكلاب ونحوها من الحيوان الذي يخالط الناس ، في شوارعهم وأزقتهم فتعفن وتخالط عفوتها الهواء . ومن شأنهم أيضاً ، أن يرموا في النيل الذي يشربون منه فضول حيواناتهم وجيفها ، وحرارات كنفهم تصب فيه . وربما انقطع جرى الماء فيشربون هذه العفونة باختلاطها بالماء .

وفي خلال الفسطاط مستودعات عظيمة يصعد منها في الهواء دخان مفرط . وهي أيضاً كثيرة الغبار لسخانة أرضها ، حتى إنك ترى الهواء في أيام الصيف كدراً يأخذ بالنفس ، ويتسخ الثوب النظيف في اليوم الواحد .

وإذا مر الإنسان في حاجة لم يرجع إلا وقد اجتمع في وجهه ولحيته غبار كثير . ويعلوها في العشيات ، خاصة في أيام الصيف ، بخار كدر أسود وأغبر ، لاسيما إذا كان الهواء سليماً من الرياح .

وهذه الصورة المنفرة ، ربما كانت هي السبب في تنقل العاصمة من مكان إلى مكان نحو الشمال والبحث وراء الموقع الذي يمكن أن تهب منه الرياح الشمالية . وقد قيل إن الخليفة المعز انتقد جوهر القائد على اختياره موقع القاهرة لأن مكانها لم يعجبه فقال له : « فأنك بناء القاهرة على النيل فهلا كنت بنيتها على الجرف » . وهو يعني بذلك الشرف الذي عليه الرصد بجوار بركة الحبش . ويريد بذلك مكاناً أطيب هواء من موقع العاصمة القديمة .

على أن بعض خطط الفسطاط لم تكن لتخلو من الرياح الطيبة ولا تجرد عن العفونات ، كما يصفها ابن رضوان ، فإن الجانب الذي يصفه يوافق وسط الأسواق ، ومراكز التجارة ، حيث يبلغ فيها الزحام أقصاه وذلك فيما جاور الجامع والنيل .

أما الخطط الجميلة التي يذكرها ابن حوقل ، فلا شك في أنها كانت تمتد إلى الشرف ، وإلى حافة بركة الحبش التي كانت على أيام الخلفاء الفاطميين مفعمة بالمناظر العديدة البديعة .

وأما ما جاور الفسطاط فكانت تكثر فيه البساتين الواسعة .

وقد أتى ابن سعيد المغربي على وصف ما بلغته المدينة من العظمة التجارية والصناعية حتى بعد أن ابتداء أفول نجمها فقال :

« وبمدينة الفسطاط مطابخ السكر ومطابخ الصابون ومسالك الزجاج ومسالك الفولاذ ومسالك النحاس ومعامل القاشاني والفخار والصيني والوراقات مما لا يعمل في القاهرة ولا في غيرها من الديار المصرية » .

ولقد كانت كثرة الميرة والحبوب ، في مطامير الفسطاط ، سبباً في رخاء العيش فيها ، رخاء يزيد على ما كان عليه الحال في القاهرة ، لأن القاهرة كانت مسكناً للكبراء ومقراً للأمرء ، ولجنود الخليفة الفاطمي فقط .

وفي ذلك الوقت ، كانت ترى أطلال خطط الفسطاط التي هجرت في شمالي المدينة وشرقها .

ولقد زار ابن سعيد المغربي الفسطاط فركب إليها من باب زويلة حماراً . ولكنه لم يبلغها حتى شاهد منظراً محزناً قال يصفه :

« ولما أقبلت على الفسطاط أدبرت عن المسرة ، وتأملت أسواراً مثله سوداء وآفاقاً مغبرة . ودخلت من بابها (باب الصفا) وهو دون غلق ، مفض إلى خراب معمور بمبان سيئة الوضع ، غير مستقيمة الشوارع ، وقد بنيت من الطوب الأدكن ، والقصب والنخيل طبقة فوق طبقة . وحول أبوابها من التراب والأزبال ما يقبض نفس النظيف ، ويقبض طرف الظريف » .

هذه هي الحالة التي كانت عليها الفسطاط في العصر الفاطمي ومع مرور الزمن تكدست الأنقاض شيئاً فشيئاً فوق هذه الأطلال الدارسة ، بحيث لم يمس غير قليل حتى تكونت هذه الكيان العالية ، التي تراها ماثلة في جنوب القاهرة حتى اليوم .

ومن هذه الكيان كانت تؤخذ مواد البناء التي يمكن الانتفاع بها في الأبنية الجديدة من آجر وخشب وأبواب وبلاط وغير ذلك . تماماً كما كانت الحالة أيام إنشاء الفسطاط حين نقلت أنقاض منف للانتفاع بها في بناء العاصمة الجديدة .

وهكذا فالتاريخ يعيد نفسه ، وسبحان من له البقاء .

دور الفسطاط

وكانت دور الفسطاط ذات حيشان متوسطة تمتاز بأن الغرف كانت تحيط بالحوش بنظام متماثل ، وتتكون من شكل هندسى قائم على محورين متعامدين يلتقيان في وسط الحوش وتختلف الغرف المحيطة به في المقاس والنسب . وفي كل جنب من جوانب الحوش رواق ذو ثلاث فتحات ، تختلف في الضيق والسعة . منها الفتحة الوسطى أوسع من الفتحتين الجانبيتين ويفصلها عنهما كتفان مبنيان بالآجر . وفي سمت الرواق ، القاعة . وهي غرفة كبيرة يزيد طولها عن عرضها . وتكتنفها من جانبها حجرتان صغيرتان . منعزلتان عنها .

وفي الجوانب الثلاثة الأخرى من الحوش في محور كل جانب أواوين تختلف في الامتداد إلى الداخل ، فتتكون منها تارة قاعات وطوراً ، وهو الأغلب ، أواوين صغيرة أو صفف .

ولم يعرف بالضبط على أى حال كان يعيش النساء في أوائل الفتح الإسلامى . وفي العهدين العباسى^١ والطولونى وهل كانت لهن غرف خاصة في دور الفسطاط أم لا ؟ وكل ما وصل إلى علمنا هو أن الغرف لم تكن معدة لغرض مخصوص ، كما هو الحال في بيوتنا الآن . فإن القاعة الكبيرة ، والرواق ، والأواوين بل والصحن ، كل ذلك كان يستعمل لاستقبال الزائرين تبعاً لأوقات النهار والفصول .

غير أن المحتمل هو وجود دار للحريم وتخصيص مكان على انفراد لهن في جميع المساكن الفسيحة المشيدة في الأراضى المتسعة . وهذا التخصيص ظاهر جداً في بيوت الأمراء والأكابر . ومن هذا القبيل اتخاذ أحمد بن طولون داراً خاصة بحريمه بجزيرة الروضة .

وكان بجوار السوق الكبيرة زقاق سده قراقوش الأفرمى وأضافه إلى داره من شرقيه وجعله مدخلاً خاصاً إلى حريم داره .

وكانوا يجهزون الطعام على مواقد من الطين يوقدونها في الحوش أو في حجرة صغيرة . وكانوا ينزلون بأسس المنازل إلى الصخر . وكانت الأسس تبنى بالدبش ومونة الطين أو الطين والجير . كما كانت تبنى بالآجر ومونة الجير والرمل وقد يضاف إليها القصرمل أو الحمرة .

كما كانت تبنى أساسات بعض منازل الطبقات الفقيرة من اللبن .

أما حوائط المنازل فكانت تبنى بالآجر الأحمر الداكن المتجانس وهو مستوفى الحريق شديد الصلابة شكله مستطيل ، ومتوسط أبعاده ٠.٢٢ × ٠.١١ × ٠.٠٦٥ متر ، يبنى على مداميك أفقية مقطوعة الحلوق بمونة الطين أو الطين والجير في المباني الخفية . ومونة الجير والرمل بنسبة ٢ : ١ أو ١ : ١ أو مونة الجير والقصرمل بنسبة ٢ : ١ أو بمونة الحمرة والجير بنسبة ١ : ١ في المباني المتينة .

وهناك مون خلط فيها الجبس بالجير على نسب مختلفة . ومون من الجبس الخالص والجير الخالص . وكانت العراميص الأقفية أعرض من العراميص الرأسية . وكانت هذه العراميص تكحل بعد البناء بمونة من الجبس والجير حتى تبرز نحو مليمتر أو اثنين عن سطح الآجر بهيئة خطوط بيضاء على أرض حمراء داكنة . ويمكن رؤية هذا الطراز من البناء لغاية اليوم في منازل رشيد التي احتفظت بها لجنة حفظ الآثار العربية ورمتها . وفي داخل الدور كانوا يفرشون الجدران بالجير الخالص أو يبيضونها بالجير المخلوط بالرمل أو بالجير المخلوط بالجبس ، وقد يضيفون إليه التبن .

أما بيوت الفقراء فكانت تدهك جدرانها من الداخل والخارج بالطين المخلوط بالتبن . وكانت الحوائط المبنية من الطوب الأحمر أو الأخضر تربط بأخشاب توضع وضعاً أفقياً كما هو شائع للآن في المباني العادية . كما كانت تدعم بأحجار وأعمدة رومانية ليس فيها شيء من جمال التنسيق . وكان استعمال العقود معروفاً ومتبعاً في فتحات الأبواب والشبابيك والقبوات والمجارير والبيارات .



بعض بقايا دور الفساط

وكان البياض بالجلس ، وكانت الزخرفة الجصية من الفنون الشائعة بمدينة الفسطاط وقد ورثها الإسلام عن المدينة المصرية والمدينة الآشورية بالعراق .

وكان استعمال البلاط المعصراني في الأرضيات ذائعاً في مباني الطبقات الغنية . وكان يركب أحياناً بشكل دالات كالبركية في المباني الحديثة .

وكانت المعدات الصحية منتشرة في كل منزل من منازل الفسطاط ، فكانت المجاري منقورة في الصخر ومسلطة على بيارة تنصرف إليها أيضاً جميع المياه العادمة المتخلفة من المنزل . وكانت هذه البيارات نفسها منقورة في الصخرة تتجمع فيها المياه ثم تكسح .

آبار الفسطاط

وقد حفرت آبار كثيرة في الفسطاط ، وكانت تمتد بمائها الأحواض العليا في المنازل . ولما كانت المدينة مشيدة فوق هضبة صخرية سميكة ، فقد نفرت هذه الآبار في الصخر وتجاوزته إلى الطبقة الرملية حيث المياه الغائرة . ولكن مياه هذه الطبقة كانت مياه أجاج يكثر فيها الملح كما بعدت عن مجرى النيل ، ولذا كانت مياه



هذه الآبار غير صالحة للشرب ، وكانت تستعمل فقط في الاحتياجات المنزلية الأخرى كغسيل الأواني والملابس ، وتغذية الفسقيات وغير ذلك .

أما مياه الشرب فكان يأتي بها السقاؤون من النهر بالقرب ، وتحفظ في أزيار مصنوعة من الفخار كالأزيار المعروفة لدينا الآن أو في صهاريج صغيرة خاصة معدة من قبل في الصخر تحت المنازل ، ثم تسحب منها بالدلاء كلما احتاج الأمر ذلك .

قلنا إن الآبار كانت تمتد بمائها الأحواض العليا في المنازل ، وكانت

ترفع إليها إما بواسطة السواقي أو بواسطة آلات رفع خاصة تدار باليد ، وتشبه إلى حد بعيد طلمبات اليد الحالية . ثم تسير هذه المياه من الأحواض العليا إلى جهات المنزل المختلفة في مواسير من الفخار تربط ببعضها بمونة الجير والقصرمل أو الحجر .

وكان في الحوش بكل دار مهمة فسقية مربعة مبنية بالطوب الأحمر ومبيضة بأشكال هندسية مختلفة . وكان الغرض من هذه الفساق هو ترطيب جو المنزل صيفاً كما نستعمل نحن المراوح الكهربية الآن . فوق أن منظر هذه الفساق وما يحيط بها من الخضرة كان منظرًا جميلاً جذاباً في صحن المنزل .

وكان ببعض المنازل أحواض لغسيل الأيدي مصنوعة من الرخام المتخذ من أعمدة رومانية قديمة .

السقاء

موت الفسطاط

قال المقريزي :

بلغ طول الفسطاط على ضفة النيل اليمنى ثلاثة أميال . وقد فاقت مدينة الفسطاط كل مدن العرب الشهيرة في عهدها ، مثل بغداد ودمشق والبصرة والكوفة في الثروة والترف .

وذكر مؤرخو العرب أنه كان فيها ٣٦٠٠٠ مسجد و ٨٠٠ شارع مسلوكة و ١٧٠ حماماً . ولا شك أن عدد المساجد المذكور هنا مبالغ فيه ، وربما كان المقصود أن كل منزل من منازل المدينة كان به مصلى لصاحب المنزل وضيوفه فحسبت هذه المصلات كمساجد .

وكانت أكثر منازل الأهالي من اللبن تدعمها أعمدة رومانية أو مصرية منقولة من بابلين أو منف لا شيء فيها من الزينة ولا من جمال التنسيق .

وقيل إن بعض المنازل الكبرى كان يسكن فيها حوالي مائتي شخص . وكانت الطبقة الأرضية من المباني لا يسكنها أحد إلا فيما ندر .

وهذا النوع من المساكن يعرف في المدن الإسلامية باسم الربع .

وبعد أن اتسعت الفسطاط وبلغت أقصى مراتب العمار ، جاء دور السقوط فحل بها الخراب لسببين :

السبب الأول : هو « الشدة العظمى » التي حلت بالبلاد المصرية في عهد المستنصر بالله الفاطمي .

والسبب الثاني : هو حريق الفسطاط في عهد وزارة شاور بن مجير السعدي سنة ١١٦٨ م .

أما « الشدة العظمى » فوعدت سنة ٤٤٦ هـ فارتفعت الأسعار بمصر ارتفاعاً فاحشاً ، وتبع ذلك انتشار الوباء في البلاد لمدة سبع سنوات .

وكان السبب الأول في حصول « الشدة العظمى » هو تقصير فيضان النيل لمدة خمس سنوات متتالية ثم توالى القلاقل والثورات الداخلية ، وانصراف الحكومة عن الزراعة . كل هذه الأسباب جعلت الحبوب نادرة جداً ، فبلغ ثمن الإردب الواحد من الحنطة مائة دينار ، فمات الفقراء جوعاً ، وأكل الناس الجيف ، وعم البلاء وانتشر الوباء . وانتهى الأمر باستدعاء بدر أجمالي حاكم سوريا الأرمني الجنس وتوليته الوزارة بمصر . وقبل بدر مشتركاً أن يستبدل جنود مصر بمن يختارهم من الأرمن وأهل الشام . ولما تسلم الحكم سعى في تنشيط الزراعة وأباح الأرض للمزارعين ثلاث سنين حتى تحسنت حال الفلاحين وسهلت سبل التجارة ، وأمر بإنشاء البنايات العظيمة في القاهرة ، وشاد المساجد فيها وفي جزيرة الروضة ، وأعاد سطوة الخليفة السياسية والدينية إلى الديار المصرية بإعادة الأمن إلى نصابه وبالقضاء على عوامل الفساد . وسرعان ما انتشر الرخاء وعادت المياه إلى مجاريها .

ولكن كان من نتائج « الشدة العظمى » أو البؤس الذي حلّ بمصر من جراء ما منى به الخليفة المستنصر بالله الفاطمي الذي حكم من سنة ٤١١ إلى ٤٨٧ هـ لمدة ٧٦ سنة هجرية من ضعف في شخصيته ، وما رزى به من انقسام في جيشه ، ثم جاء النيل فعجل في الطامة الكبرى التي عبر عنها « بالشدة العظمى » . أقول كان من نتائج ذلك أن زاد خراب الفسطاط لأن بدر الجمالي أباح للعسكريين من أرمن وسوريين ولبن هاجر من أهلهم للعيش في مصر تحت ظل هذا الوزير الأرمني ، أن يبنوا ما شاءوا في القاهرة ، فأخذوا في نقل ما كان بمدينة الفسطاط من أنقاض المنازل حتى أتوا على معظم ما هنالك ، وخرّب ما بين القاهرة وبينها من المساكن ، ولم يبق من فسطاط مصر شيء عامر سوى جبل يشكر الذي يقوم عليه جامع ابن طولون إلى يومنا هذا .

هذا هو السبب الأول في خراب الفسطاط .

أما السبب الثاني في خراب هذه المدينة ، فهو الحريق الهائل الذي أمر بإضرامه شاور وزير الخليفة الفاطمي العاضد في ٢٩ من شهر صفر سنة ٥٦٥ هـ (١١٦٨ م) ، لما غزا القائد الصليبي « آموري » مصر ونزل بلبس ، وذلك خوفاً من وقوعها في أيدي الصليبيين واتخاذهم منها معقلاً يهاجمون منه القاهرة .

نادى شاور بأهل الفسطاط ألا يقيم بها أحد ، فهاج الناس واضطربوا وفروا بأولادهم إلى القاهرة والجيزة تاركين أموالهم ومساكنهم وأثقالهم في المدينة البائسة . وبهذه المناسبة بلغ أجر الدابة من الفسطاط إلى القاهرة بضعة عشر ديناراً وكراء الجمل ثلاثين ديناراً . ونزل الناس بالقاهرة في المساجد والحمامات والأزقة وعلى الطرقات ، فانطرحوا عليها مع أولادهم وقد سلبت بقية أموالهم وهم ينتظرون هجوم العدو على القاهرة .

ثم بعث شاور إلى الفسطاط بعشرين ألف قارورة نفض وعشرة آلاف مشعل نار وفرّق ذلك فيها ، فارتفع لهب النار ودخان الحريق إلى السماء فكان منظراً مهولاً . واستمرت النار تأتي على مساكن هذه المدينة من يوم ٢٩ من شهر صفر حتى أتمت ٤٥ يوماً .

ولما انتهى الحريق رحل آموري من بركة الحبش ونزل بظاهر القاهرة مما يلي باب البرقية وقتل أهلها قتلاً عنيفاً ، ثم انتهت الحرب بانسحابه من مصر .

ألا ان الفسطاط كانت قد خربت تماماً . ومع ذلك فلما تقلد شيركوه الوزارة بعد مقتل شاور ، نادى في الناس بالرجوع إلى الفسطاط ، فرجع الناس إليها قليلاً قليلاً وعمروا ما حول الجامع العتيق إلى أن كانت سنة ٥٦٥ هـ في عهد الملك العادل أبي بكر بن أيوب حيث حلت الحنة بالمدينة ثالثاً من الغلاء والوباء ، فخرّب منها جانب كبير .

ولما جاء صلاح الدين إلى مصر سنة ٥٦٧ هـ صم على أن يجمع بين القاهرة وما بقي من الفسطاط بسور واحد

ومن ثم انتقلت حركة التجارة والصناعة إلى ساحل النيل حيث كانت ترسو المراكب وتكثر المخازن والمصانع التي حفظت للفسطاط بعض عمارها .

وفي أيام الناصر بن قلاوون سنة ٦٩٣ هـ ، امتدت المباني بين الفسطاط والقاهرة حتى غدت المدينتان مدينة واحدة .

قال المقرئى : « وفي أيام الناصر اتصلت عمائر مصر (الفسطاط) والقاهرة فصارتا بلداً واحداً يشتمل على البساتين والمناظر والقصور والرباع والقياسر والأسواق والفنادق والخانات » .

إلا أن الفسطاط ظلت في تقهقر إلى أن كانت أيام الظاهر بيبرس سنة ٧٠٨ هـ فصرف الناس همهم إلى هدم ما خلا من المدينة حتى اندثرت وعفى رسمها واضمحلت ما بقي منها وتغيرت معالمه .

وعلى هذه الحال تحولت العاصمة الإسلامية الأولى إلى أكوام من التراب ، وتلال من القاذورات ، لا تزال إلى الآن في جنوب القاهرة الحديثة في انتظار إتمام العمل العظيم الذى بدأه العالم الأثرى الجليل المرحوم على بك بهجت سنة ١٩١٢ الذى كشف معالم هذه المدينة الهائلة وأخرج لعلماء الحفريات والتاريخ ما ظل غامضاً من تاريخها لمدة عصور طويلة .

فهل لنا الآن ، وقد أصبح مشروع إنشاء بلدية القاهرة ضرورة ملموسة ، أن ننظر من المدينة الحديثة إحاطة عاصمة الإسلام الأولى بالرعاية الواجبة لهذه العاصمة المندثرة فتزرع حولها غابات من الأشجار والزهور وتحيطها بحلقات من الحدائق والمتنزهات إجلالاً لذكرى العاصمة القديمة وحفظاً لصحة سكان العاصمة الحالية .

لقد ماتت الفسطاط حرقاً !! ولذا يشبه السباح خرائبها بخرائب مدينة بومبيه الإيطالية التي ماتت هي الأخرى بحرقة تحت حمم بركان فيزوف ويسمونها « بومبيه مصر » .

ويصل السباح اليوم إلى هذه « البومبيه المصرية » عن طريق سكة حديد حلوان ، فينزولون في محطة مار جرجس ، ويمتدقون الأزقة القذرة في هذه المنطقة التي تؤدي إلى خرائب الفسطاط ! وهناك يمرون بين أساسات المنازل التي لم تزل ماثلة فوق الهضبة الصخرية ، وهي إحدى عروق جبل المقطم التي أقيمت فوقها مدينة الفسطاط ، ويشاهدون الآبار المنقورة في الصخر التي طالما شرب منها سكان هذه المدينة المندثرة . ثم يعرجون على المجموعة التي جمعتها دار الآثار العربية من حفائر الفسطاط وتتكوّن من القاشاني المزخرف والأعمدة وشواهد المقابر بكتابات الكوفية الجميلة ، والمسارج القديمة المصنوعة من الفخار الخ الخ وهناك أمل كبير في تكوين متحف الفسطاط من هذه الآثار في الهواء الطلق ! !

على أنه من حق هذه الآثار علينا أن نحث حكومتنا الرشيدة على تمهيد الشوارع والطرق الموصلة إلى آثار الفسطاط وأن نرجو رفع ما هنالك من جيّارات ومقالب وقاذورات ، ثم نشر الدعاية اللازمة لجذب السياح إلى هذه المنطقة أسوة بالآثار المصرية القديمة .

أهم معالم مدينة الفسطاط القديمة وما أصبحت عليه الآن

جامع عمرو بن العاص

جامع عمرو بن العاص أول جامع بني في الديار المصرية بعد فتح العرب . وكان يقع على ضفة النيل الشرقية مباشرة شمالى قصر الشمع ، ثم انحسر عنه ماء النيل شيئاً فشيئاً إلى أن كانت سنة ٣٥٠ هـ حيث استقر النهر في مجراه الحالى تقريباً على بعد نحو اربعمائة متر غرباً .

بناه عمرو بن العاص بأمر أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه لتجمع فيه الجمعة لجيوش المسلمين الظافرة . وقد اختار لبنائه الموضع الذى كان فيه لوائه وصار يعرف باسم مسجد أهل الراية . وكان ذلك الموضع بين بساتين وكروم تلى شاطئ النهر . وقد حل فيه قبل بناء الجامع أبو عبد الرحمن قيسبة بن كلثوم فلما طلبه عمرو منه نزل عنه صدقة للمسلمين .

قلنا إن هذا الجامع بنى على ضفة النيل الشرقية ، وكان النيل ، وقت الفتح العربى لمصر ، يجرى حيث يمتد الآن على وجه التقريب شارع مارجرس وشارع حسن الأنور وشارع السد وما فى امتدادها شمالاً وجنوباً . وبنى عمرو جامع بطول ٥٠ ذراعاً وعرض ٣٠ ذراعاً وفرش أرضه بالحصباء وسقفه بسقف مطأطأ من الجريد حمل على ساريات من جذوع النخيل دون أن يجعل له سحناً ودون أن يجعل أمامه رحبة يستنشق المصلون طلق هوائها ، كما لم يجعل له مئذنة ولا محراباً مجوفاً ولا منبراً بالمعنى الصحيح .

وقد اشترك فى تحرير قبلته نحو الثمانين صحابياً ممن حضروا الفتح ، ومع ذلك فقد جاءت تلك القبلة منحرفة نحو الشرق أكثر مما يجب . وفتح للجامع فى كل من جوانبه الثلاثة الشرقى والبحرى والغربى بابان .

ثم بنى عمرو لنفسه داراً شرقى الجامع سميت « دار عمرو الكبرى » تجاورها من بحريها دار ثانية لابنه عبد الله سميت « دار عمرو الصغرى » وبنى الزبير بن العوام داراً ثالثة . وأحيط الجامع من جهاته الأربع بطريق كان عرض جزئه الشرقى سبعة أذرع .

وبقى الجامع على هذا الحال إلى أن قدم مسامة بن مخلد والياً على مصر سنة ٤٧ هـ (٦٦٧ م) من قبل معاوية أول خلفاء بنى أمية فوسعه سنة ٥٣ هـ (٦٧٢ - ٦٧٣ م) من الجهة البحرية وجعل له رحبة أمامه من هذه الناحية وبيضه وزخرفه وفرش أرضه بالحصر لأول مرة بدلاً من الحصباء . وبنى أربع صوامع فوق أركانه الأربعة بشكل أبراج مربعة ونقش اسمه عليها وجعل الوصول إليها من مراق خارج الجامع . وهذه الصوامع كانت أول

نماذج للمآذن في مصر . ثم تطورت هذه المآذن وتهدبت واقتبس لها كثير من تفاصيل منار الأسكندرية القديم حتى بلغت من الرشاقة والجمال ما نشاهده عليها الآن .

ولما ولي مصر عبد العزيز بن مروان من قبل أخيه عبد الملك بن مروان سنة ٧٩ هـ (٦٩٨ م) وسع الجامع من الناحية الغربية ، كما أدخل فيه الرحبة التي أنشأها مسلمة في الجهة البحرية ولم يستطع الزيادة فيه من شرقيه لضيق الطريق .

وفي سنة ٨٩ هـ (٧٠٨ م) أمر الوالي عبد الله بن عبد الملك بتعليمة سقفه وقال أبو عمرو السكندی إن عبد العزيز زاد فيه من جوانبه كلها .

وفي سنة ٩٠ هـ (٧٠٨ - ٧٠٩ م) قدم مصر الأمير قرة بن شريك والياً عليها من قبل الخليفة الوليد بن عبد الملك ، فهدم الجامع في أول سنة ٩٢ هـ (٧١٠ - ٧١١ م) وبدأ في بنائه في شعبان من السنة المذكورة (مايو سنة ٧١١ م) وفرغ منه في رمضان سنة ٩٣ هـ (يونيو سنة ٧١٢ م) ووسعه لأول مرة من الجهة القبليّة للمرة الثانية من الجهة الشرقية حيث أدخل في مسطحه باقي الطريق وجزءاً من دار عمرو ودار ابنه عبد الله .

وقد أحدث فيه ابن شريك الحراب المجوف المقتبس من التجويغات الموجودة في هياكل الكنائس المصرية السابقة على الإسلام ونصب فيه منبراً خشبياً جديداً سنة ٩٢ هـ على مثال ما رآه في كنائس القبط . وأحدث فيه المقصورة .



جزء من معبد الاقصر حول إلى كنيسة في صدر المسيحية . ولا شك أن الحراب المجوف في العمارة الاسلامية مقتبس من هذا الشكل .

ثم صحح اتجاه القبلة الأولى ، وحينذاك صار للجامع أربعة أبواب في جداره الشرقى ومثلها في جداره الغربى وثلاثة في الجدار البحرى . وقد أمر قرة بن شريك بتذهيب تيجان أربعة أعمدة من أعمدة الجامع اثنان منها أمام الحراب في صف الأعمدة المقابل له وإثنان آخران في الصف الذى يليه .

وهذه أول مرة استعملت فيها الأعمدة الرخامية بالجامع كما أن التذهيب كان أول نوع من الزخرف الثمين الذى عمل به . وبالطبع كانت هذه الأعمدة الرخامية منقولة من الكنائس القبطية القديمة ومن المعابد المصرية بمنف وعين شمس .

ولما شاخت الدولة الأموية وخلفتها الدولة العباسية ، وأصبح صالح بن علي والياً على مصر من قبل العباسيين ، أسس مدينة العسكر وجامعها ودار أمانة ثانية بدلا من دار الأمانة الأموية التي كانت بالفسطاط ثم زاد في جامع عمرو سنة ١٣٣ هـ (٧٥٠ - ٧٥١ م) أربعة أساطين ، وعمّر إيوان الحراب ومقدم الجامع عند الباب الأول القبلي ، وقد ساعدت هذه الزيادات على فتح باب جديد بالجدار الشرقي سمي « باب الكحل » لمقابلته لزقاق الكحل وهو الباب الأخير البحري من الجهة الشرقية فصار عدد أبواب هذا الجانب خمسة أبواب .

وفي سنة ١٧٥ هـ (٧٩١ م) زاد فيه موسى بن عيسى أمير مصر من قبل الخليفة الرشيد من الناحية البحرية حيث أدخل فيه نصف رحبة أبي أيوب . وفي سنة ٢١٢ هـ (٨٢٧ م) أمر عبد الله بن طاهر والي مصر من قبل الخليفة المأمون بتوسيع الجامع فأضاف إلى أرضه مثلها من الجهة الغربية ونتج عن ذلك التوسيع أخذ النصف الغربي الباقي من رحبة أبي أيوب ، وبلغ طول الجامع إذ ذاك ١٦٠ ذراعاً وعرضه ١٥٠ ذراعاً .

وفي صفر سنة ٢٧٥ هـ (يوليو سنة ٨٨٨ م) حدث حريق بالجامع التهم أكثر زيادة عبد الله بن طاهر فأمر خارويه بن أحمد بن طولون صاحب مصر إذ ذاك بعمارته على يد أحمد بن محمد العجيفي . فتمت هذه العماره في السنة نفسها ومن جملتها تزويق أكثر أعمدة الجامع .

وفي عصر الأخشيدي سنة ٣٢٢ هـ استعاد جامع عمرو الذي عرف إذ ذاك باسم الجامع العتيق أهميته الأولى . وفي سنة ٣٣٦ هـ (٩٤٨) في عهد أنوجور بن الأخشيدي أنشأ أبو حفص عمر القاضي العباسي غرفة للعوذنين بالسطح . وفي عصر الدولة الفاطمية أقيمت بهذا الجامع عمارات كثيرة ، فعملت فيه الفوارة سنة ٣٧٨ هـ (٩٨٨) بأمر العزيز بالله الفاطمي .

وفي سنة ٣٨٧ هـ (٩٩٧ م) أمر الحاكم بأمر الله وزيره برجوان ، الذي بقى اسمه في اسم حارة برجوان المعروفة الآن بقسم الجمالية ، بإصلاح الجامع فجدد بياضه وأصلحه .

وفي رمضان سنة ٤٠٣ هـ (١٠١٣ م) أمر هذا الخليفة بإزالة ١٢٩٨ مصحفاً من القصر الكبير ليتمكن الجمهور من القراءة فيها . وكذلك أخرج تنوراً فضياً برسم الجامع به ما قيمته ٢٠٠ ألف درهم من الفضة ، وكان من الكبر بحيث لم يتيسر إدخاله من باب الجامع إلا بعد هدم مصاطبه وعتباته . ثم أضاف للجامع رواقين في صحنه . وفي سنة ٤٥٠ هـ (١٠٥٨ م) بنيت المئذنة التي بين مئذنة عرفة وبين المئذنة الكبيرة . وقد هدمت هذه المئذنة في وقت غير معلوم .

ولما حرقت مدينة الفسطاط سنة ٥٦٤ هـ (١١٦٨ م) تشعث هذا الجامع ، فلما تولى السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبي ملك مصر سنة ٥٦٨ هـ (١١٧٥ م) جدده ورخه وأزال تشعثه وجلا عمده . ثم عمره الملك الظاهر بيبرس سنة ٦٦٦ هـ (١٢٦٧ م) .

وفي سنة ٦٨٧ هـ (١٢٨٨ م) عمره السلطان المنصور قلاوون .

ولما حدث الزلزال سنة ٧٠٢ هـ (١٣٠٣ م) تشعث الجامع وانفصلت أعمدته بعضها عن بعض فجدهه الملك الناصر محمد بن قلاوون .

وبعد نحو مائة عام تضعع الجامع وتداعى للسقوط فعمره الرئيس برهان الدين المحلي رئيس تجار مصر سنة ٨٠٤ هـ (١٤٠٢ م) .

ثم عمره الملك الأشرف قايتباي سنة ٨٧٦ هـ (١٤٧١ م)

ثم عمره الأمير مراد بك محمد المدفون بسوهاج وصليت فيه الجمعة في آخر رمضان سنة ١٢١٢ هـ (١٧٩٧ م) . ثم حصل فيه ترميم وإصلاح بدون تغيير شيء من حدوده في عهد الأسرة العلوية الكريمة .

وذكر في خطط علي باشا مبارك « أن جدرانه هي التي كانت عليها سنة ١٢١٢ هـ (١٧٩٧ م) وأن الفرنسيين قاسوه زمن استيلائهم على مصر فوجدوا ضلعه ١٢٠ متراً » .

وفي حوادث سنة ١٢١٢ هـ من تاريخ الجبوتي ، أن مراد بك ، لما رأى أن الجامع تخرب ، أقام أركانه وشيده ونصب أعمدته وبنى فيه منارتين وجدد جميع سقفه وفرشه وصليت فيه الجمعة بمحفل حافل .

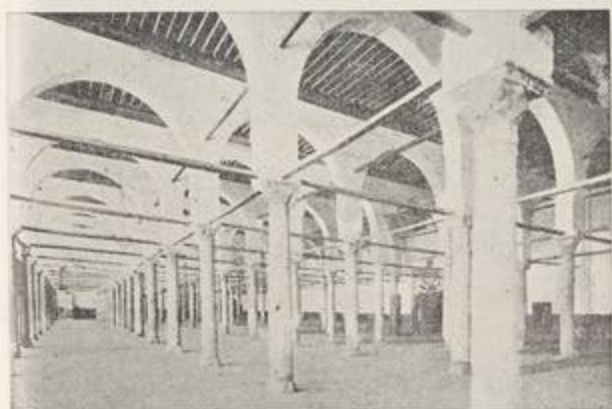
وكان يعقد في الجامع العتيق اجتماع في آخر جمعة من رمضان تدور فيه أنواع اللهو ، فبطل ذلك من هذا العهد وأصبح أمراء مصر يؤدون فيه صلاة الجمعة اليتيمة في كل عام .

وفي سنة ١٩٠٦ عنت لجنة حفظ الآثار العربية بهذا الأثر ورمته .

وفي سنة ١٩٢٦ عملت مسابقة عامة لوضع تصميم يطابق حالته في العهد الذي بلغ فيه مجده ونخامته ، فقدم المتسابقون سبعة مشروعات فصل فيها سنة ١٩٢٧ .

وفي سنة ١٩٣٠ اعتمدت لجنة حفظ الآثار العربية مبلغ ٤٠٠٠٠ جنيه لإصلاح الإيوان الكبير « إيوان المحراب » إصلاحاً شاملاً مع تقوية جدران الأجزاء الأخرى من الجامع ، وقد تم هذا العمل .

وفي أثناء هذه العملية كشفت أبواب الجامع الشرقية الخمسة ، وباب غرفة الخطيب على يمين المحراب الكبير ، وثلاثة من أبوابه الأربعة



جامع عمرو بن العاص من الداخل .
أروقة المحراب كما هي الآن .

بالجنب الغربى ، ولم يبق من أبواب الجامع بدون كشف سوى باب رابع بهذا الجنب يعرف باسم «باب سوق الغزل» . وكذلك تم الكشف على شبائيك قديمة للجامع محلاة بزخارف من الخشب ترجع إلى العصر الفاطمى . وتبلغ مساحة هذا الجامع الآن ١٣٢٠٠ متراً مربعاً تقريباً ، وهو مكون من صحن مكشوف تحيط به أربعة أروقة . ولا يزال هذا الجامع العتيق قبلة أنظار كل ملوك مصر . وقد وجه الملك الراحل فؤاد الأول رحمه الله ، عنايته لهذا الجامع فأمر بإصلاحه وترميمه بحيث يبقى على شكله المعروف به منذ أقدم العصور التاريخية حتى الآن . وتابعه في هذا العمل الجليل شبله العظيم مولانا الملك فاروق الأول أدامه الله وأبقاه .

وتحيط الآن بالجامع من الجهة الشمالية مقابر للمسلمين ، ومن الجهة القبلىة موائد (فواخير) لعمل الأوانى من الفخار ، ومن الجهة الشرقية مدايق ، ومن الجهة الغربية مقابر للمسيحيين ، وتهب على المصلين فى المسجد روائح كريهة مما يحوطه من جميع نواحيه .

ويروغ داخله اتساعه كما يروغ تهرمه بمضى الزمان عليه ، فقد ذهبت كل أعمدته الجانبية وتكاد جدرانته تهدم من فعل السنين . فقد مضى على تأسيس الجامع الأسمى فى هذا المكان ١٣٤١ سنة هجرية . وخليق ببلدية القاهرة ، عند إنشائها قريباً إن شاء الله ، أن تأمر بوقف الدفن فى المقابر المحيطة بهذا الجامع ، وتحولها بالتدريج إلى متنزهات وحدائق .

خليق بها أن تأمر بنقل الفواخير والمدايق المحيطة بأول جامع أنشئ بمصر الإسلامية إلى جهة أخرى . ويا حبذا لو قررت إدارة المعاهد الدينية إنشاء كلية من كليات الجامعة الأزهرية فى هذا الجامع الذى طالما درس فيه العلماء الأجلاء وطالما علم فيه الإمام الشافعى .

وبهذا يعود للجامع العتيق الأثرى العظيم مكانته وصفته الجامعية القديمة

خليج أمبر المؤمنين

رغبة فى سرعة الاتصال ببلاد العرب اهتم عمرو بن العاص باعادة حفر القناة القديمة التى كانت توصل النيل بالبحر الأحمر ، والتى كانت تعرف قبل الفتح باسم خليج تراچان .

وكان خليج تراچان هذا يخرج من النيل إلى شمال بايلون بقليل . وكان فمه وقت فتح العرب لمصر واقعاً بشارع الخليج المصرى فى حذاء مدخل شارع بنى الأزرق بأرض جنينة لاظ الواقعة فى الجهة الغربية من جامع السيدة زينب بالقاهرة . وكان النيل فى ذلك الوقت يجرى فى المكان الذى فيه اليوم شارع بنى الأزرق وما فى امتداده جنوباً إلى قصر الشمع وما فى امتداده شمالاً إلى قرية أم دين .

قلنا كان هذا الخليج يخرج من النيل فى هذا المكان فيمر بمدينة عين شمس ثم يسير فى وادى الطميلات إلى موضع بلدة القنطرة الحالية ثم ينحدر جنوباً حتى يتصل بالبحر الأحمر عند القلزم . وقد أهمل الروم أمره حتى سده الطين .

وكان أقدم عهداً من حكم تراجان وإنما سمي باسمه لأنه أعاد حفره وأصلحه كما فعل عمرو بن العاص في عصر الفتح العربي .

وقد سبق لنا دراسة تطورات هذا الخليج في الجزء الأول من هذا الكتاب (ص ١٨٧) فظهر أن فكرة إنشائه ترجع في الأصل إلى انسحاب النيل المستمر إلى جهة الغرب مما هدد بالعطش العواصم القديمة التي كانت تقع على الضفة الشرقية للنهر مباشرة مثل عين شمس . فرأى المصريون - علاجاً لهذه الحالة - إنشاء قناة مكان الجرى القديم للنهر لتوصيل مياه النيل العذبة إلى هذه المدن ، ثم نقلوا فم هذه القناة إلى الغرب كلما أمعن النهر في انسحابه غرباً .

وفي العصور التالية امتد هذا الخليج حتى اتصل بمكان ترعة الملوك القديمة (راجع تطورات هذه الترعَة بكتاب منطقة قنال السويس من ص ١٢٣ إلى ص ١٣٤) .

وقد قامت الملكة حاتشبسوت في عهد الأسرة الثامنة عشرة المصرية من سنة (١٥٨٠ - ١٠٨٥) ق . م . بتسيير سفنها العظيمة إلى بلاد البونت (الأترتيا وبلاد الحبشة الحالية) في أثناء حملة مصرية حربية على هذه البلاد لاستغلال الذهب والبخور وشن الفيل منها . فسارت السفن المصرية من طيبة (الأقصر والكرنك) شمالاً في النيل ثم انحرفت في سيرها وتابعت القناة التي حفرها ملوك مصر في الدولة الوسطى بين النيل والبحر الأحمر مخترة وادي الطميلات في شرق الدلتا .

ويرجع تاريخ حفر هذه القناة إلى ملوك الدولة المصرية الوسطى ، حفرها الملك سنوسرت الثالث من ملوك الأسرة ١٢ الذي حكم من سنة ١٨٨٧ إلى سنة ١٨٤٩ ق . م . وهو الذي أطلق عليه اليونان اسم سيزوستريس لعظمة مشروعاته . وهكذا اتصل النيل بالبحر الأحمر لأول مرة في التاريخ .

وقد أصلحت هذه القناة ونقل فمها في عهد بطليموس الثاني فيلادلفوس الذي جعلها تنفصل من النيل عند فاغوس بعد أن كانت تنفصل عند بوسطة . ثم أصلحت مرة أخرى في عهد تراجان . وكان فمها إذ ذاك قد أصبح إلى شمال بابيلون كما قلنا سابقاً .

ولسنا نعرف الوقت الذي حفر فيه جزء هذه القناة الذي بين بوسطة وبابيلون . على أن هذه الترعَة لم تكن ذات غناء كبير ، لأن الماء لم يكن يجري فيها إلا عند فيض النيل . ولما أهمل أمرها أصبحت من بعد القرن الثاني للميلاد غير صالحة لسير السفن . وكان لا بد للرمل أن يسدها بالسقوط فيها إذا ما قل تعهدها والاعتناء بأمرها .

وقيل إنها كانت في عصر الفتح العربي خفية الأثر حتى احتاج عمرو إلى من يدلّه على موضعها من القبط فأجازه برفع الجزية عنه . ولكن سرعة حفرها وإعادةها إلى الصلاح تدلنا على أن بعض مجراها الذي طوله تسعون ميلاً كان لا يزال صالحاً . على أن مثل ذلك الإسراع لم يكن عجيباً إذ كان يعمل فيها عدد عظيم من أهل البلاد ،

يساقون إلى ذلك كأنهم أرقاء ، يسوقهم من ورائهم مقدمون وخول على ما جرت به سنة أهل مصر منذ أقدم الأزمان . ويلوح لنا أن العرب لجأوا إلى هذه السخرة بشدة لم تعهد من قبل حتى لقد وصفهم (حنا النقيوسى) وصفاً شديداً وتناولهم بالقول القاذع فقال :

« وكان نيرهم على أهل مصر أشد وطأة من نير فرعون على بنى إسرائيل . ولقد انتقم الله منه انتقاماً عادلاً بأن أغرقه في البحر الأحمر بعد أن أرسل صنوف بلائه على الناس والحيوان . ونسأل الله إذا ما حل حسابه لهؤلاء المسلمين أن يأخذهم بما أخذ به فرعون من قبل » .

ولكن الظاهر أن هذه الشدة إنما جاءت عفواً في وقت الفتح . ولم تكن صفة ثابتة لحكومة عمرو في مصر . وقيل إن عمراً كان ينوى حفر خليج بين بحيرة التمساح والبحر الأبيض المتوسط ، فيكون بذلك قد قطع البرزخ بين البحرين كما هو اليوم . ولكن عمر بن الخطاب أبى عليه ذلك وأنكره قائلاً إنه يمكن الروم من السير إلى البحر الأحمر وقطع السبيل على من أراد الحج .

أعاد إذن عمرو وفتح خليج تراجان ، وسماه خليج أمير المؤمنين (يعنى عمر بن الخطاب) ، وفرغ من ذلك في ستة أشهر ، وجرت فيه السفن ووصلت إلى الحجاز في الشهر السابع محملة بالغلل والبضائع وأنواع الطعام لأهل الحرمين .



الخليج المصرى كما كان سنة ١٨٧٠

وما زال خليج أمير المؤمنين ينتفع به حتى زمن عمر بن عبد العزيز سنة ٧٢٣ م ، ثم أهملته الولاية وترك ، فغلب عليه الرمل وانقطع وصار منتهاه إلى دنب التمساح من ناحية بطحاء القلزم أى عند بحيرة التمساح الحالية .

وقيل إن أبا جعفر المنصور أمر بردم هذا الجزء سنة ٧٣٥ م ، حين خرج عليه محمد بن عبد الله بن حسن بالمدينة ليقطع عنه الطعام . وكان قد قضى على حفره حوالى ٩٢ عاماً فقط بواسطة عمرو بن العاص .

وبعد هذا التاريخ ظل الجزء الأول من الخليج موجوداً واستعمل في تغذية مدينة القاهرة بمياه الشرب بطريقة الصهاريج الكبيرة تبنى تحت أرض المنازل وتخزن فيها المياه أيام الفيضان وتستعمل مياهها بعد ذلك طول العام .

واستعمل الخليج في العصر التركي وعصر محمد علي لرى أراضى الشرقية والقليوبية تحت أسماء مختلفة .
ففي العصر العربى عرف هذا الخليج باسم « خليج أمير المؤمنين » . وبعد إنشاء مدينة القاهرة عرف باسم
« خليج القاهرة » . وبعد وفاة الحاكم بأمر الله الفاطمى أطلق عليه اسم « خليج الحاكمى » بدعوى أن الحاكم
هو الذى حفره . ثم سمي أيضاً « خليج اللؤلؤة » نسبة إلى قصر اللؤلؤة الذى كان قائماً في العصر الفاطمى في المكان
الموجود به الآن مدرسة الفرير بالخرنفش ، وكان يطل على الخليج وكان متنزها للخلفاء الفاطميين . وسمى أيضاً
« خليج مصر » أو « الخليج المصرى » .

وكان الخليج المصرى يسير قليلاً إلى الشرق ثم ينعطف إلى الشمال حتى نهاية مدينة القاهرة ، ثم يمر في الأراضى
الزراعية إلى أن يلتقى بالترعة الاسماعيليه عند العباسية بمديرية الشرقية ، ثم يسير الخليج شرقاً إلى مدينة الاسماعيليه
ومنها إلى السويس حيث البحر الأحمر .

وفي سنة ١٨٩٩ تم ردم الجزء الواقع من الخليج داخل مدينة القاهرة وحل محله الآن شارع الخليج المصرى
الذى سنتكلم عنه في مكان آخر .

دار الصناعة

كان لبناء المراكب عدة دور ينشأ فيها الأسطول والسفن الأخرى الخاصة بأعمال الدولة ويسمونها دور الصناعة .
فأول دار للصناعة أنشئت بالفسطاط كان مقرها جزيرة الروضة على ساحلها الجنوبي الشرقى .
قال الكندى إنها أنشئت سنة ٥٤ هـ (٦٧٣ م) وكانت تبنى فيها السفن حتى أيام ابن طولون . وقد
أحرق في سنة ٣٢٣ هـ (٩٣٤ م) ، أحرقها أسطول محمد بن طنجج الأخشيدى . فلما ولي الملك ورأى أن وجود دار
الصناعة على شاطئ الروضة خطر على الفسطاط نقلها إليها في سنة ٣٢٥ هـ (٩٣٦ م) وأقامها مكان بستان الطواشى
قال المقرزى :

« إن البستان الذى قامت على أرضه دار الصناعة هو بستان الطواشى ، وهو في أول مراغة مصر حذاء غيظ
الجرف على يسار الذهاب من المراغة إلى باب مصر » .

ولما كان ساحل النيل في ذلك الوقت ينتهى إلى الطريق الذى يمر فيه اليوم شارع الديورة شرق فم الخليج
حيث كان النيل يجرى في عهد الدولة الأخشيدية تحت ذلك الشارع ، فلا بد أن يكون مكان هذه الدار في المنطقة
الواقعة هناك إلى جنوب مجرى العيون والمعروفة الآن باسم عيش الجيارة .

على أنه يظهر أن دار الصناعة في عهد الأخشيديين لم تنقل بأكملها إلى الشاطئ الأيمن للنيل بل بقى بعضها
في جزيرة الروضة يبنى بها الأسطول ، بدليل اتفاق المؤرخين على القول بأنه كان هناك داران للصناعة في عهد
الفاطميين إحداها في الروضة والأخرى في الفسطاط .

وبدليل ما ذكره التاريخ من أن الظاهر بيبرس أنشأ في الروضة أسطولاً ليعوض به ما دمره له الصليبيون في معركة جزيرة قبرص .

وفي أول حكم الدولة الفاطمية أنشئت دار للصناعة بالمقس حيث كان النيل يجري مكان ميدان محطة مصر الحالى بجوار جامع أولاد عنان ، فأصبح عدد الدور التى تنشأ فيها مراكب الدولة فى عهد الفاطميين ثلاثاً . وكانت دار الصناعة بالفسطاط منذ إنشائها فى سنة ٣٢٥ هـ (٩٣٦ م) أكبر هذه الدور وأكثرها إنتاجاً .

ولما طرح البحر وتكونت أرض جديدة بين شارع الديورة وساحل النيل الحالى بقم الخليج ، نقلت دار الصناعة إلى ساحل مصر تجاه دار النحاس (دير النحاس) واستقرت بها مدة طويلة إلى أن نقلت إلى ساحل بولاق فى عهد محمد على باشا الكبير باسم الترسانة . ولم تزل فى ساحل بولاق إلى اليوم وتعرف باسم إدارة الورش الأميرية ، وهى من الادارات التابعة لمصلحة الميكانيكا والكهرباء بوزارة الأشغال العمومية .

ميناء الفسطاط :

لم يمض زمن طويل على تأسيس الفسطاط ، حتى غدت ميناء عظيمة على النيل ، بل أعظم ميناء فى مصر كلها . استمرت فيها حركة الوارد والصادر حتى فى الأيام التى زاحتها القاهرة فأربت عليها . وفى أواخر أيام الأيوبيين زارها ابن سعيد المغربى ، فاندش من حركتها حيث يقول : « ثم انفصلنا من هنالك (يعنى نزل بميناء الفسطاط) إلى ساحل النيل ، فرأيت ساحلاً كدر التربة غير نظيف ، ولا متسع الساحة ، ولا مستقيم الاستطالة ، ولا عليه سور أبيض ، إلا أنه مع ذلك كثير العارة بالمراكب وأنصاف الأرزاق التى تصل من جميع أقطار الأرض والنيل . ولئن قلت إنى لم أبصر على نهر ما أبصرته على ذلك الساحل فانى أقول حقاً . والنيل هنالك ضيق ، لكون الجزيرة التى بنى فيها سلطان الديار المصرية الآن قلعته ، قد توسطت للماء ومالت إلى جهة الفسطاط . وبحسن سورها المبيض الشامخ ، حسن منظر الفرجة فى ذلك الساحل . . . إلى أن قال :

أما ما يرد على الفسطاط من متاجر البحر الاسكندراني ، والبحر الحجازى فانه فوق ما يوصف . وبها مجمع ذلك لا بالقاهرة ومنها تجهز إلى القاهرة وسائر البلاد . . . » .

وغنى عن البيان أن الجزيرة التى ذكرها ابن سعيد فى الجملة الأولى إنما يقصد بها جزيرة الروضة التى بنى بها السلطان الصالح أيوب قلعة لجيوشه من المالك البحرية .

ومن عبارات المؤرخين يعلم أن المراكب كانت ترسو فى الميناء فى أماكن معينة لها حسب شحنتها . فمثلاً المراكب المشحونة بالحبوب كانت ترسو فى موردة الحلقاء من الساحل . والمراكب المشحونة بالأخشاب كانت

ترسو في الناحية المخصصة لبناء المراكب أو لأشغال النجارة . ومراكب الصيد كانت ترسو في موردة السمك التي كانت تعرف غالباً باسم ساحل البورى . والبورى نوع معروف من السمك .

القرافة :

كان لا بد لمدينة الفسطاط فوق مسجدها ومنازلها وحماماتها أن يكون لها مقبرة . وقد جعلت بأرض المقوقس عند سفح الجبل . ودفن فيها عمرو بن العاص وأربعة من الصحابة . وكانت تمتد فيما بين مصلى خولان إلى المعافر . وخصص في جنوب هذه المقبرة جهة لدفن موتى الأقباط . وظلت مستعملة حتى العصر الفاطمي حيث أخذ الخلفاء الفاطميون يدفنون موتاهم في تربة الزعفران من القصر الكبير ومكانها الآن خان الخليلي . أما الشعب فأبى نقل مقابرهم من مكانها وظل يدفن موتاه في جبانة الفسطاط .

ولما اضمحلت الفسطاط بعد تأسيس مدينة القاهرة كانت حدود المقابر تمتد حتى طغت على مساكن خطة المعافر التي خلت من ساكنيها وعلى مساكن خطة بني قرافة التي هي فرع من الأولى . ومن هنا أطلق اسم القرافة على المدافن بتلك الجهة أولاً ، ثم عم سائر المدافن . وعرفت باسم القرافة الكبرى .

وفي عهد الأيوبيين ، أنشئت حول تربة الإمام الشافعي ، جملة قبور أطلق على مجموعها اسم القرافة الصغرى ، وقل الدفن في القرافة الكبرى ، إلى أن عاد إليها على أيام الناصر بن قلاوون .

وبعد سنة ٧٠٠ هـ (١٣٠٠ م) أخذوا يدفنون الموتى تحت المقطم فيما يلي قلعة الجبل . وبعدئذ انتشرت القرافات في شرق القاهرة وفي شمالها .

خندق القرافة :

وفي القرن الأول للهجرة حفر حول القرافة خندق وذلك لأن عامل ابن الزبير على مصر ، لما خشى أن يأخذه مروان على غرة في عاصمة ولايته ، أمر في سنة ٦٥ هـ بحفر على الفسطاط خندق .

وكان هذا الخندق يبتدىء من المكان الذي دفن فيه فيما بعد الإمام الشافعي ويخترق أرض القرافة إلى بركة الحبش . وفي سنة ٢٠٠ هـ (٨١٥ م) كان هذا الخندق قد طمى ، فأعيد حفره عند وقوع الشقاق بين الأمين والمأمون ولدى الرشيد .

وقد ذكر ابن زولاق أن هذا الخندق جدد حفره على يد جوهر القائد سنة ٣٦٠ هـ (٩٧٠ م) خشية من القرامطة الذين كانوا يكثرون الغارة على مصر .

هذه هي أهم معالم الفسطاط القديمة وما أصبحت عليه الآن .

الفصل السابع

مدينة العسكر

فلما إن رجال العباسيين لم يرضوا بالسكنى في الفسطاط بعد أن عبثوا بالمدينة ونهبوا مساكنها وقتكوا بأهلها بل قرروا إنشاء عاصمة أخرى جديدة لدولتهم في مصر .

وكانت الفكرة في إنشاء العاصمة الجديدة هي أولا السعى وراء الهواء النقي جهة الشمال وثانيا الإشراف من فوق مرتفعات زين العابدين الحالية على مدينة الفسطاط وثالثاً متابعة تنقلات رأس الدلتا من الجنوب إلى الشمال حتى تسهل دائماً السيطرة على مدن الوجهين القبلي والبحري وسرعة التمكن من إرسال الجنود في أفرع النيل المختلفة إلى أى جهة من هذه البلاد .

صدر الأمر إذن إلى صالح بن على الوالى الجديد على مصر عن قبل العباسيين بالتخلي عن دار الأمانة بالفسطاط وبناء الحاضرة الجديدة لدولة العباسيين بمصر ، فأقامها حيث كان معسكره إلى الشمال الشرقى من مدينة الفسطاط في مكان عرف في صدر الإسلام باسم الحمراء .

وقد نزلت به ثلاث قبائل عقب الفتح الإسلامى وهى بنو الأزرق وبنو ربيل من قبائل الروم واليهود الذين اعتنقوا الإسلام وحاربوا مع جيوش عمرو وبنو يشكر بن جديله وهى من قبائل العرب التى سمى جبل يشكر حيث يقوم جامع ابن طولون الآن باسمها . ثم دثرت خطط هذه القبائل بعد العمارة وصارت صحراء وأصبح مكانها قفراً .
في هذا المكان بنيت مدينة العسكر سنة ١٣٣ هـ أو سنة ٧٥٠ م .

قال ابن عبد الحكم : « أصل العسكر المعسكر » .

وكان العسكر يحده جنوباً كوم الجراح حيث تمتد الآن حائط الجرى (العيون) ، وشمالاً خط بعضه شارع الخليج المصرى وبعضه ميدان السيدة زينب وبعضه شارع مراسينا إلى جامع الجاولى ، وشرقاً خط يبدأ بجوار الجامع الجاولى ويمر بشارع الأشرف إلى السيدة نفيسة ، وغرباً شارع الخليج المصرى من قنطرة السد أمام دير مار مينا بميدان الطيبي إلى جنينة لاذ .

في هذا المكان أقام العباسيون عاصمتهم وبنى صالح بن على دار الأمانة وتكنيات الجنود ثم بنى الفضل بن صالح ابن على مسجد العساكر كما ذكر المقرئى .

ولم تمض سنة واحدة حتى انتشر العمار في العسكر ، وبعد قليل اتصلت العسكر بالفسطاط وأصبحت مدينة كبيرة فيها الشوارع والدور والبساتين والأسواق .

وظلت العسكر عاصمة الديار المصرية لمدة ١١٨ سنة من سنة ٥٧٠ م إلى ٨٦٨ م وحكم بها الخمسة والستون والياً المدينة أسماؤهم بعد من قبل الخلفاء العباسيين ببغداد وهم :

٤٧	٢٤ -	الأمير موسى بن عيسى (ثانياً) سنة ١٧٥ هـ	١ -	الأمير صالح بن علي سنة ١٣٣ هـ
٤٨	٢٥ -	ابراهيم بن صالح » » ١٧٦ هـ	٢ -	» أبو عون » ١٣٧ هـ
٤٩	٢٦ -	عبد الله بن المسيب » ١٧٦ هـ	٣ -	» موسى بن كعب » ١٤١ هـ
٥٠	٢٧ -	اسحاق بن سليمان » ١٧٧ هـ	٤ -	» محمد بن الاشعث » ١٤١ هـ
٥١	٢٨ -	هرثمة بن أعين » ١٧٨ هـ	٥ -	» حميد بن قحطبة » ١٤٣ هـ
٥٢	٢٩ -	عبد الملك بن صالح » ١٧٨ هـ	٦ -	» يزيد بن حاتم » ١٤٤ هـ
٥٣	٣٠ -	عبد الله بن المهدي » ١٧٩ هـ	٧ -	» عبد الله بن عبدالرحمن » ١٥٢ هـ
٥٤	٣١ -	موسى بن عيسى (ثالثاً) » ١٧٩ هـ	٨ -	» محمد بن عبد الرحمن » ١٥٥ هـ
٥٥	٣٢ -	عبد الله بن المهدي (ثانياً) » ١٨٠ هـ	٩ -	» موسى بن علي » ١٥٥ هـ
٥٦	٣٣ -	إسماعيل بن صالح » ١٨١ هـ	١٠ -	» عيسى بن لقمان » ١٦١ هـ
٥٧	٣٤ -	إسماعيل بن موسى » ١٨٢ هـ	١١ -	» واضح المنصوري » ١٦٢ هـ
٥٨	٣٥ -	الليث بن فضل » ١٨٢ هـ	١٢ -	» منصور بن يزيد » ١٦٢ هـ
٥٩	٣٦ -	أحمد بن إسماعيل » ١٨٧ هـ	١٣ -	» يحيى بن داود » ١٦٢ هـ
٦٠	٣٧ -	عبد الله بن محمد العباسي » ١٨٩ هـ	١٤ -	» سالم بن سواده » ١٦٤ هـ
وما	٣٨ -	الحسين بن جميل » ١٩٠ هـ	١٥ -	» ابراهيم بن صالح » ١٦٥ هـ
الأسماء	٣٩ -	مالك بن دلم » ١٩٢ هـ	١٦ -	» موسى بن مصعب » ١٦٧ هـ
(١٣٣)	٤٠ -	الحسن بن البجباح » ١٩٣ هـ	١٧ -	» عسامة بن عمر » ١٦٨ هـ
وقد	٤١ -	حاتم بن هرثمة » ١٩٤ هـ	١٨ -	» الفضل بن صالح » ١٦٩ هـ
القبلة الم	٤٢ -	جابر بن الاشعث » ١٩٥ هـ	١٩ -	» علي بن سليمان » ١٦٩ هـ
صلاح ا	٤٣ -	عياد بن محمد » ١٩٦ هـ	٢٠ -	» موسى بن عيسى » ١٧١ هـ
ومسجد	٤٤ -	المطلب بن عبد الله » ١٩٧ هـ	٢١ -	» مسامة بن يحيى » ١٧٢ هـ
ولم	٤٥ -	العباس بن موسى » ١٩٧ هـ	٢٢ -	» محمد بن زهير » ١٧٣ هـ
التهابا في	٤٦ -	المطلب بن عبد الله (ثانياً) » ١٩٩ هـ	٢٣ -	» داود بن يزيد » ١٧٤ هـ
وهو أو				
والعنف				
فأقام ا				

٥٧	— الأمير السري بن الحكم	سنة ٢٠٠ هـ	٦١	— الأمير علي بن يحيى	سنة ٢٢٦ هـ
٤٨	» سليمان بن غالب	» ٢٠١ هـ	٦٢	» عيسى بن منصور (ثانياً)	» ٢٢٩ هـ
٤٩	» السري بن الحكم (ثانياً)	» ٢٠١ هـ	٦٣	» هرثمة بن نصر	» ٢٣٣ هـ
٥٠	» محمد بن السري	» ٢٠٥ هـ	٦٤	» حاتم بن هرثمة (ثانياً)	» ٢٣٤ هـ
٥١	» عبید الله بن السري	» ٢٠٦ هـ	٦٥	» علي بن يحيى	» ٢٣٤ هـ
٥٢	» عبید الله بن طاهر	» ٢١١ هـ	٦٦	» اسحق بن يحيى	» ٢٣٥ هـ
٥٣	» عمير بن الوليد	» ٢١٤ هـ	٦٧	» عبد الواحد بن يحيى	» ٢٣٦ هـ
٥٤	» عيسى بن يزيد	» ٢١٤ هـ	٦٨	» عنيسة بن إسحاق	» ٢٣٨ هـ
٥٥	» عبدويه بن جبلة	» ٢١٥ هـ	٦٩	» يزيد بن عبد الله	» ٢٤٢ هـ
٥٦	» عيسى بن منصور	» ٢١٦ هـ	٧٠	» مزاحم بن خاقان	» ٢٥٣ هـ
٥٧	» كيدر نصر بن عبد الله	» ٢١٧ هـ	٧١	» أحمد بن مزاحم	» ٢٥٤ هـ
٥٨	» المظفر بن كيدر	» ٢١٩ هـ	٧٢	» ارخوز بن أولوغ طرخان	» ٢٥٤ هـ
٥٩	» موسى بن أبي عباس	» ٢١٩ هـ	٧٣	» أحمد بن طولون	» ٢٥٤ هـ
٦٠	» مالك بن كيدر	» ٢٢٤ هـ			

ومما يجب ملاحظته أن بعض الولاة حكموا البلاد مرة ثانية وأحياناً مرة ثالثة في فترات متقطعة فإذا أسقطنا الأسماء المكررة يكون عدد الولاة الذين حكموا بمدينة العسكر من قبل الخلفاء العباسيين ٦٥ والياً من سنة (١٣٣ - ٢٥٤) هـ أو من سنة (٧٥٠ - ٨٦٨) م أي لمدة ١٢١ سنة هجرية أو ١١٨ سنة ميلادية كما قلنا سابقاً .

وقد أقام الوالى حاتم بن هرثمة الذى حكم لأول مرة من سنة (١٩٤ - ١٩٥) هـ من قبل الخليفة الأمين محمد - التبة المعروفة باسم قبة الهواء حيث كان الأمراء يقضون وقتاً طويلاً للترفيه عن أنفسهم فوق جبل المقطم وحيث بنى صلاح الدين قلعته العظيمة . كما أقام رجال الدولة وحكامها وقضاةها مساكنهم بمدينة العسكر الجديدة حول دار الأمانة ومسجد العسكر . ولكن ذلك لم يؤثر في مدينة الفسطاط التى ظلت محتفظة بالتجارة وظلت مركزاً زاهراً للصناعة .

ولم يبق من مدينة العسكر أى أثر، وذلك لأن الثورات الداخلية لم تقف بزوال الدولة الأموية، بل كانت أكثر التهايبا في عهد العباسيين، حتى أن الوالى العباسى «أبو صالح يحيى بن داود بن سرور» سنة (١٦٢ - ١٦٤) هـ وهو أول الولاة من العنصر التركى، وقد عرف بالشدّة وقوة المراس وعظمة الهيبة، اضطر إلى أخذ الأهالى بالبطش والعنف لأن الكثيرين منهم تحولوا بسبب سوء الحكم إلى قطاع طرق لا يأمن المارة معهم على حياتهم وأموالهم . فأقام أبو صالح يحيى بينهم حراساً مسئولين عن الأمن وعن المتاع

ولقد بلغ من شدة ثقته بنفسه ونشاطه أن أمر بأن تظل أبواب المنازل والخوانيت والحانات بالفسطاط مفتوحة طول الليل ، فكان الناس ينشرون شبكا على أبواب منازلهم لتمتع دخول الكلاب إليها .

وفي عهد موسى بن مصعب الذي حكم من سنة (١٦٧ - ١٦٨) هـ ضوعفت الضرائب على أهالي الفسطاط فثاروا في وجه الولى وبلغ من شدة الثورة أن تغلب الأهالى على الولى وقتلوه .

وتلا ذلك تغيير كبير في نظام الحكم بمدينة العسكر ، إلا أن ذلك لم يقلل من فرض المكوس على المتاجر ودواب الحمل مما ترتب عليه رفض الأهالى دفع الضرائب المقررة وشق عصا الطاعة ثم انقلاب بعضهم إلى نهب المسافرين والماشية والعمل على امتداد لهيب الثورة إلى سائر بلاد الدولة العباسية .

وعلى أثر وفاة الرشيد ونشوب الخلاف بين ولديه الأمين والمأمون عاد المصريون وغالبيتهم من القبط إلى ثورتهم القديمة لأن الأمين كان قد تحجب إلى بعض منهم وعهد ببعض الوظائف الكبرى إلى رؤساء بعض العشائر القبطية فضمن بذلك ولائهم له حتى ثاروا في وجه نائب المأمون عليهم وتغلبوا عليه وقتلوه . ولكن ذلك لم يمنع المأمون من الفوز في النهاية .

فلما استتب الأمر للمأمون ، عين عبد الله بن طاهر والياً على مصر سنة (٢١١ - ٢١٤) هـ فاستطاع بحزمه وسداد رأيه أن يقف ثورات القبط عامة ويعيد الهدوء إلى ربوع القطر بأجمعه حتى أن المأمون أهداه خراج مصر البالغ ثلاثة آلاف دينار (تقريباً مليون ونصف مليون جنيه مصرى) تقديراً لحسن صنيعه .

وعند ما نقل ابن طاهر إلى خراسان عاد القبط مرة أخرى إلى ثورتهم فكنوا عند المطرية وناقضوا على الولى الجديد « المعتصم » أخى الخليفة وأحرقوا أمتعته واختبأوا بمنازل الفسطاط ، ولكن المعتصم فتك بكثير من زعمائهم ونجح في إخماد الثورة .

ثم قرر المأمون أن يحضر بنفسه إلى مصر ليقمع الثورات المتأججة التي لم تكن لتقف عند حد . وعند وصول المأمون إلى مدينة العسكر في ١٠ محرم سنة ٢٤٧ هـ (٨٣٢) م أرسل جيشاً تحت إمرة أحد القواد الأتراك لقمع الثورة . فأوقع جيش المأمون بالقبط وأحرق مساكنهم وسبى نساءهم وأطفالهم حتى فنى الكثيرون منهم . ومنذ ذلك التاريخ زاد عدد المسلمين على عدد القبط واستقر العرب في القرى والمزارع بعد أن كانوا يلازمون المدن وخصوصاً الفسطاط والعسكر .

وشاهدت الفسطاط الكثير من مناظر تعذيب القبط والعسف بهم إذ كان منظر الرؤوس المفصولة من أجساد أصحابها الزعماء من المشاهد العادية كل يوم . وكان الكثير منها يعلق على جدران جامع عمرو . وظلت الثورة والشغب والمؤمرات والفتن الداخلية مستمرة في البلاد جميعها . إلا أن ذلك كله لم يعرقل رفاهية العاصمة ، بل كان سبباً في إثارة ضغائن الحكام ونزق بعضهم مما أدى إلى تمكيد صفو أهالى البلاد كلهم .

وقد بدأت أهمية مدينة العسكر تقل تدريجاً منذ ما بنى أحمد بن طولون عاصمته الجديدة القطائع .
فصار يذكر اسم الفسطاط والقطائع وترك اسم العسكر فأصبحت كأنها لم تكن ، وإن كان أحمد بن طولون
نفسه قد شيد فيها مارستاناً عظيماً بالقرب من بركة قارون التي بنى عليها كافر الأخشيدى فيما بعد داراً صرف في
بنائها مائة ألف دينار وسكنها .

وظل أمراء مصر يقيمون في دار الأمانة بمدينة العسكر حتى انتقل أحمد بن طولون إلى قصره الذي شيده بجوار
جامعه بالقطائع . ثم جاء جوهر الصقلي قائد جيوش المعز ، وبنى مدينة القاهرة . فأخذت مدينة العسكر في الانحطاط
حتى تخربت في عهد الخليفة المستنصر الفاطمي على أثر المجاعة التي حدثت في ذلك الحين وعرفت باسم
« الشدة العظمى » .

ولما قدم أمير الجيوش بدر الجمالي وشرع يعمر القاهرة أخذ الناس في نقل ما كان بالعسكر والقطائع من أنقاض
المباني حتى أتى على معظم ما فيها وصار مكان هاتين الضاحيتين موحشاً مقفراً .

ولم يبق إلى الآن من العسكر والقطائع سوى جبل يشكر الذي بنى عليه جامع ابن طولون . أما الدور والمنازل
والمساجد والأسواق والحمامات والبساتين والبركة العجيبة والمارستان فاندثرت وحتى مواقعها أصبحت محل شك .
وتخلفت عن مدينة العسكر ، تلك العاصمة العباسية ، تلال زين العابدين الواقعة إلى جنوب المدينة الحديثة .
وهي وصمة في جبين القاهرة الحالية عروس الشرق يتحتم على مجلسها البلدى ، بعد إنشائه قريباً إن شاء الله ، إزالتها
ونقل ما بها من مداخل ومصانع سجاد عضوية إلى مكان آخر . ثم إعادة تخطيط موقعها تخطيطاً يتناسب مع ما كان
لهذا المكان من روعة وجمال .

وقد أدت الحفريات الحديثة التي قامت بها دار الآثار العربية في تلال زينهم بجوار جامع أبو السعود إلى كشف
بعض منازل مدينة العسكر القديمة وحماماتها .

ويجد الباحث هناك الآن ما يسمى « بالمنزل الطولونى » وهو منزل محتفظ إلى درجة كبيرة بتفاصيله المعمارية
المهمة ، وتتم طريقة بنائه على أنه بنى في عصر أحمد بن طولون وبنفس الطريقة التي بنى بها جامع .

وبجوار هذا المنزل ، تجد ما يسمونه « الحمام الفاطمى » وهذا أيضاً حمام محتفظ بتفاصيله المعمارية احتفاظاً
مدهشاً فترى فيه مكان بيت النار وطريقة وصول المياه الباردة من البئر المنقورة في الصخر إلى مكان الدماست
القديمة وطريقة سير المياه الساخنة إلى أجزاء الحمام المختلفة .

وأعجب ما فى هذا الحمام هى صور النساء العاريات فى سقف قبة المغطس مما يثبت أن التصوير لم يكن محرماً فى
العصر العربى بل كان فناً ممتازاً يزدهر مع تقدم البلاد ويختفى فى عصور الانحطاط والتأخر !

الفصل الثامن مدينة القطائع

في غضون القرن الثالث الهجري انقطع ما بين مصر ودولة بني العباس من أسباب ، وانفصم ما كان يربط مصر بمركز الخلافة ببغداد من عرى الروابط . وترجع على عرش مصر إذ ذاك أحمد بن طولون الذي أنشأ لنفسه في مصر دولة دانت لها الشام وبعض أقطار أخرى ، وخشى بأسها الخليفة العباسي الذي راض نفسه على الاعتراف بالدولة الطولونية في مصر .

أحمد بن طولون

الأمير أبو العباس أحمد بن طولون صاحب الديار المصرية والشامية قدم مصر سنة ٢٥٤ هـ (٨٦٨ م) نائباً عن الأمير « بكباك » فعين على الفسطاط وأسيوط وأسوان فتغلب بحسن تديبه على من كان حوله . فعظم شأنه بينهم وخضعوا لسلطوته .

ولما توفي « بكباك » وهبت مصر للأمير « ماجور » حمى ابن طولون أي والد زوجته فأبقاه في منصبه . وفي سنة ٢٥٩ هـ (٨٧٢ م) قلده الخليفة المعتمد على الله العباسي الخراج على مصر والولاية على الثغور الشامية ، فكان لقسوة ابن طولون وسلطوته خير أثر في مصر فسادت السكينة البلاد ونمت ثروتها . ثم نجح ابن طولون في الاستيلاء على حكم مصر وجعله وراثياً في أسرته ، وظلت البلاد خاضعة له ولذريته من بعده حوالي ٣٨ عاماً هجرية تجلى فيها الترف والبذخ .

وتوفي أحمد بن طولون إلى رحمة الله سنة ٢٧٠ هـ (٨٨٣ م) وقبره مجهول الآن .

وكان محباً للعلم كثير الصدقات شغوفاً بالعمارة فقد أصلح منار الأسكندرية ومقياس النيل وأنشأ حصن جزيرة الروضة ومسجد التنور ومدينة القطائع والقصر والميدان وقناطر المياه والمارستان والجامع الكبير .

سياسة الراهبة والخارجية

وقد استأثر أحمد بن طولون بالحكم بعد أن أبعد « أحمد بن المدبر » أمير المال عن منصبه بالطريقة الآتية : أرسل إليه الخليفة المعتمد بن المتوكل يستحثه في جمع الخراج فأجابه « لست أطيق ذلك والخراج في يد غيري » . فأحيل الخراج إليه وأصبحت جميع أعمال مصر الإدارية والعسكرية بيده ، وعزل ابن المدبر الذي خرج لسوريا .

وقتل أحمد بن طولون على مثيرى الفتن بمصر ، وأخضع ثلاث ثورات شبت في البلاد ، ثم سار إلى الشام واحتلها ووصل بجيوشه إلى طرسوس والفرات وحارب جنود الخليفة وجنود الروم ووجد تحت سلطته امبراطوريه تمتد من برقة غربا إلى بلاد الروم شرقا ومن نهر الفرات إلى بلاد النوبة .

وسار أحمد بن طولون في تنفيذ سياسته الداخلية بنفس الخطوات التي أتبعها في تنفيذ سياسته الخارجية وهي سياسة الإصلاح والإنشاء والعمران .

كانت مدينة العسكر وقت وصول ابن طولون إلى مصر قد نمت وازدهرت لكثرة ما شيد فيها من الأحياء العامرة والأسواق الرائجة والشوارع الجميلة والعمارات الفخمة . وكانت الطبقة الراقية من رؤساء الجيوش وولاة الأمور تقيم بها .

نزل ابن طولون في أول الأمر في بيت الأمانة بالعسكر وشرع بعد أن استتب له الأمر خارجياً وداخلياً في بناء الاستحكامات وتحصين البلاد ثم أخذ يبحث عن مكان يتسع لجنوده وعبيده وأتباعه وأسلابه وتحفه ومهمات له لأن العسكر كانت قد ضاقت عن أن تسع كل ذلك . فصعد إلى المقطم ونظر إلى ما حوله فرأى بين العسكر والجبل بقعة من الأرض مساحتها نحو ميل مربع لا شيء فيها من العمارة إلا بعض المدافن للمسيحيين واليهود فاخترها لإنشاء مدينته الجديدة وعاصمة مملكته الناشئة وأمر بمرث المدافن وهدمها واختط في موضعها مدينة « القطائع » .

موقع مدينة القطائع ومطهرها

وكانت جبانة المسيحيين واليهود في عصر ابن طولون تقع بين الرميطة وجامع زين العابدين وكانت مساحتها نحو ميل مربع . وكانت هذه الجبانة تشغل الأماكن المعروفة الآن باسم ميدان محمد على وميدان صلاح الدين (قره ميدان سابقاً) والمساحة الواسعة الممتدة من هناك إلى ميدان المشية .

وقد أزال ابن طولون هذه المقابر وأقام محلها قصره الكبير .

قال المقرئى : « زالت آثار القطائع ، ولم يبق لها رسم يعرف وكان موضعها من قبة الهواء التي صار مكانها قلعة الجبل إلى جامع ابن طولون وهذا أشبه أن يكون طول القطائع وأما عرضها فإنه من أول الرميطة تحت القلعة إلى الموضع الذي يعرف اليوم بالأرض الصفراء عند مشهد الرأس الذي يقال له الآن زين العابدين . وكانت مساحة القطائع ميلا في ميل ، وقبة الهواء كانت في سطح الجرف الذي عليه قلعة الجبل ، وتحت قبة الهواء كان قصر ابن طولون . وموضع هذا القصر الميدان السلطاني الآن الذي تحت القلعة بالرميطة . وكان موضع سوق الخليل والحير والبغال والجمال بستاناً ويجاورها الميدان الذي يعرف اليوم بالقببات . فيصير الميدان فيما بين القصر والجامع

الذى أنشأه أحمد بن طولون . وبجذاء الجامع دار الأمانة في جهته القبليّة ولها باب من جدار الجامع يخرج منه إلى المقصورة المحيطة بمصلى الأمير إلى جوار المحراب وهناك أيضاً دار الحرم .

وقال الأمير جمال الدين أبي المحاسن يوسف :

« القطائع بمعنى الأطباق التي للماليك السلطانية الآن وكانت كل قطعة لطائفة تسمى بها . فكانت قطعة تسمى قطعة السودان وأخرى قطعة الروم وثالثة قطعة الفراشين ونحو ذلك .

وكانت كل قطعة مخصصة لسكن جماعة ممن ذكرنا وهي بمنزلة الحارات اليوم .

وبعد أن اختط الأمير قصره وميدانه أمر أصحابه وغلماؤه أن يختطوا لأنفسهم بيوتاً . فاختطوا وبنوا حتى اتصل البناء بعمارة الفسطاط التي بمصر القديمة . »

وقال القاضي :

« وكان للنوبة قطعة مفردة تعرف بهم وللروم قطعة مفردة تعرف بهم وللغراشين قطعة مفردة تعرف بهم ولكل صنف من الغلمان قطعة مفردة تعرف بهم . وبنى القواد مواضع متفرقة وعمرت القطائع عمارة حسنة وتفرقت فيها السكك والأزقة وعمرت فيها المساجد الحسان والطواحين والحمامات والأفران والحوانيت والشوارع وسميت أسواقها فقيل سوق العيارين وكان يجمع العطارين والبزازين ، وسوق العاميين ويجمع الجزارين والبقالين والشوايين . »

فإذا طبقنا هذه المعالم على حالة القاهرة الآن يتبين لنا أن مدينة القطائع كانت تحد من غرب بشارع السد ومن الجنوب بشارع الشيخ سليم بالبالغة ثم إلى قلعة الكباش ومنها بخط مفروض إلى ميدان صلاح الدين ومن شرق بميدان صلاح الدين وميدان المنشية ومن الشمال بشارع شيخون وشارع الصليبية والخضيري ومراسينا إلى ميدان السيدة زينب .

قصر ابن طولون :

وسمى هذا القصر هو وملحقاته بالميدان . وكانت له أبواب لكل باب اسم وهي باب الميدان ومنه كان يدخل ويخرج معظم الجيش ، وباب الصوالة ، وباب الخاصة ولا تدخل منه إلا خاصة ابن طولون ، وباب الجبل لأنه مما يلي جبل المقطم ، وباب الحرم ولا يدخل منه إلا خادم خصى أو سيدة ، وباب الدرمون لأنه كان يجلس عنده حاجب أسود عظيم الخلق ، وباب دعناج لأنه كان يجلس عنده حاجب يقال له دعناج ، وباب الساج لأنه عمل من خشب الساج (التلك) ، وباب الصلاة لأنه كان في الشارع الأعظم ومنه يتوصل إلى جامع ابن طولون وعرف هذا الباب أيضاً باسم باب السباع لأنه كان عليه صورة سبعين من الجبس .

وكان الطريق الذي يخرج منه ابن طولون وهو الذي يعرج منه على القصر طريقاً واسعاً فقطعه بحائط أنشأ فيه ثلاثة أبواب كبيرة كأقواس النصر وكانت متصلة بعضها ببعض واحداً بجانب الآخر .

وفي المواكب الرسمية كان الجيش يخرج بشكل متكاثف على ترتيب حسن ثم يخرج ابن طولون من الباب الأوسط بمفرده من غير أن يختلط به أحد من الناس .

وكانت الأبواب المذكورة تفتح كلها في يوم العيد أو يوم عرض الجيش أو يوم صدقة وفيما عدا ذلك لا تفتح إلا بترتيب ونظام خاصين في أوقات معينة .

وكان للقصر نوافذ تشرف على الأبواب .

ولما بنى هذا القصر والميدان وعظم أمره زادت صدقاته ورواتبه حتى بلغت صدقاته للمرتبة في الشهر ألفي دينار، وهذا غير ما كان يزداد عليه وكان يقول :

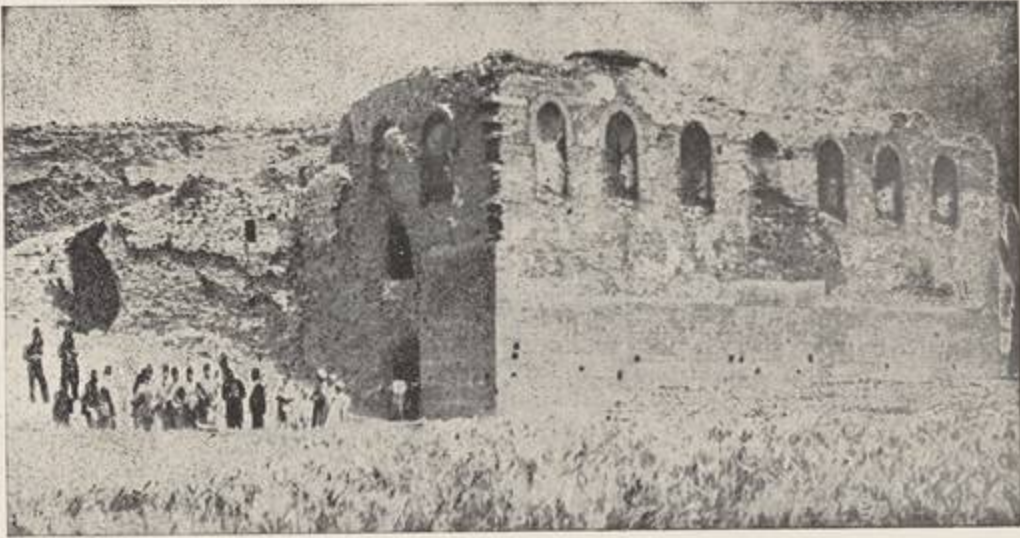
هذه صدقات الشكر على تجديد النعم . ثم جعل مطاعم للفقراء والمساكين في كل يوم وكان يذبح فيها البقر والغنم ويفرق للناس في القدور الفخار والقصع . ولكل قصعة أو قدر أربعة أرغفة . وكان في الغالب يعمل سماط عظيم وينادي في مصر : من أحب أن يحضر سماط الأمير فليحضر . ويجلس هو بأعلى القصر ينظر إلى ذلك ويأمر بفتح جميع أبواب الميدان ينظروهم وهم يأكلون ويحملون فيسره ذلك ويحمد الله على نعمته .

وكان السلطان يستطيع أن يرى من باب قصره العظيم وكان مقره المحبوب ، الفسطاط والنيل .

قناطر ابن طولون بقرية البساتين :

وكانت مياه القصر تستمد من بركة الحبش المتصلة بالنيل بخليج اسمه خليج بنى وائل . وكانت هذه البركة تقع بالصحراء القبلية عند قرية البساتين الحالية . ففوق المكان المعروف الآن بهذه الجهة باسم بير أم السلطان ومياهها الغائرة مستمدة من بركة الحبش أقام أحمد بن طولون السواقي والقناطر وبنى حائط مجرى المياه لتغذية القصر وتوابعه بالمياه العذبة الصالحة للشرب سنة ٢٥٩ هـ (٨٧٢ م)

ولا تزال آثار قناطر ابن طولون وحائط مجرى المياه ماثلة للآن بقرب قرية البساتين . وهي وإن كان الزمان قد اعتدى عليها فعني كثير من عقودها إلا أنه أبقى على بعض عقودها المديبة الماثلة لعقود الجامع الطولوني كما أبقى على بعض أقبية وعقود البئر . وهي تدل على مقدار العناية بآبانية الآجر في الدولة الطولونية . ويبدو ذلك جلياً في جمال عقود الطاقات الباقية بالوجهتين القبلية والغربية للبئر وفي الأقبية الداخلية . وقد تجلت الدقة فيها وفي تفنن الصانع في بناء مفتاح هذه الأقبية . ومما يلاحظ أن حجم الآجر المستعمل في بناء هذه القناطر ونوعه هو نفس الحجم والنوع المستعملان في بناء جامع ابن طولون .



قناطر ابن طولون بقرية البساتين .
وكانت تقع على شاطئ بركة الحبش لرفع المياه إلى القصر وتوابعه .

تخطيط مدينة القطائع

وقد روعيت لأول مرة في العهد الاسلامي ، عند تخطيط مدينة القطائع ، القواعد المقررة لتخطيط المدن التي وضعت في القرن الخامس قبل الميلاد . فأنشئ الميدان في وسطها وشغل ضلعي الميدان الشرق والغربي بقصر الأمير والمسجد الجامع . أما ضلعا الميدان الشمالي والجنوبي فكانا يتقاطعان مع الشوارع على زوايا قائمة . ويعرف هذا التخطيط بمبدأ تغلب الخط المستقيم أى أن تكون شوارع المدينة مستقيمة ومتقاطعة على زوايا قائمة بشكل شبكة منتظمة .

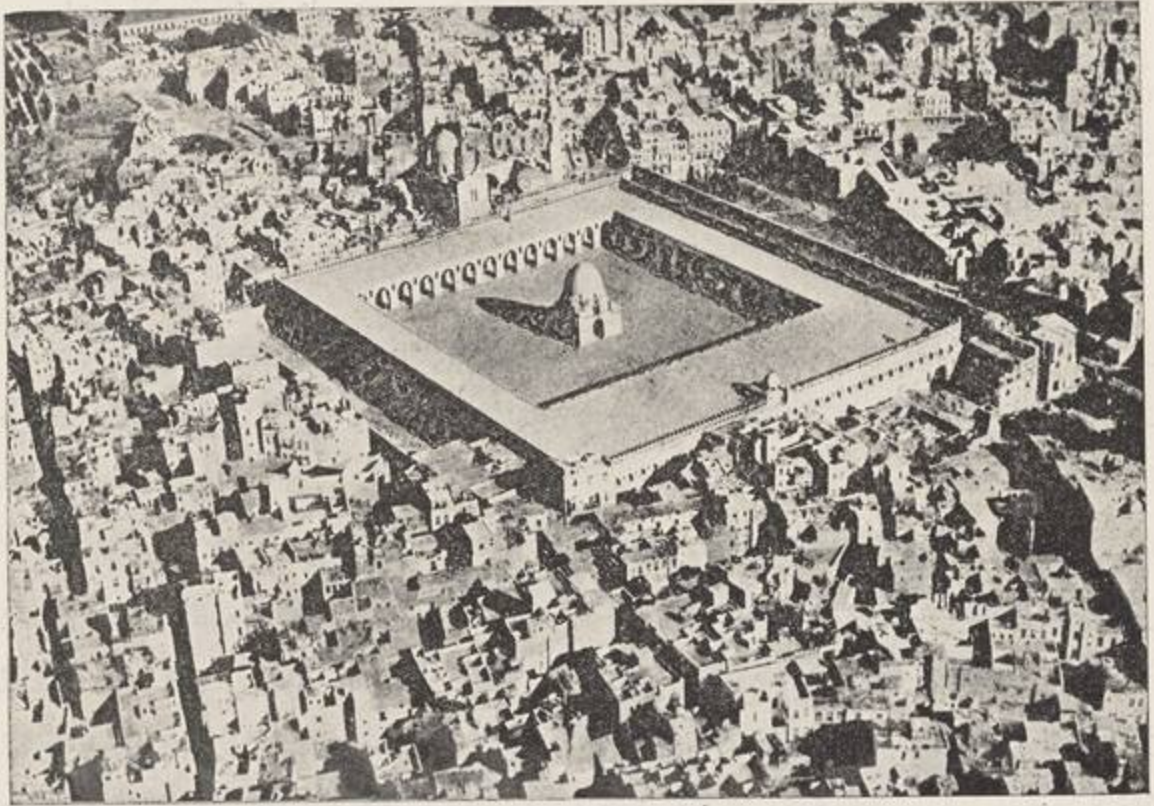
وكان شكل المدينة في بادئ الأمر مربعاً اتجه العمار في السنين التالية إلى جهة الغرب وغدا شكلها مستطيلاً . أما مساكن هذه المدينة ، ففي المنزل الطولوني الواقع في أول مدينة القطائع من الجنوب والذي كشفت عنه دار الآثار العربية أنموذج حتى لما كان عليه تخطيط منازل هذه المدينة وزخارفها وترجع كلها في الأصل إلى نماذج مأخوذة من مدينة سامراء أو (سمر من رأى) بالعراق وهذه ترجع بدورها إلى المدينة الآشورية والمدينة المصرية القديمة .

جامع ابن طولون

بعد أن فرغ ابن طولون من بناء القصر والميدان وجامع التنور الذي بناه على قمة جبل المقطم في مكان وراء القلعة كان يدعى تنور فرعون . وكان هذا المكان من مخلفات العصر الفرعوني ، وبه مقبرة من مقابر العظام وجد فيها ابن طولون آثاراً ذهبية كثيرة وأمر عند ذلك ببناء الجامع هناك ودعاه جامع التنور .

أقول بعد أن فرغ إذن من هذه العمارات شرع في بناء الجامع الطولوني العظيم الرابض فوق جبل يشكر منذ حوالي أحد عشر قرناً وكان ذلك سنة ٢٦٣ هـ (٨٧٦ م) واستمر العمل سائراً فيه إلى أن تمت عمارته في شهر رمضان سنة ٢٦٥ هـ (أبريل سنة ٨٧٨ م) وهو من أكبر المساجد حيث تبلغ مساحته مع الزيادات ستة أفدنة ونصف ، ووضع تصميمه على مثال المساجد الجامعة صحن كبير مكشوف تحيط به أروقة ذات عقود . وقد وصف الأستاذ المحقق حسن عبد الوهاب هذا الجامع وصفاً رائعاً جاء به :

هو على شكل مربع تقريباً ضلعه ١٦٢,٥٠ × ١٦١,٧٣ متراً يشغل منه المسجد مع جدرانه مستطيلاً



جامع ابن طولون الرابض فوق جبل يشكر منذ حوالي أحد عشر قرناً وحوله مساكن هذا الحى

مساحته ١٧٢٤٣,٨١ متراً مسطحاً ، ويتكون هذا المستطيل من صحن مكشوف مربع ٩٣,٣٠ × ٩١,٩٥ متر تحيط به أروقة من جوانبه الأربعة مساحتها مع الجدران ٨٣ و ٨٧٥٦ متراً مربعاً .

ويحيط الجامع من جوانبه القبليّة واليحيوية والغربية أروقة غير مسقوفة تعرف بالزيادات مسطحها مع جدرانها ٩٠٣٧,٣١ متراً مربعاً . وأسوار هذه الزيادات عالية تسودها البساطة فتحت فيها أبواب تقابل أبواب الجامع تتوجها من أعلى شرفة مفرغة كما فتحت بأسوار الجامع أبواب وشبابيك علوية بينها طاقات مخصوصة تتوجها من

أعلى شرفات . وهي من أسوار الزيادة . وعدة أبواب الجامع ٢١ باباً بما فيها بابان صغيران في الجدار الشرقي وذلك
عدا أبواب الزيادة المقابلة لبعضها .

وكان كل باب من أبواب الجامع يقع أمام سوق من الأسواق التي كانت تحيط به حيث كانت التجارة
رأبجة حوله .

ويقع المحراب وسط الإيوان الشرقي وهو أكبر الإيوانات وأكثرها أروقة وأحفلها زخرفاً . وبه المنبر وبه
تاريخ إنشاء الجامع وتوجد به محاريب أخرى فاطمية ومملوكية .

ويشتمل الإيوان الشرقي على خمسة أروقة أما باقي الإيوانات فيشتمل كل منها على رواقين فقط .

وهذه الأروقة مكونة من دعائم مبنية بالطوب مقاس كل دعامة منها ٢٥٠ × ١٣٠ متر مخلق في نواصيها
الأربع عمد ذات قواعد وتيجان تحمل عقوداً ستينية تظهر لثاني أو لثالث مرة في العمارة الإسلامية بمصر حليت
حافاتها بزخارف جصية نباتية مورقة . وقد لجأ المهندس إلى التخفيف عن ظهر العقود ففتح فيها شبابيك خلقت
بأكتافها عمد رشيقة وحليت حافاتها بزخارف نباتية مورقة مختلفة .

واختيار المهندس لهذه الدعائم بدل العمود برهن على حسن ذوقه فقد تخلص بها من العمود الرخامية المختلطة من
الكنائس والأديرة والمعابد القديمة وهي بطبيعة اختلاف مواردها غير متجانسة لا في الطول ولا في السمك ولا في
حليات التيجان ولا في القواعد .

يحكى أن ابن طولون عقد النية على إقامة ثلاثمائة عمود من الرخام في مسجده . فقيل له إن مثل هذا العدد
لا يتيسر الحصول عليه ولو هدمت جميع الكنائس المسيحية بمصر . وكان بين مهندسي ذلك العصر المهندس
المسيحي « ابن الكاتب الفرغاني » وكان مهندساً معمارياً بارعاً وقد أودع السجن لتهمة باطلة وجهت إليه . فلما
بلغه ما اعترم ابن طولون كتب إليه من السجن أنه قادر على إتمام مشروعه وأنه لا يحتاج في ذلك إلى أكثر من
عمودين يجعلهما عمودى القبلة . فاستحضره وقد طال شعره حتى نزل على وجهه وطلب إليه أن يشرح له ذلك
فرسم الجامع على الكيفية التي كانت في ذهنه مقتبساً تصميمه من تصميم جوامع « سرمن رأى » فأعجب
ابن طولون وأمر باطلاق سراحه وخلع عليه وجعل تحت أمره مائة ألف دينار وقال له : « أنفق وما احتجت إليه
بعد ذلك أطلقناه لك » .

فبنى الفرغاني الجامع من الطوب ومونة الجير والرمل ولم يكن فيه بالحجر سوى منارته . والطوب المستعمل في
جامع ابن طولون من الآجر الغامق الجيد الحريق يبلغ مقاسه في الغالب ١٨ × ٨ × ٤ سم وهو مبنى مداميك
أديه وشناوى ولحاماته متسعة وقد بلغت تكاليفه مائة وعشرين ألف دينار أى حوالى ٦٣٠٠٠٠ جنيه مصرى .

ويعلو العقود أفريز زخرفي من الجص يعلوه إزار خشبي به كتابة بالخط الكوفي البارز يشمل سورة البقرة وآل عمران ثم السقف .

وفي عهد المغفور له الملك فؤاد الأول رحمه الله قامت إدارة حفظ الآثار العربية بتجديد شامل لهذا الجامع القديم الذي أدخلت عليه تعديلات كثيرة في عصور مختلفة فجدد بطريقة مبتكرة إذ عمل السقف بالأسمت المسلح بتقاسيمه القديمة ثم غلف بالأخشاب القديمة والجديدة طبقاً للأصل القديم .

ويحيط بجدرانه الأربع من أعلى ١٣٠ شباكاً من الجص مفرغة بأشكال هندسية مختلفة .

المحراب : يقوم بكل من جانبي هذا المحراب عمودان متلاصقان من الرخام يعلو كل اثنين منها تيجان من الرخام المفرغ دقيق الصنع من الطراز البيزنطي القديم كل اثنين منها متشابهان .

و بتجويف المحراب عصابة من الفسيفساء المذهبة كتب بها لا إله إلا الله محمد رسول الله . وهيكل المحراب بعمده من عهد ابن طولون إلا أن هذه الفسيفساء والكسوة الخشبية بطاقيته والقبعة أعلاه من عمل المنصور لاجين سنة ٦٩٦ هـ (١٢٩٦ م) أما الكسوة الرخامية فأحدث عصرها من غيرها .

المنبر : يجاور المحراب منبر خشبي جميل اتخذت حشواته من الساج الهندي (خشب التوك) والأبنوس وودقت بالأوئمة الدقيقة وهو ليس بالمنبر القديم للجامع بل من عمل الملك لاجين المنصوري سنة ٦٩٦ هـ (١٢٩٦ م) . وكاد الزمن يفقد المنبر لولا عناية لجنة حفظ الآثار العربية التي جمعت بقاياه من المتاحف وكمّلته على مثالها .

أما الملك المنصور حسام الدين والدنيا لاجين المنصوري أحد ملوك مصر في نهاية القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي) فهو الذي قام بعمارة كبيرة بالجامع تناولت إصلاحه وإصلاح شبايبكه وعمل القبعة أعلى المحراب والمنبر والقبعة بوسط الصحن والسبيل الذي جدده فيما بعد السلطان قايتباي بالزيادة القبليّة وكذا قبة المنارة وذلك وفاء لنذر نذره لتعمير هذا الجامع حينما اختفى فيه وهو خرب في فتنة الأشرف خليل بن المنصور قلاوون .

دار الأمانة : بنى ابن طولون داراً جديدة للأمانة تلاصق الجامع من الجهة الشرقية الجنوبية . وكان على بين المنبر باب يؤدي إلى هذه الدار . وقد أسسها ابن طولون بالمفروشات والستور وكانت مخصصة لنزوله حينما يذهب لصلاة الجمعة فيجلس فيها ويجدد وضوءه ثم يدخل منها إلى مقصورته بالمسجد .

ولقد ذهبت هذه الدار ولم يبق منها سوى بقايا سقف كان بشكل رأس فيل بناييه وهي طرفة نادرة .

القبعة وسط الصحن : هذه هي ثالث قبة فقد احترقت الأولى وهي لابن طولون سنة ٣٧٦ هـ سنة (٩٨٦ م) وكانت قائمة على عمد رخامية — وهدمت الثانية وهي التي أنشأها العزيز بالله الخليفة الفاطمي سنة ٣٨٥ هـ (٩٩٥ م) وقيل أمه تعزید — وحلت محلها القبعة القائمة الآن التي أنشأها المنصور لاجين سنة ٦٩٦ هـ (١٢٩٦ م)

وهي قبة كبيرة مقاس كل من ضلعها الشمالي والجنوبي ١٢ر٧٥ متر والشرقي والغربي ١٤ر١٠ متر محمولة على أربعة عقود كانت شبابيكها محلاة من الخارج بزخارف وكتابات كوفية . وبرقيتها من الداخل طراز جصي مكتوب فيه آية الوضوء يتوسطها فسقية ويستريح النظر فيها وجود سلم في سمك جدارها يوصل إلى سطح قاعدتها المربعة .

المنارة : أقيمت المنارة في الزيادة الغربية خلف حائط الزيادة على مسافة ٤٠ سم وهي مبنية بالحجر مقاس

قاعدتها ١٠ر٩٥ × ١٠ر٦٠ متر وسلمها من الخارج

بأربع قلابات يصعد منه إلى سطح فسلم حلزوني نصف دائري يتوصل منه إلى سطح آخر يرتكز عليه الجزء العلوي الذي على هيئة مبخرة . وهي المنارة الوحيدة بمصر ذات السلم الخارجي تشابه منارة سامرا . والمرجح أن هذه المنارة من عهد ابن طولون وقتها المئنة من عمل لاجين سنة ١٢٩٦ م والظاهر أنها بنيت بعد الفراغ من بناء أسوار الجامع والزيادات التي هي جزء منه ومبنية معه .



منظر جامع ابن طولون وترى فيه تفاصيل المنارة وقبة الصحن

ويبدو لي أن هذه المنارة مقتبسة من منارة الإسكندرية الشهيرة مع بعض التحوير القليل فقاعدتها المربعة التي يعلوها سطح ثم الدور الثاني المئمن الاضلاع والدور الثالث المستدير والسلم الخارجي كل هذه من معالم منارة الاسكندرية القديمة . ومن المعروف أن ابن طولون رمم منارة الاسكندرية سنة ٢٥٩ هـ (٨٦٩ م) فلا يبعد أن يكون قد أمر باقتباس تصميم هذه المنارة عند بناء منارة جامعة !!

الأساس : قلنا إن الجامع الطولوني أقيم على جبل يشكر ولذلك فإننا نجد أساسه في الجهة القبليية على الصخر مباشرة بينما نجد أن هذا الأساس ينزل في الجهة البحرية إلى عمق خمسة أمتار حتى يصل إلى الصخر أيضاً

أعمال الاصلاح : أقيمت بالجامع إصلاحات في عصوره المختلفة منها عمارة بدر الجمالي الوزير الفاطمي سنة ٤٧٠ هـ (١٠٧٧ م) وهي مثبتة في لوح رخامي فوق أحد أبواب الزيادة البحرية . ثم عمارة الحافظ لدين الله سنة ٥٢٦ هـ (١١٣٢ م) . ثم عمارة حسام الدين لاجين المنصوري وهي أكبر عمارة أجريت به عام ٦٩٦ هـ (١٢٩٦ م) . وفي القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي) جدد القاضي كريم الدين مئذنتين على طرفي الوجهة الشرقية وقد هدمتا .

أما بداية أفول نجم الجامع فقد كانت في أيام محمد بك أبي الذهب فإنه ما كاد يلي الأمانة بمصر حتى أنشأ به مصنعاً لعمل الأجرمة الصوفية .

وما حلت سنة ١٢٦٣ هـ (١٨٤٦ م) حتى حوِّله كلوت بك إلى ملجأ للعجزة ، وظل كذلك إلى سنة ١٨٨٢ م حتى تألفت لجنة حفظ الآثار العربية ففكرت في انتشاله من وهدته .

وفي سنة ١٩١٨ أمر المغفور له الملك فؤاد الأول بإصلاح الجامع إصلاحاً شاملاً ونزع ملكية ما حول من أبنية فأخليت الوجهة القبليّة وأجزاء الشرقية وأجريت به إصلاحات كثيرة كبيرة فتحت لها اعتماد قدره ٤٠ ألفاً من الجنيهات خلاف الاعتمادات اللازمة لإزالة ما أحاط به من الأبنية وإنشاء الميادين الفسيحة حوله حتى يعود إلى سابق بهجته ورونقه .

أعمال أخرى لابن طولون : وأمر ابن طولون ببناء المستشفى (المارستان) في مدينة العسكر . وبلغت تكاليفه ستين ألف دينار . وبني حصناً بجزيرة الروضة سنة ٢٦٣ هـ (١٨٧٦ م) لا أثر له الآن . ورم منارة الإسكندرية .

مارستان ابن طولون : قال جامع السيرة الطولونية : « بنى أحمد بن طولون المارستان ولم يكن بمصر مارستان . ولما فرغ منه حبس عليه دار الديوان ودورة في الأساكفة وسوق الرقيق . وشرط في المارستان ألا يعالج فيه جندي ولا مملوك . وعمل حمامين للمارستان أحدهما للرجال والآخر للنساء . وشرط أنه إذا جرى بالليل تنزع ثيابه وتحفظ عند أمين المارستان ثم يلبس ويفرش له ويغدى عليه ويراح بالأدوية والأغذية والأطباء حتى يبرأ . فإذا أكل فروجا ورغيفاً (أى إذا شفى واستطاع أن يأكل الطعام العادى الذى يأكله الأصحاء) أمر بالانصراف وأعطى ماله وثيابه .

وكان ابن طولون يركب بنفسه في كل يوم جمعة ويتفقد خزائن المارستان وما فيها وينظر إلى المرضى وسائر الأعداء والمحبوسين من الجانين . فدخل مرة حتى وقف بالجانين فناده واحد منهم مغلول وقال : « أيها الأمير اسمع كلامي ما أنا بمجنون وإنما عملت على حيلة وأشتهى أكل رمانة أكبر ما يكون » . فأمر له بها من ساعته ففرح بها وهزها في يده لينظر ما ثقلها ثم غافل الأمير أحمد بن طولون ورمى بها في صدره . فنضحت على ثيابه ولو تمكنت منه لآنت على صدره . فأمرهم أن يحتفظوا به . ثم لم يعاود بعد ذلك النظر في المارستان . »

ضمارويه بن أحمد ابن طولون

ومات أحمد بن طولون بعد حكم دام ١٦ سنة وعمره حوالي خمسين عاماً وكانت وفاته سنة ٢٧٠ هـ (مايو سنة ٨٨٤ م) . وقد خلف ٣٣ ولداً منهم ١٧ ذكراً منهم ضمارويه بن أحمد بن طولون الذى ولى العرش بعد أبيه وبويع في يوم الأحد ١٠ ذى القعدة سنة ٢٧٠ هـ وكان أول عمل له هو قتل أخيه العباس لامتناعه عن مبايعته

ولم يشأ خمارويه أن يجعل مركز حكومته في الفسطاط كما فعل أبوه فجعلها في القطائع ثم أدخل على قصر أبيه تحسينات كثيرة وحول الميدان المجاور للجوامع إلى بستان فيه من الأشجار النادرة والزهور العطرة ما يدهش الألباب . وكسا أجسام النخل نحاساً مذهباً دقيق الصنع وجعل بين النحاس وأجسام النخل ميازيب من الرصاص وأجرى فيها الماء فكان يبدو النخيل ، والماء ينفجر من تضاعيف جسمه وينحدر إلى المساقى حتى يفيض منها ثم يندفع في قنوات منسقة تنسيقاً جميلاً لرى سائر البستان ، كأنه نوافير سماوية تستقي منها جنات النعيم . وكان هناك اختصاصاً يتعهد أشجار ونباتات هذا البستان بالمقاريض ويرسم منها نقوشاً وكتابات بارزة غاية في الجمال والتنسيق . وقد أقام خمارويه في البستان برجاً فسيحاً جميلاً هائلاً من خشب التلك المطعم بسن الفيل والعاج وقسمه أقساماً كالأقفاص وبلط أرضه وجعل فيها الماء يجري أنهاراً ثم أطلق في هذا البرج الطواويس ودجاج الحبش والطيور ذوات الأصوات الرخيمة وجعل لها أوكاراً في قواديس ممكنة في جوف الحيطان لتفرخ فيها وجعل لها عيداناً مثبتة في الجوانب لتقف عليها . فكانت هذه الطيور تغتسل في مياه الأنهر وتتصايح وتسرح في جنبات الكشك .

وفي هذا الكشك أقام خمارويه لنفسه مجلساً سماه دار الذهب طلى حيطانها كلها بالذهب واللازورد وجعل فوق الحيطان إزاراً من الخشب إرتفاعها قامة ونصف قامه بها صور بارزة معمولة على صورته وصور محظياته ومغنياته وعقد على رؤوسهن الأكاليل من الذهب والجواهر المرصعة وحلى أذانهن بالأفرط الثقال ولونت أجسامهن بأصناف تشبه الثياب من الأصباغ العجيبة .

وبعد ذلك أنشأ في وسط القصر بركة من الزئبق طولها خمسون ذراعاً وعرضها خمسون ذراعاً وجعل في أركان البركة سكا من فضة وجعل في السكك زنابير من حرير محكمة الصنع في حلق من فضة .

وعمل فراشاً من جلد ينفخ بالهواء فيحكم شده ، ويلقى على البركة ويشد بالزنابير الحرير التي في حلق الفضة . وينزل خمارويه فينام على هذا الفراش فلا يزال الفراش يرتج ويتحرك بحركة الزئبق حتى يغط خمارويه في نومه وينام نوماً عميقاً بينما كان أسده الأزرق العينين «زريق» يسهر عليه ويحرسه .

وكان منظر انعكاس ضوء القمر على بركة الزئبق ليلاً من أعجب المناظر في العالم .

وبنى خمارويه في القصر أيضاً قبة تضاهى قبة الهواء سماها «الدكة» وجعل لها ستوراً تقيه الحر والبرد وتسدل حيث يشاء وترفع حيث يشاء .

ومن هذه القبة كان خمارويه يشرف على جميع ما في داره كما كان يشرف على الصحراء والنيل والجبل وجميع المدينة .

ثم بنى ميداناً آخر أكبر من ميدان أبيه .

وكان هناك جوسق شيدته أبوه كان خمارويه يجلس فيه إلى المائدة مع حريمه يحيط به الموسيقيون ويرتل فيه الرجال ذوو الأصوات الشجية آى القرآن الحكيم ويؤذنون بالفجر وينشدون الأغاني الدينية البهيجة والحزينة تباعا.

وأقام أيضاً خمارويه فى نطاق مدينته حدائق للحيوان وبنى فيها دوراً للسباع لها أبواب منزلة تفتح من أعلى لإدخال الطعام وتنظيفها . وقد جمع خمارويه فى هذه الحدائق كل أصناف الحيوان من أسود ولبوات وفهود وزرافات وفيلة ونمور .

وقال القضاى يصف خيول خمارويه واسطبلاته :

« وكان عرض الخيل من عجائب الإسلام الأربع ، وهى : عرض الخيل بمصر ، ورمضان بمكة ، والعيد بطرسوس ، والجمعة ببغداد » .

ثم قال : « وقد ذهب اثنان من الأربع وهما : عرض الخيل بمصر والعيد بطرسوس » .

وكانت اسطبلات خمارويه منتشرة فى الجزيرة وناهيا ووسيم وسفط وظهرمس . وكانت لها ضياع لا تزرع إلا القرطم لأجل الدواب .

وكانت مطابقه عنواناً للبذخ إذ كان ينفق عليها شهرياً مبلغ ١٢ر٠٠٠ دينار . وكان لكل خادم من خدمه العديدين الشىء الكثير من الدجاج ولحم الضأن والحلوى والقطع الكبار من الفالوج والقطائف والمهبرات وسواها . ولما تزوج الخليفة العباسى المعتضد من قطر الندى ابنة خمارويه ، كان جهازها مما لم تره عين ولم تسمع به أذن ، وكان مهرها من عجائب المهور ، فمن جلته مائة هاون من الذهب بل قيل ألف هاون . وبنى لها أبوها قصرأ على رأس كل مرحلة تنزل بها فى الطريق وذلك فيما بين مصر وبغداد .

وقد خرجت العباسة بنت أحمد بن طولون لتوديع بنت أخيها فضربت خيامها عند البلدة الواقعة فى مدخل وادى الظميلات التى عرفت من ذلك الوقت باسم بلدة العباسة وقد تألق نجمها فى عهد الطولونيين وكانت موضع اهتمامهم . وأقامت العباسة مع وصيفاتها وصدققاتها مدة على أرض تلك القرية لتلقى نظرة الوداع على سفيرة مصر لدى قصر الخليفة .

وبعد وفاة خمارويه بسنين قلائل زالت كل هذه المظاهر العظيمة ولم يبق منها سوى آثار قليلة من بركة الزئبق . وكانت وفاة خمارويه قتلا فى فراشه سنة ٢٨٢ هـ (٨٩٦م) بيد حاشيته وسيدات حرمه أثناء إقامته بدمشق بعد أن حكم ١٢ سنة و١٨ يوماً ، وحملت جثته إلى مصر ودفنت باحتفال عظيم . ولم ينقذه من الموت لا أسده الأزرق العينين « زريق » ولا حرسه الخاص من شبان العرب الأقوياء . فسبحان من له البقاء .

نهاية حكم الطولونيين

و بعد وفاة خمارويه ولى مصر ابنه أبو العساكر جيش ، فرأى فيه فقهاء المسلمين وقضاتهم سفاكا للدماء لسفكه دم عمه مضر بن أحمد بن طولون فأفتوا بعزله وخلفه شقيقه « هرون » وكان إذ ذاك حدثا لا يصلح للولاية فجاء ضغنا على إبالة حتى طمع القرامطة في بلاد الشام ولم يقو على صدمهم مما يدل على مدى الضعف الذى تردى فيه القطر المصرى على يد أحفاد ابن طولون حتى ازور وجه الزمن عن الملوك الطولونيين . ووقف الخليفة العباسى « المكتفى » فى بغداد على جلية الأمر فى مصر فأرسل أسطولا بقيادة محمد بن سليمان ليعيد مصر من جديد إلى حكم الدولة العباسية . ولقد أصاب أسطول العباسيين نجاحاً يذكر على أسطول مصر عند بلدة « صان الحجر » ونحطم الأسطول المصرى إلى آخره .

ولما بلغ أمر تلك الهزيمة مسامع الأمير الطولونى « هرون » فرهارباً إلى بلدة العباسية حيث لقي حتفه على يد عمه « شيبان » الذى خلفه على ولاية مصر .

ولم يلبث « شيبان » طويلاً فى ولاية مصر حتى أجلاه عنها محمد بن سليمان فزالت الدولة الطولونية بعد أن حكمت مصر ٣٨ عاماً عادت بعدها إلى حظيرة الدولة العباسية .

مصر تحت حكم العباسيين للمرة الثانية

وأخذت مصر ترزح تحت حكم الفوضى والاضطراب ثلاثين سنة أخرى بعد نهاية حكم الطولونيين . وليس أدل على ما أصاب مصر من فوضى شاملة بعد زوال حكم الطولونيين من ظهور جندى شاب من جنود الطولونيين يدعى « محمد بن على الخلنجى » وكان قد نقل من مصر إلى الشام مع فلول الطولونيين وأتباعهم ، ثم أتيحت له الفرصة للعودة إلى مصر فاستولى فى طريقه على الرملة ودعا على منابرها للخليفة ثم للطولونيين ثم لنفسه ، ولما بلغ والى مصر ما كان من أمر الخلنجى جهز جيشاً لملاقاته وهو فى الطريق إلى مصر ، ولكنه استطاع بمعونته من وافته من كل فنج ممن تفيض نفوسهم بغضاً للعباسيين من أهل مصر والشام أن يطارد والى مصر وجيشه من غزة إلى العريش حيث أوقع بهم الخلنجى ففروا أمامه إلى بلدة العباسية ومنها قفل الوالى راجعاً إلى مصر فراراً من بطش الخلنجى الذى دانت له مصر بأجمعها وظل يحكمها سبعة أشهر واثنتين وعشرين يوماً .

مدينة القطائع فى عهد العباسيين الثانى

فى سنة ٢٧٣ هـ (٩٠٤ م) دخل محمد بن سليمان مدينة القطائع فألقى النار فيها ونهب أصحابه القسطنطينية وكسروا السجون وأخرجوا من فيها وهجموا على الدور واستباحوا الحرم وذبح رجال الفرقة السوداء ودمرت مباني القطائع

وبيوتها التي قدرها بعض المؤرخين بمائة ألف بيت . وعاد العباسيون إلى الإقامة بمدينة العسكر فأصبحت مقر الحكومة للمرة الثانية .

ولما كانت « الشدة العظمى » في أيام المستنصر قضى على البقية الباقية من مدينة القطائع .

وفي عام ٤٦٣ هـ (١٠٧٠ م) أتى الخراب على مدينتي العسكر والقطائع معاً حتى اضطر الحال لبناء سور يبدأ من باب زويلة تقريباً في القاهرة وينتهي عند الفسطاط إلى جامع عمرو . وكان الغرض من بناء هذا السور هو ستر خرائب العسكر والقطائع حتى لا يتأذى الخليفة من منظرها عند مروره في هذه المنطقة .

ثم استعمل الناس أنقاض مباني العسكر والقطائع في عمارة منازلهم الجديدة بالقاهرة وتحولت المساحة الواسعة بين القاهرة والفسطاط تدريجاً إلى صحراء جرداء وتلال وقاذورات ما عدا بعض البساتين والحدائق التي ظلت مبعثرة في الطريق وبعض البيوت الخلوية التي ظلت منفردة . وعادت السطوة ثانية للفسطاط فزادت مبانيها وظلت الحال على ذلك حتى تأسست القاهرة المعزية .

ولم يبق في أرض مدينتي العسكر والقطائع للآن إلا جامع ابن طولون وهو الأثر الإسلامي الوحيد الذي ظل محافظاً على تفاصيله المعمارية لمدة أحد عشر قرناً فهو إذن أقدم أثر إسلامي كامل بمصر ! وسبق لنا درس ما في هذا الجامع من الجمال والرشاقة .

مدينة مصر الفسطاط في نهاية الحكم العباسي وفي عصر الاخشبيين

بعد أن أفضى الخلعجي عن حكم مصر اختلف عليها ولاة من قبل العباسيين استبد بهم الجند وأصحاب الخراج وضاع سلطان أولئك الولاية بين جشع الجند في طلب المال وذن عمال الخراج به على الولاية . فلا عجب أن تكون مصر أثناء هذه الفترة نسياً منسياً تغط في سبات عميق إلا من الدسائس يحيكها الجند وضباطهم فيقع في حبالها الولاية الذين ظلت أمورهم معلقة بيد رجال الجيش ، إلى أن ولي مصر من قبل الخليفة العباسي « الراضى » محمد الأخشيد الذي ما لبث أن أنشأ في مصر حكومة مستقلة قوية مهيبة الجانب يخشى الخليفة بأسها لدرجة أحفظت قلبه على الأخشيد فعين له منافساً بمصر وهو محمد بن رائق الذي وهب له الخليفة مصر على الرغم من وجود الأخشيد بها ، وبينما يهم ابن رائق بالحضور إلى مصر لتسليمها خف الأخشيد لملاقاته في العريش فهزم ابن رائق ومن التف حوله . ولكن الأخشيد كان — مع الانتصار — سخياً سمحاً كعادته فرضى بمنح ابن رائق شمال الشام وقبل أن يدفع له جزية سنوية وأن يصابهه ليأمن جانبه حتى يتفرغ هو لصد خصوم آخرين طامعين في مصر كالفاطميين والحمدانيين .

وبعد وفاة الأخشيد تولى بعده ابنة أنوجور (وهو اسم أعجمي معناه بالعربية محمود) . ولما كان لا يزال صغير السن صار أستاذه « كافور » مدبر مملكته . ولقد رأى سيف الدولة الحمداني في ولاية « أنوجور » فرصة مواتية لينقض عهده التي أبرمها مع والده فانقض على الشام ولكن سار إليه « أنوجور » مع « كافور » ورجال الجيش حتى بلاد الشام وأوقعوا به الهزائم المتكررة . وفاجأ الموت « أنوجور » وخلفه أخوه « على الأخشيد » وكان أيضاً دون سن الملك فوقع تحت إمرة « كافور » الذي مال بث أن أصبح حاكم مصر الفعلي بعد موت « على الأخشيد » . وقلده الخليفة العباسي حكم مصر بلقب « أستاذ مصر وممتلكاتها » ولكن عكر صفوه ما حل بمصر إذ ذلك من قحط لانخفاض فيضان النيل حتى ندرت الأقوات كما فشا الموت بحالة عجز معها الناس عن تكفين الموتى ودفنهم .

وفي هذا العصر كان جزء كبير من تجارة الهند وبلاد العرب الناهبة إلى أوربا تمر بمدينة الفسطاط التي عرفت إذ ذاك باسم مدينة مصر الفسطاط أو مدينة مصر فقط .

وقد انتشر في المدينة أصحاب الصناعات اليدوية كالحدادين والحياكين والخياطين والحلاقين والنجارين والصيادين والخبازين والطحانيين ومن جرى مجراهم والباعة الذين يبيعون البقل واللحم وغيرها من أصناف المأكولات على أنواعها وبعض المنسوجات والسلع الدنيئة .

كما كثرت طبقة المرتزقين بالدعارة والنهب واللصوصية على أثر الفتن والانشقاق مما سبب خراب المدينة . وأخذ الفساد يفسو بين الناس وضعفت غيرة الرجال وقتت عفة النساء .

عمارة مصر

ذكر المقرئزي أنه كان في عواصم الإسلام الأولى : الفسطاط والعسكر والقطائع وهي مجموعة المدن التي اتصلت ببعضها وعرفت باسم مدينة مصر ١٠٠٠٠٠٠ بيت في بعضها ١٠٠ أو ٢٠٠ ساكن ، وكان البيت مؤلفاً من خمس طبقات أو ست أو سبع .

وظلت العمارة حتى عصر صلاح الدين الأيوبي في هذه العواصم الثلاث لأن الفاطميين لم يسمحو للشعب بالإقامة في مدينة القاهرة بعد إنشائها بل جعلوها معقلاً للخليفة وجنوده . فلم تنسج عمارتها إنما بقيت العمارة للفسطاط . ولما أفضت الدولة إلى السلطان صلاح الدين أذن للناس بسكنى القاهرة فاتصلت بمدينة الفسطاط . وكانت الفسطاط تسمى (مصر) فلما صار تامدينة واحدة أطلقوا عليها اسم « مصر والقاهرة » ثم قالوا « مصر القاهرة » . ولما خربت الفسطاط ظل هذا الاسم (مصر) للقاهرة وحدها كما هو مشهور .

الفصل التاسع

الحياة الاجتماعية في عواصم الاسلام الأولى بمصر

نظام المجتمع في عصر الخلفاء الراشدين من سنة (٢١ - ٣٧) هـ (٦٤١ - ٦٥٧) م .

لما ظهر الإسلام كان سكان مصر طبقتين :

أولاً - الرومان البيزنطيون أو الروم وكانت بيدهم مقاليد الحكم وكان مقر حكمهم بالإسكندرية وكان منهم رجال الدولة والأجناد وبعض رجال الأكليروس .

وثانياً - الأهالي وهم القبط الأصليون يخاطبهم بعض المولدين من اليونان والرومان وغيرهم من الفاضحين للتجارة أو المرتزقين من الخدمة في الجيش أو غيرها من أهل الشام واليمن والعراق والنوبة وأفريقيا .

وكان بين الروم والقبط فاصل آخر مذهبي فكان الروم على مذهب الملك مرقيان ولذا عرفوا باسم الروم للملكيين ، أما القبط فكانوا على مذهبهم الأرثوذكسي ولكن لاتحادهم في العقيدة مع السريان وهم سلالة الأشوريين سكان العراق الأصليين وعاصمتهم مدينة بابل ، لقبهم بعض المؤرخين خطأ باسم « اليعقوبيين » نسبة إلى يعقوب البراذعي السرياني تلميذ القديس ساويرس الأنطاكي .

لم يصب القبط من أهالي مدينة مصر بعد الفتح الإسلامي ضرراً ما في عصر الخلفاء الراشدين لأن المسلمين لم يكونوا يخاطبونهم ولا يدخلون في شيء من أحوالهم الإدارية أو الدينية أو السياسية وإنما كان همهم اقتضاء الجزية والخراج وحماية من دخل في ذمتهم من أهل الكتاب .

فكان العرب يقيمون في مضاربهم أو معاقلمهم في القسطنطينية بما يشبه الاحتلال العسكري ، ولم يكن معهم إلا من دخل في حوزتهم من الأرقاء بالأسر أو السبي ومن أعتقوه فصار من الموالى .

يحكى أنه كان في مدينة بابلون بعد فتح حصنها جماعة كبيرة من جنود القبط ، فلما رأى هؤلاء ما كان عليه العرب من الرثاثة قالوا : « ما أرث العرب وأهون عليهم أنفسهم ، ما رأينا مثلنا دان لهم » .

فلما سمع عمرو مقاتلهم دعا جماعة من كبارهم إلى وليمة فنحروا جزورا وصنع لهم المرق بالماء والملح وجعل ذلك أمامهم وقد جلس القبط إلى جانب العرب . فجعل العرب ينهشون اللحم نهشاً حتى بشع القبط ذلك وعادوا بغير أن يأكلوا .

فلما كان اليوم الثاني أمر عمرو قومه أن يأتوا بألوان الطعام في مصر وأن يهبثوا منها وليمة عظيمة ففعلوا ذلك وجاء أهل مصر فجلسوا إلى ذلك الطعام وأصابوا منه . فلما فرغوا من أكلهم قال عمرو للقبط :

« إننى أرى لكم من العهد ما تستوجبه القرابة في النسب بيننا إذ تجمعنا هاجر المصرية زوجة الخليل إبراهيم عليه السلام وأم إسماعيل الذى منه تسلسل العرب .

وقد علمت أنكم ترون في أنفسكم أمراً تريدون به الخروج ، فخشيت أن تهلكوا ، فأريتكم كيف كان العرب في بلادهم وطعامهم من لحم الجزر ، ثم حالهم بعد ذلك في أرضكم وقد رأوا ما فيها من ألوان الطعام الذى قد رأيتم . فهل تظنون أنهم يسمون هذا البلد ويعودون إلى ما كانوا فيه ؟ إنهم يسمون قبل ذلك حياتهم ويقاتلونكم على ذلك أشد القتال . فلا تلقوا بأنفسكم إلى التهلكة وأدخلوا في الإسلام أو ادفعوا الجزية وانصرفوا إلى قراكم »

فأخذ بعض القبط عند ذلك يختارون الإسلام ويفضلون الدخول فيه على دفع الجزية ، فقد رأى هؤلاء أن الإسلام يجعل لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين ويساويهم بالفاتحين في شرف محلهم ويجعلهم إخوانهم في كل شيء ، يسهم لهم في الفء ولا يفرض عليهم الجزاء . فكان في ذلك باعث قوى لكثير منهم على الدخول في الإسلام لا سيما وقد طحن المقوقس عقيدتهم طحناً وحطم يقينهم باضطهاده تحطياً .

وامتزج القبط بالمسلمين وانقسموا قسمين : قسم منهم امتزج كل الامتزاج بالإسلام فتزوج العرب من نسائهم وتسلسل منهم المصريون الحاليون . والقسم الآخر بقى صلباً يابى كل الإباء أن يترك ما كان عليه أبأؤه من الدين والعادات ، وقد بقى على دينه لم تفتنه أشد المظالم ولم ترعزعه أشنع الاضطهادات ، بل عاشوا وهم كل يوم يحسون مرارة الذلة ومضض الهوان فلم تخضع نفوسهم ولم تلن .

ولقد كان بقاء القبط لغاية الآن ، بغير شك ، معجزة من معجزات الخالق المصرى ، لأن المصرى بطبعه محافظ لا ينسى . ولو أن هذه البقية القبطية والأقلية المصرية كانت للآن ببلد آخر لحووظ عليها كأثر من أثمن آثار التاريخ الحية . ولكنها تسير في مصر الحاضرة بكل أسف إلى طريق الفناء ! !

أما الطبقة الجديدة التى نشأت بانتشار الإسلام في الفسطاط وهم المسلمون من القبط فقد ولاهم العرب في عهد الخلفاء الراشدين مصالح الدولة التى تفتقر إلى أمانة وثقة فضلا عن العلم والدين وجعلوا لهم الرواتب السنوية ، ولكنهم حرموهم من المناصب الرفيعة التى كانت تحتاج إلى شرف وعصبية كالتقضاء مثلا فإنهم كانوا يعدونه فوق مرتبتهم .

عمرو بن العاص يصف مصر للخليفة عمر بن الخطاب

وإليك الآن صورة ناطقة من صور الحياة في عصر الفتح العربي بعد أن أخذت البلاد في الاستقرار والاطمئنان تحت حكم العرب ، وبعد أن هدأت ثورة الفتح وذهبت إحن القتال والنضال التي عصفت بالبلاد زمنًا . قال عمرو بن العاص يصف مصر للخليفة عمر بن الخطاب :

« اعلم يا أمير المؤمنين أن مصر قرية غبراء وشجرة خضراء . طولها شهر وعرضها عشر . يكتنفها جبل أغبر ورمل أعفر . يخط وسطها نيل مبارك الغدوات ، ميمون الروحات ، تجري فيه الزيادة والنقصان كجري الشمس والقمر . له أوان يدّر حلابه ويكثر فيه ذبابه . تمدّه عيون الأرض وينابيعها حتى إذا اضلخم مهاجه وتعظمت أمواجه ، فاض على جانبيه ، فلم يمكن التخلص من القرى بعضها إلى بعض إلا في صغار المراكب وخفاف التوارب ، وزوارق كأنهن في الخايل ورق الأصائل . فإذا تكامل في زيادته ، نكص على عقبه كأول ما بدا في جريته ، وطأ في درته . فعند ذلك تخرج أهل ملة محقورة وذمة مخفورة (يعنى الفلاح المصرى أو القبطى) يجرثون بطن الأرض ويبذرون بها الحب ، يرجون بذلك السماء من الرب . لغيرهم ما سعوا من كدهم . فناله منهم بغير جدهم . فإذا حقد الزرع وأشرق ، سقاه الندى وغذاه من تحته الثرى .

فبينما مصر ، يا أمير المؤمنين ، لؤلؤة بيضاء ، إذ هي عنبرة سوداء ، فإذا هي زمردة خضراء ، فإذا هي ديباجة رقصاء ، فتبارك الله الخالق لما يشاء .

الذى يصلح هذه البلاد وينميتها ، ويقر قاطنيتها فيها ، ألا يقبل قول خسيسها في رئيسها ، وألا يستأدى خراج ثمرة إلا في أوانها ، وأن يصرف ثلث ارتفاعها في عمل جسورها وترعها . فإذا تقرر الحال مع العمال في هذه الأحوال تضاعف ارتفاع المال . والله تعالى يوفق في المبدأ والمآل » .

خطبة عمرو في مسجده يوم الجمعة من أيام عيد الفصح سنة ٢٤ هـ (٦٤٤ م)

وإليك أيضاً صورة أخرى من صور الحياة في عواصم الإسلام الأولى ترسمه خطبة عمرو التالية :

« يا معشر الناس . إنه قد تدلت الجوزاء ، وزكت الشعرى ، وأقلعت السماء ، وارتفع الوباء ، وقلّ الندى ، وطاب المرعى ، ووضعت الحوامل ، ودرجت السخائل ، وعلى الراعى بحسن رعيته حسن النظر ، فحى لكم على بركة الله إلى ريفكم فنالوا من خيره ولبنه وخرافه وصيده ، واربعوا خيلكم واسمنوها وصونوها وأكرموها فإنها جنتكم من عدوكم وبها مغانمكم وأنفالكم . واستوصوا بمن جاورتموه من القبط خيراً . وإياكم والمسومات والمعسولات فإنهن يفسدن الدين ويقصرن المهم .

حدثني عمر أمير المؤمنين أنه سمع رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، يقول :
« إن الله سيفتح عليكم بعدى مصر فاستوصوا بقبطها خيراً ، فإن لكم منهم صهراً وذمة » .
فكفوا أيديكم وعفوا فروجكم وغضوا أبصاركم . ولا أعلن ما أتى رجل قد أسمن جسمه وأهزل فرسه . واعلموا
أنى معترض الخيل كاعتراض الرجال . فمن أهزل فرسه من غير علة حططته من فريضته قدر ذلك . واعلموا
أنكم في رباط إلى يوم القيامة لكثرة الأعداء حولكم . وتشوق قلوبهم إليكم وإلى داركم معدن الزرع والمال
والخير الواسع والبركة النامية .

وحدثني عمر أمير المؤمنين ، أنه سمع رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، يقول :
« إذا فتح الله عليكم مصر فاتخذوا فيها جنداً كثيفاً ، فذلك الجند خير أجناد الأرض » .
فقال له أبو بكر :

« ولم يا رسول الله ؟ » .

قال : « لأنهم وأزواجهم في رباط إلى يوم القيامة » .

فاحمدوا الله معشر الناس على ما أولاكم ، فتمتعوا في ريفكم ما طاب لكم ، فإذا يبس الزرع ، وسخن العمود ،
وكثر الذباب ، وحمض اللبن ، وصوح البقل ، وانقطع الورد من الشجر ، غشى إلى فسطاطكم على بركة الله .
ولا يقدمن أحد منكم ذو عيال على عياله إلا ومعه تحفة لعياله على ما أطاق من سعته أو عمرته .

أقول قولي هذا ، وأستحفظ الله عليكم » .

ولا تحتاح هذه الخطبة إلى تعليق فإنها ترسم الحياة في مصر رسماً واضحاً حياً في عصر الفتح .

جباية الخراج في عصر الفتح الإسلامي :

يؤخذ من كلام مؤرخي العرب أن مصر لما فتحها المسلمون ، كان عدد الذكور فيها بمن راهق الحلم إلى
ما فوق ذلك « ليس فيهم امرأة ولا صبي ولا شيخ » ثمانية ملايين رجل ، منهم في الاسكندرية وحدها
٣٠٠ و ٠٠٠ رجل ، فإذا أضفنا إلى ذلك عدد الإناث والأطفال والشيخوخ زادت جملة السكان على ٣٠ مليون نفس
وهو نحو ضعف عدد سكانها الحالي .

وقد يطعن في صحة هذه الرواية ، ولكن يستدل من مجمل أقوال المؤرخين في مصر أنها كانت في عصر الفتح
في رغد ورخاء ، وكان عمرانها بالغاً حد النهاية .

وقد ذكر ياقوت في معجم البلدان : « أن المقوقس قد تضمن مصر من هرقل بتسعة عشر ألف ألف دينار

وكان يجبيها عشرين ألف ألف ، وجعلها عمرو بن العاص عشرة آلاف ألف دينار أول عام . وفي العام الثاني جعلها اثني عشر ألف ألف . ولما ولها للمرة الثانية في أيام معاوية جباها تسعة آلاف ألف دينار . وجباها عبد الله بن سعد بن أبي سرح أربعة عشر ألف ألف دينار .

وقد أجمع المؤرخون المحدثون تقريباً على تقدير عدد سكان مصر في تلك الأيام بنحو عشرين مليون نفس بدلا من ٣٠ مليون نفس المذكورة سابقاً .

قال المقرئى : « إن هشام بن عبد الملك أمر عبید الله بن الحبجاب عامله على خراج مصر أن يمسخها فمسخها بنفسه سنة ١٠٧ هـ (٧٢٥ م) فوجد أن مساحة أرضها الزراعية مما يركبه النيل ثلاثين مليون فدان . وأقول : إن مساحة الأرض الزراعية في وادى النيل اليوم مع ما تبدله الحكومة من العناية في إخصابها وتعميرها لم تتجاوز ستة ملايين فدان بعد .

ومساحة وادى النيل كلها أى الوجه البحرى والصعيد على جانبي النيل لا تزيد على هذا القدر إلا قليلا . فيستحيل أن تكون مساحتها في أوائل الإسلام خمسة أضعاف ذلك . ولكن يظهر أن المصريين في صدر الإسلام كانوا يزرعون ما يجاور وادى النيل من الشرق نحو البحر الأحمر ومن الغرب إلى وادى النطرون . لأن مساحة مصر بما فيها الواحات في صحراء ليبيا والأرض بين النيل والبحر الأحمر وبينه وبين بحر الروم إلى العريش تزيد على ٤٠٠,٠٠٠ ميل مربع ، وذلك يساوى ١٨٧ مليون فدان . فلا غرابة إذن أن يكون العامر منها ٣٠ مليون فدان وأن يكون عدد سكانها ٢٠ مليوناً أو حتى ٣٠ مليون نفس في زمن الفتح .

هذا وقد عرفنا مما نقله العرب عن أحوال مصر وعن أخبارها القديمة أن حدودها الزراعية كانت تمتد من الغرب وراء صحراء الاسكندرية إلى برقة وتتصل من الشرق بحدود السويس إلى العريش . ومعظم المسافة هناك اليوم رمال قاحلة ولكنها كانت تزرع قديماً الزعفران والعصفر وقصب السكر ، وكان ماؤها غزيراً بسبب كثرة فروع النيل إذ ذاك . ولا تزال آثار العمارة باقية في تلك البقاع الآن ، فان تحت الرمال الحالية تربة سوداء زراعية يعرفها من اختبر الأرض وعمل بها جسات بالمسبار .

كما عرفنا أن الصعيد كان عامراً وكان يمتد من الجهة الشرقية إلى البحر الأحمر وأراضى البجة ، وكانت أطيان الفيوم ممتدة إلى ما وراء العمارة المعروفة مسافة بعيدة . فإذا اعتبرنا ما ذكره العرب وسواهم من الروم والقبط من هذا القبيل وأن النيل كان أكثر فروعاً وأغزر ماءً وأعلى فيضاناً مما هو عليه اليوم ، هان علينا قبول أقوالهم وإن كنا لا نزال نستغربها لبعدها عن مألوفنا .

ولعلنا متى رأينا وزارة الأشغال العمومية تعمل على إحياء الصحارى المحيطة بوادى النيل شرقاً وغرباً بنزع ما يغطيها من

الرمال وإروائها بالترع المتصلة إليها من النيل أو بالآبار الارتوازية نرى أقوالهم معقولة . ولا نظن ذلك بعيداً ورجال هذه الوزارة في مصر ينفذون اليوم مثل هذه المشروعات ويعرفون ما هو مقدر لها من النجاح !!

كانت الزراعة إذن ولم تزل هي المهنة التي تتوقف عليها حياة مصر ورخاؤها ، وكان لا بد لنجاح الزراعة من درس أحوال النهر ومعرفة تطوراته الدقيقة ، وقد وجد المصريون في حركات نجوم السماء واسطة للاستدلال بها على ميعاد فيضان النهر ، ومن ثم بدأ اهتمامهم بعلم الفلك وإتقانهم لدراسته . وعلى أساس هذه العلوم العالية شيدوا مقاييس النيل في كل معايدهم ، ثم خبا نور هذه المعارف في مصر في عصر الانحطاط وأصبح التنبؤ بفيضان النيل في مدينة الفسطاط بطرق أولية ساذجة !!

فكان نزول النقطة من الحوادث الهامة التي تنتظر بفارغ الصبر عند أهالي هذه المدينة . وكانت كل امرأة تضع فوق سطح منزلها قليلاً من العجين في ليلة من ليالي شهر مسرى . فإذا خمر العجين كان ذلك دليلاً على نزول النقطة وجلب لها ذلك نعمة وبركة عليها وعلى أهل منزلها طول العام .

ولم تسكن هذه الطريقة الساذجة تصدق دائماً للتنبؤ بفيضان النيل فعدل عنها شيئاً فشيئاً ، ثم بنى التنبؤ على تغيير لون مياه النهر التي كانت تتغير إلى اللون الأخضر أولاً ثم تعقبها المياه الحمراء أي مياه الفيضان .

وكانت نتائج تأخير ورود بشائر فيضان النيل في العهود الماضية من أشد ما يكون على تجارة المدينة ، إذ كان الناس جميعاً يهبون مذعورين ويجهتدون في إخفاء مواد الغذاء فترتفع أثمان الحاجيات الأولية وتتقلب الأسعار بسرعة وتكثر حوادث التبديد ويختل الأمن العام . ولذا كان لا بد من الحذر الشديد عند نشر التنبؤات عن الفيضان لأجل اجتناب الغلط وعدم حصول تقلبات حادة في الأسواق . هذا خلاف ما يترتب على ذلك من الارتباك في جباية الخراج .

نظام المجتمع في عصر الأمويين من سنة (٣٧ - ١٣٢) هـ (٦٥٧ - ٧٤٩) م

لما طمع بنو أمية في الخلافة ، كانت قد انتقلت إلى علي بن أبي طالب صهر النبي وابن عمه بعد قتل عثمان بن عفان ، وكان المسلمون يعتقدون أنه أحق الناس بها لقرابته من النبي وتقواه وشجاعته وعلمه وسابقته في الإسلام وفضله في تأييده .

ولما قتل علي تولى الخلافة بعده ابنه الحسن فرأى نفسه عاجزاً عن منازلة معاوية فتنازل له عن الخلافة سنة ٤١ هـ فرسخت قدم معاوية فيها .

وكان القبط من أهالي الفسطاط في أيام الأمويين في حالة تطور وانتقال بين عصر الروم والفرس والعصر الإسلامي . ولم يتم ذلك الانتقال ويبدأوا في اعتناق الإسلام جماعات إلا في أيام الخليفة الأموي يزيد بن عبد الملك أي بعد الفتح بحوالي ٨٠ عاماً إذ أرسل هذا الخليفة إلى مصر خمسة آلاف عربي أقامهم بالفسطاط يخضدون من شوكة القبط حتى أسلموا .

وترفع الأمويون عن الاختلاط بغير العرب ورغبوا في البقاء على البداوة . فلم يتكيف المجتمع في الفسطاط بشكائه الخاص بالإسلام والتمدن الإسلامي إلا في العصر العباسي ، خصوصاً بعد أن أوقع جيش المأمون بن الرشيد بالقبط وأحرق قراهم وسبى نساءهم وأطفالهم حتى فنى الكثيرون منهم . ومنذ ذلك التاريخ أى حوالى سنة ٢١٤ هـ (٨٢٩ م) زاد عدد المسلمين على عدد الأقباط واستقر العرب في القرى والمزارع بعد أن كانوا يلازمون المدن . فأتسع مجال التقدم والعمران في الفسطاط وخطت إلى الأمام خطوات واسعة موفقة . ودخل في خدمة المسلمين كثير من الأطباء والكتّاب والمترجمين القبط ، فنظموا لهم الدواوين وأقاموا لهم الحرس والبريد وعلوهم الجلوس على السرير وأدخلوا عليهم كثيراً من أسباب المدنية المصرية الراسخة في بلادهم .

نظام المجتمع في العصر العباسي الأول من سنة (١٣٢ - ٢٥٤) هـ (٧٤٩ - ٨٦٨) م

كان في جملة المطالبين بالخلافة ، من أقرباء النبي ، بنو العباس عم النبي لكنهم كانوا لا يتصدون لطلبها والأمويون في إبان دولتهم ، وإنما كانوا يدعون إلى أنفسهم سراً . ولما ضعف شأن بني أمية هموا بالنهوض ، إلى أن انتقلت البيعة من العلويين إلى العباسيين بمبايعة أبي هاشم بن محمد بن محمد بن الحنفية لمحمد بن علي العباسي . ونظراً لتغلب العباسيين بالموالي وأهل الزمة على الأمويين ، فقد اتخذوا من النصارى المقربين اليهم الوزراء والعمال ورجال الدولة ، فنضج التمدن الإسلامي وتكيف على شكل خاص بمدينة العسكر والفسطاط ، وتكاثرت الأموال في أيدي الناس فتوسعوا في الإنفاق وتنعموا بمعيشتهم وتأنقوا في الطعام والشراب والسماع وغيرها من اللذات الجسدية وتنعموا بالألبسة الثمينة والرياش الفاخر .

ثم طلبوا اللذات المعنوية من التفاخر باقتناء الجواهرات والعقارات وتلمسوا الشهرة . وبعث الترف على اقتناء الجوارى للتمتع بهن أو استيلادهن ، وقد تكاثرن في العصر العباسي وراج الاتجار بهن وتقدمت صناعة تربيتهن وتهاديتهن . وأصبح الاستكثار من الجوارى عادة مألوفة حتى صار النساء يقتنين للزينة . وارتفعت أثمان الجوارى وكانت أسعارهن تتضاعف إذا جمعن بين الجمال ورخامة الصوت وصناعة الغناء . ويختلف ثمن الجارية من بضع مئات إلى بضعة آلاف من الدنانير .

وكثر بذل المال على الندماء والمغنين والمستجدين من سائر الطبقات . وطبيعي أن يعثور الحضارة والترف شيء من التهمك والفحشاء . وإني أترك لتصور القارىء الكريم ما كان في الفسطاط والعسكر من أسباب التهمك في هذا العصر حيث كانت تتزاحم الأقدام وتتوفر الثروة وتكثر الجوارى ويتفشى الغناء والمسكر فلا غرو إذا تفشت الفحشاء وصار البغاء صناعة عليها رئيس يحتكم إليه أربابها عند الحاجة وقد ضربت على هذه الصناعة ضرائب يدفعها أصحابها مثل سائر التجارات .

وأصبح ما ظهر من التهلك في عصر العباسيين مغازلة الغلمان وتسريحهم، وظهر ذلك على الخصوص في أيام الأمين في صدر القرن الثالث الهجري وتكاثر بتكاثر غلمان الترك والروم في أيام المعتصم وفيهم الأرقاء بالأسر والشراء. وتسابق الناس إلى اقتنائهم، وغالوا في تزيينهم وتطيبهم، وكانوا يخصونهم ليأمنوا تعديهم على نساءهم وجواريتهم.

ولما فشا حب الغلمان في أهل الدولة العباسية بمصر وتعزل بهم الشعراء، غارت النساء من ذلك فعمدن إلى التشبه بالغلمان في اللباس والقيافة ليستملن قلوب الرجال. فتكاثر الفساد حتى ذكر أن ابنة الأخشيد صاحب مصر اشترت جارية لتمتع بها. وبلغ المعز لدين الله الفاطمي ذلك وكان لا يزال في الغرب يتحفز للوثوب على مصر ويخاف الفشل، فلما بلغه ما فعلته ابنة الأخشيد استبشر وقال: « هذا دليل السقوط » وجند على مصر وفتحها. وهكذا سقطت الفسطاط إلى الحضيض!! في أزهى عصور التمدن العربي!!

وقد امتاز العصر العباسي بالحفلات النادرة والمواكب الفاخرة. فالاحتفالات الدينية كانت غاية في الأبهة واحتفالات الزواج كانت غاية في البذخ والإسراف وألعاب الخلفاء وملاهيهم وحفلات الصيد والقنص والحلبة وسباق الخيل والكرة والصولجان كل هذه رأت منها الفسطاط والعسكر أشكالاً وألواناً.

ونحن وإن كنا لم نستكشف بعد آثار مدينة العسكر عاصمة العباسيين في مصر إلا أنه يمكننا تصور عمارها بما كانت عليه أبنية بغداد والبصرة وسواها مما وصل إلينا وصفها. فقد كان للقوم عناية ببناء المساجد والمصانع والقصور يتأنقون في تزيين واجهاتها فضلاً عن إحاطتها بالمتنزهات والحدائق مما ينفقون فيه الأموال الطائلة فيجلبون إليها الأجراس من أطراف المعمورة ويتفننون في تزيين قاعات مجالسهم بالأشعار والصور الموهبة بالذهب وبينها صور الحيوانات والآدميين والأزهار وغيرها.

نظام المجتمع في عصر الطولونيين وفي العصر العباسي الثاني وفي عصر الأئمة السعديين

أما نظام المجتمع في عصر الطولونيين من سنة ٢٥٤ إلى سنة ٢٩٢ هـ (٨٦٨ - ٩٠٤) م وفي عصر العباسيين الثاني من سنة ٢٩٢ إلى سنة ٣٢٢ هـ (٩٠٤ - ٩٣٣) م وفي عصر الأخشيديين من سنة ٣٢٢ هـ إلى سنة ٣٦٢ هـ (٩٣٣ - ٩٧٢) م فقد تكلمنا عنه في الفصل الثامن بما فيه الكفاية.

مربى مدينة مصر

رأيت معنا أيها القارئ العزيز تطورات عواصم الإسلام الثلاث الأولى بمصر وهي الفسطاط والعسكر والقطائع، ولا بد لنا الآن من وصف نهاية هذه العواصم الجميلة قبل إسدال الستار عليها.

ففي سنة ١١٦٨ م تقدم ملك بيت المقدس آمورى أو أمريك نحو القاهرة لفتح مصر بعد أن رأى الصليبيون أن الضمان الوحيد لطمأنتهم في فلسطين هو الاستيلاء على القطر المصرى .

وفي أيام قلائل كانت جيوش الصليبيين عند بلبليس وأمعنوا في أهلها فتكاً وقتلاً ، وتمت مجزرة هائلة كان أبطالها من يدعون أنهم جنود المسيح وفرسانه ، فذبحوا كل من وقع في أيديهم من الرجال والنساء والأطفال حتى أسقط في يد شاوور الوزير المصرى الذى دعا الصليبيين إلى مصر لتثبيتته في الوزارة ، إمعاناً في الكيد لخصمه ومنافسه في هذه الوظيفة ضرغام .

بهت إذن شاوور مما حدث فعول على أن يقف تيار أمريك اثلاً يلجأ إلى مثل تلك الأعمال الوحشية ضد أهالى مدينة الفسطاط ، وخوفاً من أن يستخدمها سترأً يستهل تقدمه نحو القاهرة ، فأمر بإحراق مدينة الفسطاط وكان ذلك في ٢٩ صفر سنة ٥٦٥ هـ (١٢ نوفمبر سنة ١١٦٨ م) .

قال المقرئى :

« بعث شاوور إلى مصر (الفسطاط) بعشرين ألف قارورة من النفط وعشرة آلاف مشعل نار فرق ذلك فيها فارتفع لهيب النار ودخان الحريق إلى السماء فصار منظراً مهولاً واستمرت النار تأنى على مساكن مصر (الفسطاط) أربعة وخمسين يوماً » .



المشعل

فلما أخذ الحريق ، رحل القائد « أمريك » مع رجاله من بركة الحبش حيث كان معسكرهم ونزل بظاهر القاهرة بالقرب من باب البرقية وقتل أهلها قتلاً عنيفاً حتى ضعفت نفوسهم وكادوا يؤخذون عنوة .

وبينما كان شاوور يحاول مقاتلة الفرنج إذ بأسد الدين شركة قد وصل إلى المقس خارج القاهرة واستولى على مصر .

وبعد هذا الحريق أخذت هذه العواصم الإسلامية الأولى تضعف وتتلاشى شيئاً فشيئاً حتى دثرت .

وهكذا يسدل الستار على هذه المدن التى ظلت منذ تأسيس الفسطاط سنة ٦٤١ م إلى أن حرقت وتلاشت سنة ١١٦٨ م عاصمة لمصر الإسلامية لمدة ٥٢٧ سنة ميلادية .

ولم يبق منها الآن إلا خرائب وتلال تعرف اليوم باسم أطلال الفسطاط لا يزال يرى الإنسان فيها آثار الحريق والدمار !!

تأثير نهر النيل في حياة عواصم الإسلام الأولى

ويمكن القول بدون مغالاة إن حياة عواصم الإسلام الأولى ظلت قرونًا عديدة تحت رحمة نهر النيل . فكل شيء في العاصمة كان يتعلق بحالة النهر : جباية الخراج وتموين المدينة وإيجاد موارد لمياه الشرب وسهولة المواصلات ، حتى المسائل السياسية كانت مرتبطة بحالة النهر .

أما الآن ، وقد تغلب العلم الحديث على تهديدات النهر المستمرة ، فلا يسعنا إلا أن نذكر مشفقين حالة أسلافنا القدماء بهذه العواصم ، حيث كانوا مضطرين إما للابتعاد عن المياه الصالحة للشرب وطرق الملاحة ، أو للإقامة بجوار النهر معرضين لأخطار الفيضان ولاهيار الأرض .

وقد جاء زمن كان فيه كل حاكم معرضاً للنقد المر إذا حاول إبعاد السكان عن النهر ، إذ كان يتهم حينئذ بأنه يسعى لحرمانهم من خيرات بلادهم أما إذا حاول القرب من النهر فانه كان يتهم بأنه يعرض السكان للغرق زمن الفيضان . فتاريخ العواصم الإسلامية منذ الفتح إلى نهاية القرون الوسطى ليس إلا صراعاً مستمراً بين الرغبة في مجاورة النهر والرغبة من الإقامة بجواره خوفاً من غوائل الفيضان وما يتبع ذلك من انهيارات وكوارث ، ولذا فضل القوم إقامة عواصم مصر الإسلامية الأولى فوق الهضبة الصخرية الفاحلة بسفح جبل المقطم .

ومن المعلوم أن مياه الفيضان تصل إلى مدينة أسوان في الأيام الأخيرة من شهر يونيو ، ولكنها لا تظهر أمام العاصمة إلا في أوائل شهر يوليو . وتبلغ مياه الفيضان متوسط ارتفاعها حوالى منتصف شهر أغسطس ثم يصل الفيضان إلى ذروته في أواخر شهر سبتمبر أو في أوائل شهر أكتوبر . وبعد أن يظل منسوب مياه الفيضان ثابتاً لمدة أسبوعين تقريباً يبدأ في النقصان .

وتوجد مجموعة للنهيات العظمى والنهيات الصغرى للمناسيب عند جزيرة الروضة من سنة ٦٤١ إلى سنة ١٤٥٠ ميلادية تكاد تكون كاملة .

ومما يلفت النظر في هذه البيانات هو أن الفيضانات كانت أعلى من المتوسط في مدد طويلة تقرب أحياناً من خمسين عاماً وأقل من المتوسط في فترات أخرى . كما أنه حدثت فيضانات منخفضة جداً بين مجموعة من الفيضانات العالية وبالعكس .

وقد فحصت هذه البيانات بدقة للوقوف على ما إذا كانت الفيضانات المرتفعة دورية أم لا ؟ وعمّا إذا كان من الممكن التنبؤ بحالة الفيضان قبل حدوثه بمدد طويلة ؟ فكانت النتيجة أن عملية التنبؤ عديمة الفائدة .

صحيح أنه توجد علاقة بين الأحوال الجوية لجنوب المحيط الأطلسي وبين فيضان النيل ، ولكن لم يتيسر حتى الآن ضبط هذه العلاقة وعمل تنبؤ عن الفيضان يمكن الاعتماد عليه في الأغراض العملية . وعلى كل فقد

يمكن في يوم من الأيام ، بتقديم علم الظواهر الجوية ، وبالوقوف بالتفصيل على حقيقة العامل الذي ينشأ عنه الفيضان ، أن يستنتج تنبؤ دقيق عن حالة الفيضان قبل حدوثه ببضعة أشهر . ولا شك أن قيمة هذا التنبؤ تزداد بازدياد مناطق الري في وادي النيل .

أما إذا كان الفيضان منخفضاً فيمكن عمل تنبؤات يعتمد عليها قبل حدوثه ببضعة أشهر ، ذلك أنه في شهر ديسمبر مثلاً يمكن التنبؤ عن حالة النيل على العموم بمصر لغاية شهر مايو . ولكن إذا تصادف نزول الأمطار في الحبشة أثناء هذه الفترة تصبح هذه التنبؤات غير مؤكدة ، وكذلك يمكن عمل تنبؤات لمدد قصيرة مبنية على حساب التصرفات والمناسيب الأمامية بدقة عظيمة ، وتعمل تنبؤات من هذا القبيل باستمرار الآن لتساعد على وضع برامج الري وملء وتفريغ خزان أسوان .

ويصل عمق المياه في النهر عند العاصمة مدة الفيضان إلى عشرة أو اثني عشر متراً في المتوسط . وقد تغير كثيراً منذ القدم الارتفاع المتوسط لمياه الفيضان الذي لا يضر الأحياء المجاورة للنهر وفي الوقت نفسه يساعد على نمو البساتين والزراعات ، وذلك بسبب ارتفاع الأراضي الزراعية من الرواسب النيلية .

وقد حسب « جيرار » قيمة ارتفاع الأراضي الزراعية سنة ١٨٩٩ متخذاً قاعدة مسلة المطرية كنقطة ارتكاز أساسية ، فوجد أن هذا الارتفاع في هذه النقطة يصل إلى ١٥ سم في القرن الواحد ، بينما وجد أن هذا الارتفاع عند مقياس الروضة لا يزيد عن ١٢ سم في القرن الواحد .

وفي عهد هيرودوت كان إذا وصل ارتفاع الفيضان إلى ٥٨٠ متراً فوق منسوب التحاريق يعد فيضاناً عالياً ، ولكن في القرن التاسع عشر كان يجب أن يصل ارتفاع الفيضان إلى ثمانية أمتار على الأقل عند مقياس الروضة ليعد الفيضان عالياً ويقدر هذا الارتفاع بما مقداره ٢٣ ذراعاً وبضعة قراريط .

وطبقاً لتقديرات المسيو لوبيير كبير مهندسي حملة بوناپرت يعادل ارتفاع ١٦ ذراعاً عند الروضة ٨٠٦٤٦ متراً ويختلف طول الذراع بين ٥٣٦ و ٥٥٠ من المتر .

وفي القرون الوسطى كان الفيضان يعد شحيحاً كما قال المسعودي إذا وصل ارتفاع المياه إلى ١٢ ذراعاً فقط ، وكان يعد متوسطاً إذا وصل إلى ١٤ ذراعاً ، وكان يعد مرتفعاً إذا كان ما بين ١٦ و ١٧ ذراعاً ، وخطراً إذا وصل إلى ١٨ ذراعاً . وعلى نفس هذا الأساس كانت تسير حكومة عمرو بن العاص في جباية الخراج والجزية .

فعند ما كان يصل ارتفاع المياه إلى ما بين ١٤ و ١٥ ذراعاً فقط كان يجبي جزء من الخراج . وإذا استمرت الزيادة إلى ١٦ ذراعاً يجبي الباقي . أما إذا زاد عن ذلك فكان الفرق والفاقة وعدم جباية الخراج .

وفي العصر العربي كان للنيل خمسة مقياس في المنطقة المعروفة الآن باسم منطقة القاهرة :

ففي معبد منف كان يوجد مقياس للنيل . وفي معبد مدينة أون (عين شمس) كان يوجد مقياس آخر للنيل . وهذه قاعدة معروفة . فحيثما كانت تقوم المعابد الفرعونية ، تجد دائماً مقياساً للنيل ، وذلك حتى يتمكن الكهنة من تحديد مواعيد أعياد النهر وأعياد الزراعة والمواسم الأخرى . وكذلك في حلوان كان يوجد مقياس أقيم في عهد عبد العزيز بن مروان بعد أن هدمت المياه المقياس الذي أقامه هناك عمرو بن العاص بذرع مختلف عن الأذرع الأصلية لمقياس النيل للتبكير في جباية الخراج .

وفي جزيرة الروضة كان يوجد المقياس الذي أقامه أسامة سنة ٩٧ هـ (٧١٥ م) في خلافة الوليد . وهو أهم المقياس في عهد عواصم الإسلام الأولى بمصر .

وقد وسع هذا المقياس وأدخلت عليه تعديلات كثيرة سنة ٢٤٧ هـ (٨٦١ م) في آخر عهد الخليفة المتوكل على الله جعفر العباسي حيث أنفذ إلى مصر من العراق المهندس القدير محمد بن كثير الفرغاني للإشراف على بنائه . ثم أصلحه أيضاً الأمير أحمد بن طولون سنة ٢٥٩ هـ (٨٧٢ م) وأنفق على هذا الإصلاح ألف دينار . وكان يعهد في قراءة مقياس النيل في أوائل العصر العربي إلى قياسين من القبط ثم حل محلهم قياسون من المسلمين بالتدريج . قال يحيى بن بكير : « أدركت القياس يقيس في مقياس منف ويدخل بزيادته إلى الفسطاط » . وكان يوجد فوق ذلك داخل أسوار الحصن الروماني القديم المعروف بقصر الشمع مقياس خامس للنيل . وقد عثر المسيو فورمون على آثاره سنة ١٧٧٥ م . ولا تزال أحجاره موجودة بمقبرة مار جرجس التابعة للروم الأرثوذكس بمصر القديمة .

نزول النقطة : قلنا إن نزول النقطة أو بعبارة أخرى عملية التنبؤ بوفاء النيل كانت من الحوادث الهامة جداً عند قدماء المصريين ، وعند القبط بمدينة الفسطاط وبعواصم الإسلام التي تلتها .

وكان المصريون يعتقدون أن النقطة تنزل ليلاً فيما بين ١٠ و ١٧ بؤونة (١٧ و ٢٤ يونيو) أو في أوائل فصل الصيف من كل عام . وهذا الاعتقاد مبني بالطبع على ما كان يعرفه قدماء المصريين من أن سقوط الأمطار بالحبشة يبدأ في أوائل شهر يونيو ويظهر أثرها في ارتفاع مياه النيل بمصر في أواخره ، ولذا كانت كل امرأة تضع فوق سطح منزلها قليلاً من العجين في كل ليلة من هذه الليالي ، فإذا خمر العجين كان ذلك دليلاً على نزول النقطة وجلب ذلك لها نعمة وبركة عليها وعلى أهل منزلها طول العام .

وقد وصف المقرئ حالة العاصمة النفسية في انتظار هذا الحادث السنوي وصفاً بديعاً . فكان إذا ما وثق القوم من الوفاء ، انتشر المنادون في المدينة وجلهم من الأطفال يغنون وينشدون أناشيد النهر التي توارثها الخلف عن السلف منذ عهد قدماء المصريين إلى الآن وترجمتها هي : « البحر زاد — غرق البلاد » .

مهرجانات وفاء النيل

أما الاحتفالات التي كانت تقام بمدينة القسطاط بهذه المناسبة السعيدة ، فكانت من أبهج الحفلات الشعبية وأحبها إلى قلوب الناس . وكانت هذه الحفلات في الواقع من التقاليد القديمة التي ورثها المصريون عن العصور الفرعونية ، وعمّا كان يقام فيها من الطقوس لتمجيد النهر . وقد بقيت من هذه الحفلات حفلة أو مولد الشهيد ومدته شهر . فكان أهالي مدينة مصر ينتقلون إلى بلدة شبرا حيث كان دير قديم باسم الشهيد أنبا يحنس ، وكان به صندوق صغير من الخشب في داخله إصبع هذا الشهيد .

فإذا كان ثامن شهر بشنس من الشهور القبطية يخرجون تلك الاصبع من الصندوق ويغسلونها في نهر النيل لاعتقادهم أن النيل لا يزيد في كل سنة حتى تغسل فيه تلك الاصبع ، ويسمى هذا العيد عيد الشهيد ، ولذا اشتهرت بلدة شبرا باسم شبرا الشهيد أو شبرا الخيمة أو الخليم أو الخيام لأن الناس على اختلاف طبقاتهم كانوا يحتفلون سنوياً بذكرى مولد الشهيد في خيام ينصبونها على شاطئ النيل تجاه هذه البلدة ، وهي واقعة الآن عند تم ترعة الاسماعيليه .

وعند تمام الفيضان كانت تقام الأفراح وتنتشر الملاهي الفاجرة في الزوارق وعلى شواطئ النيل . وفي سنة ٧٠٢ هـ (سنة ١٣٠٢ م) أبطل الأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير مولد الشهيد هذا لكثرة ما كان يقع فيه من الفتن وقتل النفوس وشرب الخمر .

وذكر ابن عبد الحكم أنه لما فتحت مصر على يد عمرو بن العاص جاء إليه القبط وقالوا له إن لنيلنا سنة لا يجرى إلا بها وهي أنه إذا كان اثنتا عشرة ليلة خات من بؤونة عمدنا إلى جارية بكر مليحة تأخذها من أبوها غصباً ونجعل عليها الحل والحلل ثم نلقيها في نهر النيل في مكان معلوم عندنا (عند المقياس بالجزيرة) . فأجابهم عمرو بأن هذا لا يكون في الإسلام أبداً .

فأقام أهل مصر بؤونة وأيبب ومسرى لم يزد فيها النيل ، فلما رأى أهل مصر ذلك هموا بالجلاء عنها . فلما رأى عمرو بن العاص ذلك كتب كتاباً إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، ولما وصل إليه الكتاب وعلم ما به كتب بطاقة وأرسلها إلى عمرو بن العاص وأمره أن يلقبها في نهر النيل . فلما وصلت إليه فتحتها فإذا فيها مكتوب « بسم الله الرحمن الرحيم من عمر بن الخطاب إلى نيل مصر المبارك . أما بعد فإن كنت تجرى من قبلك فلا تجر ، وإن كان الله تعالى هو الذي يجريك فنسأل الله تعالى أن يجريك » . فألقاها عمرو بن العاص في النيل قبل عيد الصليب بيوم واحد وهو في السابع عشر من توت . فأجرى الله تعالى النيل في تلك الليلة ست عشرة ذراعاً في دفعة واحدة . فلما عين أهل مصر ذلك فرحوا بإبطال تلك السنة السيئة » .

وأقول : هذا هو أساس أسطورة عروس النيل التي لا تزال للآن عالقة بالأذهان ، وهي مبنية على رواية ابن عبد الحكم . قال المرحوم الأستاذ توفيق حبيب الذي كان يعرف باسم « الصحافي العجوز » في أحد هوامشه بجزيرة الأهرام الغراء : « ابن عبد الحكم هذا هو عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم بن أعين بن ليث بن رافع :

فقيه مصرى عالم من جلة أصحاب مالك ، ولد فى الاسكندرية سنة ١٥٠ هـ وتوفى بالقاهرة سنة ٢٥٧ هـ (٨٧٠ م)
أعنى بعد الفتح بأكثر من قرنين ، وقد انتهت إليه رياسة القضاء بعد أشهب وكتب عدة مصنفات فى الفقه
والتاريخ أشهرها « فتوح مصر » التى ذكر فيها الرواية المذكورة عن عروس النيل .

ولكن لقد سبق ابن عبد الحكم العشرات من المؤرخين المصريين واليونان والعرب ومنهم من حضر أيام الفتح
وسجل أخبارها كلها . ولم يشر أحدهم إلى حكاية « عروس النيل » . ثم أتى بعده كثير من مؤرخى العرب
المدققين فكذبوا القصة ونفوها . وفى منتصف القرن الماضى نهض لدحضها علماء الآثار المصرية وفى مقدمتهم
ماسبيرو وبتلر وعلماء المصريين وفى طليعتهم أحمد كمال باشا ، وميخائيل شارو بيم بك ، وجورجى زيدان
وتوفيق أسكاروس .

وعهدت وزارة المعارف إلى بعض رجالها فى بحث الموضوع فقرروا كذب الرواية وأمرت بحذفها من كتب
التاريخ المقررة للمدارس الابتدائية والثانوية والمعلمين » .

وأقول : الواقع أن هذه الأسطورة فرية على مصر ، وأقباط مصر ، وإنها لغلطة لا يصح أن يمر بها المصريون
كراماً إذ لا يعقل أن يجيز الدين المسيحى وهو دين عيسى بن مريم لقبط مصر تقديم ضحايا بشرية للنهر !!!

صحيح أن الوثنية المصرية القديمة كانت تبيح تقديم الضحايا البشرية ، ولكن حتى فى عصر الوثنية أبطلت
الضحايا البشرية واستبدلت بالذبائح كما هو ثابت فى ثنايا التاريخ المصرى القديم . ولم يبق من هذه العادة إلا
الذكرى التى رددتها الأجيال التالية والتى وصلت إلينا منسوبة زوراً إلى قبط مصر فى عهد عمرو بن العاص .

وحتى المكان الذى قيل إن عروس النيل كانت تلقى عنده فى النهر فى عهد قدماء المصريين ليس له وجود .
فلا جزيرة الروضة كانت موجودة أيام قدماء المصريين ولا المقياس كان موجوداً فى هذا المكان على أيامهم .

أما الشئ الثابت لدينا فهو أن مصر كانت تحتفل فى جميع عهود استقلالها بعيد السنة المصرية الزراعية فى
أول شهر توت ، إذ يبلغ فيضان النيل ذروته من الارتفاع ، فيتخذ السكان على اختلاف أديانهم هذا اليوم عيداً
قومياً ويستقبلونه فرحين جذلين ، لأنهم يرون فيه بشيراً بالرخاء .

وقد اتخذ الأقباط هذا اليوم - يوم أول شهر توت - بداية لستهم منذ عهد الشهداء إلى الآن .
وفى العصر القبطى كانت مصر تحتفل احتفالاً رائعاً بهذا العيد تحت اسم عيد الصليب . وقد بقى هذا العيد
حتى نهاية العصر العربى . أما فى العصر التركى فقد عرف هذا العيد باسم عيد جبر الخليج .

ولم يزل للآن مهرجان جبر الخليج رمزاً لما كان فى الماضى ، إذ لا خليج الآن فيجبر ولا موعد محدد يحتفل
فيه بوفاء النيل .

وكم يكون جميلاً لو رجعت مصر إلى أعيادها الأصلية ، وجعلت من رأس السنة المصرية الزراعية فى أول شهر
توت أى جعلت من عيد النيروز عيداً قومياً للمصريين جميعاً يحتفلون به بنيلهم المبارك كما كان يحتفل به أسلافهم .

الفصل العاشر

جزيرة الروضة

وأهم معالمها القديمة والحديثة

تعاقبت على جزيرة الروضة الأجيال وهي رابضة في مجرى النهر تجاه مدينة مصر ، كلما انحرت فيها المياه جنوباً طرحت وامتدت شمالاً ، إلى أن ثبتت على شكلها الحالي بعد إنشاء المقياس في طرفها الجنوبي في القرن الثامن الميلادي .

أما متى تكونت هذه الجزيرة ؟ فمن الصعب جداً الرد على هذا السؤال ولكن الثابت لدينا أن جزيرة الروضة لم تكن موجودة في العصر الفرعوني ، وأن ما ذكره ابن عبد الحكم من إلقاء عروس النيل عند المقياس بالجزيرة منقوض من أساسه ، فلا الجزيرة كانت موجودة ولا المقياس كان موجوداً ، وقد تكلمنا عن هذا الموضوع بتوسع في الفصل السابق . ويكفي الآن أن نذكر أن أهم مقياس النيل في المنطقة المعروفة الآن باسم منطقة القاهرة إنما كان أولها في معبد مدينة منف ، وثانيها في معبد مدينة أون (عين شمس) ، وثالثها داخل أسوار حصن بابلون (قصر الشمع) وكان هناك مقياس أخرى ثانوية . فأنت ترى من ذلك أن ما ذكره ابن عبد الحكم في كتاب « فتوح مصر وبلاد الغرب » عن عروس النيل ، مجرد أسطورة بعيدة كل البعد عن الصواب . وقد عاش ابن عبد الحكم هذا أيام أحمد بن طولون ، وروى لنا في كتابه الشيء الكثير عن مصر منذ الفتح الإسلامي إلى أيام أحمد بن طولون ، ولكنه لم يتحرر الدقة في روايته

ولم تذكر جزيرة الروضة كموقع له أهمية حربية إلا في عصر الفتح العربي . فقد كانت في ذلك العهد ذات حصون ومنعة وكانت تزيد في قوة حصن بابلون وخطره الحربي بأنها كانت وسط النهر تملك زمامه . وقد التجأ إليها زعماء الروم عند محاصرة الحصن ، وأقاموا داخل أسوارها المنيعة المحيطة بها من جميع جهاتها بين البساتين والحدائق الجميلة في انتظار الفرج ولكن الفرج لم يأت . . . فطلب المقوقس الصلح . . . وقد دارت مفاوضات الصلح بين رسل عمرو وبين مندوبي المقوقس في هذه الجزيرة أولاً ، فلما فشلت هذه المفاوضات ، غزا العرب تلك الجزيرة وهرب الروم منها . وبعد ذلك تم الصلح في حصن بابلون كما هو معروف ، وعندها ذلك عمرو أسوارها وحصونها فبقيت مجردة عاطلة خربة حتى أيام ابن طولون .

وقد أعاد ابن طولون بناء أسوارها وحصونها في سنة ٨٧٦ م وجعلها مقراً لخزائن أمواله واتخذ فيها القصور لنسائه . لكن بعد موته طغى الماء على تلك الدور والقصور فدمرها شيئاً فشيئاً .

ثم جاء محمد بن طعج الأخشيد وبنى فيها سنة ٣٢١ هـ (٩٣٢ م) داراً ذات بساتين واتخذ فيها داراً للنوبة وداراً للغلمان . وسمى هذه الدار « المختار » . وفي الروضة الآن شارع اسمه المختار يقع في موضعها . وقد أقام ابن طعج

داره هذه مكان دار الصناعة القديمة حيث كانت تبني السفن والمراكب الحربية ، وقد أقيمت دار الصناعة بالروضة سنة ٥٤ هـ (٦٧٣ م) وظلت تعمل حتى أيام ابن طولون . ثم أحرقت في زمن الأخشيد سنة ٣٢٣ هـ (٩٣٤ م) . وعلى أيام الفاطميين ، أصبحت جزيرة الروضة من المتنزهات وأنشئت فيها المناظر (القيلات) الكثيرة وأشهرها منظرة « الهودج » أنشأها الخليفة الأمر بأحكام الله لمحبوبته البدوية بجوار « المختار » .

أما في أيام الأيوبيين فقد دخلت الجزيرة بما حوته في ملك ابن أخي صلاح الدين . ولما ولي العرش الملك الصالح نجم الدين أيوب ، بنى في الجزء الجنوبي منها قلعة هائلة لا تقل مساحتها عن ٦٥ فداناً أسند حراستها إلى المماليك من جنده وأطلق عليهم اسم « المماليك البحرية » .

وقد هدم الملك الصالح نجم الدين أيوب الدور والقصور والمساجد التي كانت بجزيرة الروضة وحول الناس من مساكنهم وهدم كنيسة كانت للقبط بجانب المقياس وأدخل كل ذلك في القلعة . وأنفق في عمارتها أموالاً كثيرة ، وبنى في داخلها الدور والقصور وعمل لها ستين برجاً وبنى بها جامعاً وغرس بها أشجاراً نادرة ، ونقل إليها كثيراً من الأعمدة الصوان والرخام التي نزعها من البرابي والكنائس من ناحية منف وبابلون وعين شمس وشحنها بالأسلحة وآلات الحرب وما يحتاج إليه من الغلال والزاد والأقوات خشية محاصرة الصليبيين له لأنهم كانوا في هذا الوقت قد نزلوا بدمياط واحتلوها ثم اعتزموا السير إلى القاهرة .

وكان الملك الصالح نجم الدين أيوب يقف بنفسه ، يرتب ما يعمل بهذه القلعة فصارت تدهش الناظر بكثرة زخرفها وتحير من يشاهدها بحسن سقوفها المزينة وبديع رخامها . ويقال إنه قطع من الموضع الذي أنشأ فيه هذه القلعة ألف نخلة مثمرة كان رطبها يهدى إلى ملوك مصر بحسن منظرة وطيب طعمه ، وخرّب « الهودج » و« المختار » وهدم ثلاثة وثلاثين مسجداً (ربما مصليات) عمرها خلفاء مصر وسراة المصريين لإقامة الصلاة هناك . وكان النيل عند ما عزم الملك الصالح على عمارة قلعة الروضة من الجانب الغربي فقط فيما بين الروضة وبر الجزيرة ، وكان قد انحسر عن بر مصر ولا يحيط بالروضة إلا في أيام الزيادة فلم يزل يفرق السفن في البر الغربي ويحفّر في البر الشرقي بين الروضة ومصر ويرفع ما كان هناك من الرمال حتى عاد الماء إلى بر مصر .

وكانت جزيرة الروضة متصلة قبل الفتح الاسلامي بساحل النيل الشرقي بواسطة جسر (كوبرى) من المراكب . وكان هذا الجسر في القرن الحادى عشر الميلادى مكوناً من ٣٦ مركباً كما ذكر ذلك السائح الفارسى ناصرى خسرو .

فلما أنشأ الملك الصالح نجم الدين أيوب قلعته المذكورة بالروضة في سنة ٦٣٨ هـ (١٢٤٠ م) ، أنشأ جسراً عظيماً ممتداً من بر مصر إلى الروضة مكان أو بجوار الجسر الأصيل ، وجعل عرضه ثلاث قصبات (حوالى $\frac{1}{4}$ ١٠ متراً) وهو الذى عرف قديماً باسم جسر (كوبرى) الملك الصالح .

وفي أيام محمد علي باشا كان هذا الجسر قد تهدم وخرب ، فلما اشترت شركة توحيد الأراضي المصرية جزيرة الروضة من ورثة عباس باشا يكن مهدت هذا الكوبرى وشيدته من جديد وأقامت عليه سكة حديد ضيقة تصل الروضة بجبل السعود لنقل الرمال من هناك إلى الجزيرة لرفع منسوب أرضها .

وفي عهد الخديوى عباس حلمى الثانى أعيد بناء كوبرى الملك الصالح بدير النحاس وأنشئ كوبرى عباس الثانى بين الروضة وبر الجيزة .

هذا وقد بقيت قلعة الملك الصالح بالروضة عامرة حتى زالت دولة بنى أيوب ، فلما ملك السلطان الملك المعز عز الدين أيبك التركمانى أول سلاطين المماليك البحرية سنة ٦٤٨ هـ (١٢٥٠ م) أمر بهدمها وعمر منها مدرسته المعروفة بالمعزية بمدينة مصر . وطمع فى القلعة من له جاء فأخذ جماعة منها عدة سقوف وشبابيك كثيرة وغير ذلك ، وبيع من أخشابها ورخامها أشياء جليلة .

فلما صارت مملكة مصر إلى السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقدارى سنة ٦٥٧ هـ (١٢٦٠ م) اهتم بالقلعة وأمر بإعادة عمارة ما تهدم فيها ، وأمر بأبراجها ففرقت على الأمراء المماليك وأمر أن تكون بيوتات جميع الأمراء واصطبلاتهم بها وسلم المفاتيح لهم .

ولكن لما ولى الملك المنصور قلاوون سنة ٦٧٨ هـ (١٢٧٩ م) وشرع فى بناء مارستانه والقبة والمدرسة المنصورية المعروفة بالنحاسين أمر بهدم مباني هذه القلعة ونقل منها ما تحتاج إليه عمارته الجديدة من عمد الصوان وعمد الرخام التى كانت قبل عمارة القلعة فى البرابى والكنائس وأخذ منها رخاماً كثيراً وأعتاباً عديدة .

وحذا ابنه الناصر محمد بن قلاوون حذو أبيه فنقل ما بقى بها من أعمدة وأحجار ورخام ومواد بناء واستعملها فى بناء الإيوان المعروف بدار العدل من قلعة الجبل والجامع الجديد الناصرى بظاهر مدينة مصر .

وهكذا ذهبت هذه القلعة وكأنها لم تكن . وقد تأخر منها عقد جليل تسميه العامة القوس كان على جانبها الغربى ظل باقياً إلى نحو سنة ٨٢٠ هـ (١٤١٧ م) وقد بقى أيضاً من أبراجها عدة ثم انقلب أكثرها ، وبني الناس فوقها دورهم المطلة على النيل .

وهكذا اختفت هذه القلعة التى كانت تقوم على مساحة قدرها ٦٥ فداناً كما قلنا سابقاً ومكانها المنطقة التى تحده اليوم من الشمال : بشارع الملك المظفر - ومن الغرب : بنهر النيل - ومن الجنوب : بسلاملك سراى حسن باشا المناسترى وبمقياس النيل - ومن الشرق : بسيالة الروضة .

والسلامك المذكور كان مكانه الجامع الذى أنشأه أمير الجيوش بدر الجمالى سنة ٤٨٥ هـ (١٠٩٢ م) على النيل بجوار المقياس من الجهة الغربية وعرف بجامع المقياس . وكانت يقايا هذا الجامع قائمة إلى سنة ١٢٦٧ هـ (١٨٥٠ م) وفيها أزال حسن باشا المناسترى تلك البقايا وبني هذا السلامك فى مكان جامع المقياس .

وبطرف جزيرة الروضة الجنوبى المقياس ويقال له المقياس الهاشمى وهو آخر مقياس بنى بديار مصر .

جزيرة الروضة منذ عهد محمد علي باشا الى الآن

في سنة ١٨١١ م أهدى محمد علي باشا جزيرة الروضة إلى صهره عباس يكن باشا ، وكان الوصول إليها إذ ذاك بواسطة القوارب ، لأن كوبري الملك الصالح القديم كان قد بلى وتداعى للسقوط .

وكانت الروضة في ذلك الوقت أرضاً زراعية فلما توفي عباس باشا يكن وزوجته تبادلا الورثة ، ثم بيع الجزء الواقع إلى جنوب شارع الروضة الخالي إلى شركة توحيد الأراضي المصرية ليمتد .

ويقول البعض إن حسن باشا المناسترلى ورث أرض حديقته وأرض منزله عن عباس باشا يكن وإنه أبى أن يبيعهما للشركة السابقة .

وفي عهد هذه الشركة مهد كوبري الملك الصالح وشيد من جديد وأقيمت فوقه سكة حديد ضيقة تصل الروضة بجبل أبي السعود لنقل الرمال اللازمة لردم الجزيرة وتعليق أرضها . وكانوا أيضاً ينقلون الطمي من النيل للغرض نفسه بواسطة الكراكات .

وبعد أن مهدت أرض الجزيرة وأصبحت صالحة للتقسيم ، عسكر فيها الجيش الإنجليزي . ثم رحل الإنجليز عنها فانتظمت للمبيع طبقاً للخريطة التخطيطية التي عملت عنها ، فتملكها كثير من الناس .

وفي أثناء وجود المعسكر الإنجليزي بها ؛ بنى كوبري الخديوي عباس حلمي الثاني فوصل الجزيرة بالروضة ، وكذا شيد كوبري الملك الصالح من جديد وبقي اسمه كوبري الملك الصالح تخليداً لذكري الملك الصالح نجم الدين أيوب صاحب قلعة الروضة المذكورة سابقاً .

وقد تم إنشاء هذين الكوبريين سنة ١٩٠٨ ، وأنشئ بينهما الطريق الذي يسمى الآن شارع الروضة ومد فيه شريط الترام .

وفي الثلاثين سنة الأخيرة امتد سيل الحياة الجارف إلى هذه المنطقة فشيئت فيها مئات المنازل والعمارات وامتدت فيها شبكة هائلة من الشوارع أهمها :

شارع النيل وأول منزل بنى فيه منزل محمود بك أبو النصر ، وشارع الأخشيد وأول منزل بنى فيه منزل المرحوم الشيخ محمد بك زيد مدرس بالحقوق سابقاً ، وشارع المقياس وأول منزل بنى فيه منزل أحمد رشوان ، وشارع قلعة الروضة وأول منزل بنى فيه منزل قحجة بك ، وشارع عاطف بركات وأول منزل بنى فيه منزل عاطف بك بركات ، ثم أبدل اسم هذا الشارع باسم شارع حافظ ابراهيم حكيمباشي الخاصة الملكية تخليداً لذكوره ، ثم شارع الملك الصالح وأول منزل بنى فيه منزل أمين رفعت ثم المدرسة الإنجليزية .

ويتقاطع مع هذه الشوارع شارع الملك المظفر ثم شارع المالك الذي يقع على تقاطعه بشارع المنيل ميدان

الماليك البحرية ، ثم شارع المختار وشارع دار الصناعة ، وأول منزل بنى فيه منزل المرحوم على باشا ناخب المستشار سابقاً .

أما اليوم فقد امتلأت الروضة شمالاً وجنوباً بالمنازل الآهلة بالسكان وتضاعفت حركة المرور في الشارع الرئيسى ، ففيه الآن خط ترام الجيزة مزدوج كما تمر فيه وفي شارع المنيل سيارات شركة الثورنكروفت الفاخرة وهي من وسائل النقل الحديثة السريعة بمدينة القاهرة .

قصر الأمير محمد على بمنيل الروضة

نشأت في العصر التركي قرية صغيرة في شمال جزيرة الروضة تعرف الآن باسم منيل الروضة . ويعتبر قصر الأمير محمد على توفيق ولى العهد درة في جبين هذا المنيل إذ تربو مساحته على ١٧ فداناً . وهو موضع رياضة ونزهة سمو الأمير يدعو إليه أصحابه ينعمون فيه بالحياة خير ما ينعم إنسان بين الرياض الفيحاء والبساتين الغناء . وقد نفخ سموه من روحه الفنية فيه فجاء آية من آيات الفن التي تنطق بما عليه الأمير من ثقافة شرقية وذوق رائع ومعرفة تامة بأسرار الجمال المعماري .

وبحديقة هذا القصر مجموعة متنوعة من الأشجار المغاربية وأغربها شجرة « البنين » . ويحيط بالقصر سور على طراز هندي شيده الأمير بعد زيارته للهند . أما المسجد الذى شيده سموه في مطلع قصره فتحفة من آيات الفن العربى الحديث .

منيل الروضة في ثلاثين عاماً

كان المنيل منذ ثلاثين عاماً مقصد العزاء من القوم يأتى إليه الكثيرون منهم ليختلسوا فيه سويعات السرور ولا يروحووا عن أنفسهم عناء العمل . كما كان يقصده الناس لزيارة « الشجرة المندورة » التي تشفى الجروح المستعصية وتهب النسل للمرأة العاقر التي تمر تحت جذورها البارزة فوق سطح الأرض . وكان العامة والفقراء يجيئون جماعات في الأعياد والمواسم خصوصاً في عيد شم النسيم يحملون أشهى المأكولات وأطيب الثمار ويتغنون بأغاني حلوة عذبة ، ثم يركبون زوارق تنشر قلاعها لعبور النيل يردد فيها النهر أصوات الطبول والمزامير إلى ما بعد مغيب الشمس .

أما الآن فقد زال جمال الريف الطبيعى ، ولم يبق من المنيل القديم إلا أكواخ هي قذى في عين طالبي النزهة . ومع هذا لم يشأ الله أن يذهب بجمال المنيل ، بل بقيت فيه مسحة من جمال العواطف الإنسانية السامية ، فقد شيده في عهد المغفور له الملك فؤاد الأول مستشفى فؤاد الأول في شماله تخفيفاً لضغط المرضى على مستشفى قصر العيني .

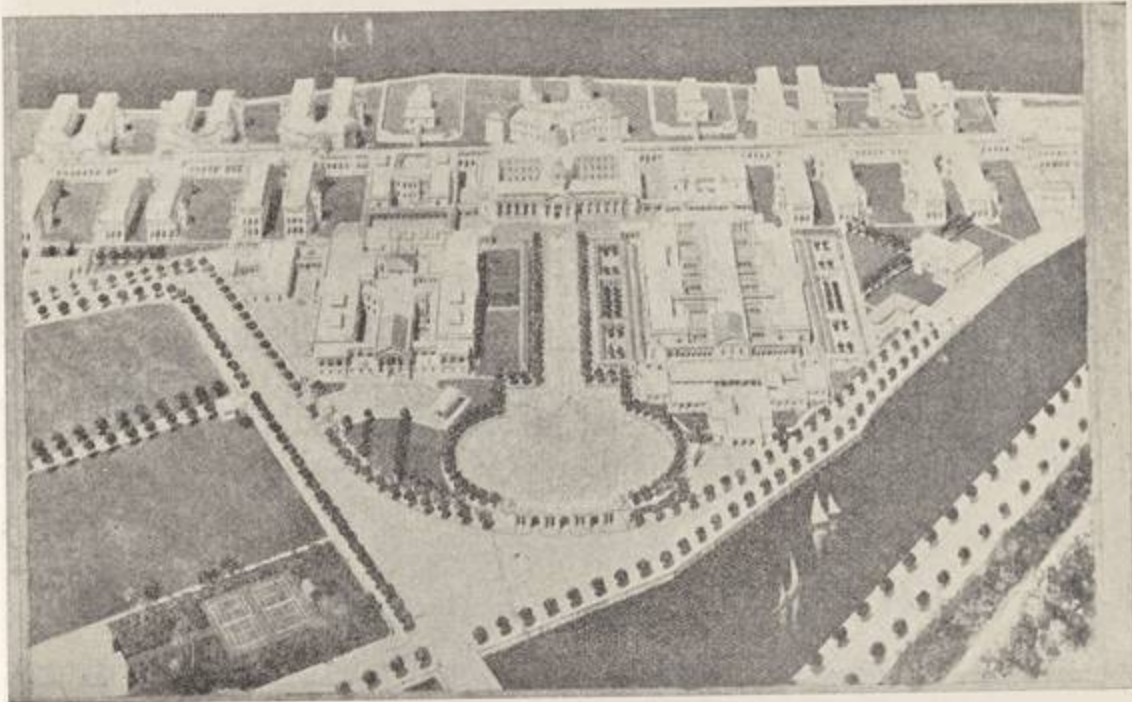
مستشفى فؤاد الأول

ظلت الأرض التي يقوم عليها مستشفى فؤاد الأول في أقصى شمال جزيرة الروضة ومساحتها ٥٢ فدانا ، فضاء فسيحا يكتنفه النيل من جانبيه ، ويعمر الفيضان بعض أجزائه .

وقد كان هذا الموقع في عصر الدولة الفاطمية بستانا رائعا فسيحا . ذكر المقرئى أنه لما استولى الأفضل شاهنشاه بن أمير الجيوش بدر الجمالى سنة ٤٨٧ هـ (١٠٩٤ م) على كرسي الوزارة ، أنشأ في شمالى الجزيرة مكانا للتنزه سماه « الروضة » وتردد إليه كثيرا فكان يسير في موكب من داره بمصر إلى « الروضة » ، وبذلك صارت الجزيرة من ذلك الوقت تعرف كلها باسم الروضة . ومع الزمن زال هذا البستان ودرست معالمه وتحولت الأرض إلى الزراعة .

وفي ١٩٠٨ لما تولى الأمير أحمد فؤاد (المغفور له الملك فؤاد الأول) رئاسة الجامعة المصرية الأهلية الناشئة عنت له فكرة إنشاء بعض كليات الجامعة بهذا المكان .

وفي سنة ١٩١٧ لما جلس جلالته على عرش أبيه وجده ، صحت العزيمة على اختيار هذه الأرض لإقامة المستشفى وكلية الطب عليها ، ووضعت التصميمات لمبانيها المختلفة ، ومن بينها تصميم مدخل رئيسى يقام فيه تمثال الملك فؤاد اعترافا بفضله في إقامة هذه المؤسسة العلمية التي لا تدانيها في العظمة أو في الدقة مؤسسة في العالم . وقد لوحظ في تصميمها ، أن تحقق الغرضين الأساسيين منها على أكمل وجه .



تصميم مباني مستشفى فؤاد الأول بجزيرة الروضة .

لذلك حوت مجموعاتها أقساماً تناولت جميع فروع الطب في التشخيص والعلاج ، وأنشئت بها صيدلية لصرف الأدوية للجمهور . وبهذا استوفت ما يجب للأغراض التعليمية في جميع فروع الطب ، كما استوفت ما يجب للعلاج . واستيفائها هذين الغرضين هو الذي جعلها أكبر مجموعة طبية في العالم .

وقد تم بناء هذا المستشفى خلال خمس عشرة سنة بذل أثناءها من الجهد والمال ما لم يكن يتيسر بذله لولا رعاية ملك البلاد فؤاد الأول عليه رحمة الله ورضوانه ولولا عطفه على هذا العمل العظيم وتشجيعه للقائمين به ، وحرصه على تمامه .

وقد قدرت التكاليف النهائية لإقامة المستشفى وكلية الطب بمبلغ ١٠٣٦٥٠٠٠ جنيه . أنفق منها في بناء المستشفى نحو ٨١٥٠٠٠ جنيه .

وقد قام هذا المستشفى وملحقاته ، صروحاً مشيدة للعلم والبحث ورعاية الإنسانية ، وها هي ذى تشهدنا اليوم أعين جميع المقيمين بمصر فياً أخذها الإعجاب بجلالها وعظمتها ، وتشهدنا أعين الأجانب عن مصر ، فيقرون لها بالتفرد بين نظائرها في العالم فخامة ونظاماً ودقة .

وقد أنهض العمل في هذه المؤسسة الجليلة صناعات شتى لم تكن معروفة قبله في مصر ، وكان الوارد منها إلى البلاد يستنفد قدرًا جسيماً من أموالها . فنشأت صناعة النوافذ والحواجز والدواليب المعدنية (كريتال) ، وصناعة الرخام الصناعي المصقول المعروف باسم « التراتزو » ، وصناعة الطلاء بالكروم ، وصناعة الأرضيات الكاوتشوك وصناعات أخرى توطنت في هذه البلاد وأغنتها عن الاستيراد من الخارج . وهكذا يعيد هذا المستشفى ذكرى ما كان في جزيرة الروضة من صروح وقلاع قديمة هائلة .

ويعتبر مستشفى فؤاد الأول بجزيرة الروضة جزءاً متمماً لمباني جامعة فؤاد الأول بالجزيرة ، ولذا فلا تزال الحاجة ماسة إلى إقامة كوبرى يوصل شارع الجامعة بالجزيرة بمستشفى فؤاد الأول بجزيرة الروضة وبمباني كلية الطب بالقصر العيني اختصاراً في وقت الطلبة والأساتذة ور بطلاً لوحدة الجامعة ببعضها .



مستشفى فؤاد الأول بجزيرة الروضة وملحقاته . وقد قام صروحاً مشيدة للعلم والبحث ورعاية الإنسانية.

كوبرى محمد على

أنشئ هذا الكوبرى لوصل القاهرة بجزيرة الروضة عند القصر العيني . وطوله ٦٧ متراً على ثلاث فتحات . وأسسها عبارة عن أسطوانات عملت بطريقة الضغط الجوى . ويصل هذا الكوبرى الآن مستشفى القصر العيني بمستشفى فؤاد الأول . وقد سمى كوبرى محمد على لأنه يوصل إلى قصر الأمير محمد على توفيق ولى العهد بمنيل الروضة .

وقد أنشئ في عهد الخديوى عباس حلمى الثانى سنة ١٩٠٨ . ويبلغ عرض هذا الكوبرى ١٥ متراً منها ١٢ متراً لبحر الطريق ومتر ونصف عرض كل من الأفرزين . وقد بلغت تكاليف إنشائه ١٦,٥٠٠ جنيه مصرى .

كوبرى الملك الصالح

أنشئ لوصل جزيرة الروضة بالقاهرة عند مصر القديمة . وصار تسلمه من المقاول السير ولیم أورل في عهد الخديوى عباس حلمى الثانى سنة ١٩٠٨ . وطوله ٨٣ متراً ويتكون من ثلاث فتحات . وأسسها مكونة من أسطوانات خرسانية عملت بطريقة الضغط الجوى . وعليه شريط مزدوج من أشرطة الترام الموصلة للجزيرة . وعرض هذا الكوبرى ١٥ متراً ، منها ١٢ متر لبحر الطريق ومتر ونصف عرض كل من الأفرزين . وقد بلغت تكاليف إنشائه ١٩,٠٠٠ جنيه مصرى .

كوبرى عباس الثانى

أنشئ لوصل جزيرة الروضة بالجزيرة . وصار تسلمه من المقاول السير ولیم أورل في ٦ فبراير سنة ١٩٠٨ في عهد الخديوى عباس حلمى الثانى . وطوله ٥٣٥ متراً . وله ثمانى فتحات ثابتة طول كل منها ٤٢,٧٦ متراً ، وله أيضاً فتحتان طول كل منهما ٤٣,٥٣ متراً ، وفتحتان أخريان طول كل منهما ٢٠,٥٧١ متراً ، ثم له بعد ذلك فتحة ملاحية متحركة طولها ٦٥,٦٤ متراً .

ويبلغ عرض هذا الكوبرى ٢٠ متراً منها ١٥ متراً لبحر الطريق ومتران ونصف عرض كل من الأفرزين . ويمر عليه شريط مزدوج من أشرطة الترام الموصلة للجزيرة .

أما أسسها وبغلاته فتتكون كل بغلة من قاسونين أسطوانيين يبعد أحدهما عن الآخر بمقدار ١٤,٥٤٠ متراً من المحور إلى المحور . وتنزل هذه القاسونات إلى منسوب (- ٧,٠٠) . وكل اسطوانة مكونة من غلاف من الصلب مملوء بالخرسان . وهذا الغلاف مصنوع من الصلب لغاية قاع النهر ثم من الحديد الزهر فيما علا ذلك .

ونظراً لأن بغلات هذا الكوبرى مركبة من اسطوانتين فقد حدث هبوط في إحدى الاسطوانتين ترتب عليه التواء في السكرات الرئيسية وأصبح الكوبرى على غير المتانة المطلوبة .

وقد بلغت تكاليف إنشائه ١٨٠,١٠٠ جنيه مصرى .

مقياس النيل بمجزيرة الروضة :

يبدو مما ذكره المقرئ وسواه في أمر المقياس ، أن العرب ، بعد الفتح مباشرة ، اعتمدوا على مقياس النيل القديمة التي كانت موجودة بمعبد منف وجزيرة أسوان ومعبد دندره ومعبد أنصنا وربما يكونون قد قاموا ببعض الترميمات فيها مما دعا مؤرخيهم إلى القول بأن عمرو بن العاص بن مقياسا بأسوان وبدندره ثم بنى في أيام معاوية ابن سفيان يعني في ولايته الثانية على مصر من سنة ٣٧ إلى سنة ٤٣ هـ (٦٥٧ - ٦٦٣ م) مقياسا آخر بأنصنا . (وأنصنا هي الآن القرية المعروفة باسم الشيخ عباده بمركز ملوى بمديرية أسميوط) .

فأين إذن ما ذكره الحسن بن محمد بن عبد المنعم من أن عمرو بن العاص بن مقياسا ببحلوان ، بناء على تعليمات الخليفة عمر بن الخطاب ، بتقاسيم تختلف عن تقاسيم المقياس المصرية القديمة ؟

يقول الأستاذ محمد قاسم المفتش بمصلحة الطبيعيات في كتابه « مقياس الروضة » طبعة سنة ١٩١٢ : « لا بد أن يكون هذا المقياس قد أقيم ببحلوان بعد الفتح بستين أو ثلاث في ولاية عمرو بن العاص الأولى من سنة ٢٠ إلى سنة ٢٥ هـ (٦٤١ - ٦٤٦ م) ، واستعمل إلى أن بنى عبد العزيز بن مروان مقياسه مكانه ببحلوان سنة ٨٠ هـ (٦٩٩ م) هذا مع العلم بأن المؤرخ المصرى جرجس بن العميد ذكر أن المقياس الذى بناه عبد العزيز بن مروان ببحلوان هدمته المياه سنة ٩٦ هـ (٧١٤ م) أى بعد بنائه بمدة ١٦ عاما فقط .

ولا بد أن يكون عمرو بن العاص قد اعتمد على مقياس القبط بمنف حتى الانتهاء من بناء مقياسه ، هذا مع ما هو معلوم من أن مقياس منف ظل مستعملا مع استعمال المقياس الإسلامية لغاية سنة ٢٣١ هـ (٨٤٥ م) على قول يحيى بن بكير .

وربما كان السبب الذى دعا عمرو بن العاص وعبد العزيز بن مروان إلى تغيير أذرع المقياس التى أنشأوها ببحلوان ، على ما ذكر برواية الحسن بن محمد بن عبد المنعم ، ما هو معروف من أن القبط كانوا يدفعون الخراج بنسب خاصة تبعاً لارتفاع مناسيب النيل . فإذا انتهت الزيادة إلى ١٦ ذراعا فقيه خصب الأرض وتماخ الخراج . أما إذا زاد على السبع عشرة وبلغ ثمانى عشرة ذراعا وغلقها استبحر من أرض مصر الربع وفى ذلك ضرر لبعض الضياع يترتب عليه عدم دفع جزء من الخراج .

وكذلك إذا قلت الزيادة عن الذراع الرابع عشر استسقى الناس وامتنعوا عن دفع الخراج .

فلملافاة هذه الحالة ، جعل عمرو الاثنى عشر ذراعاً ١٤ ذراعاً ضمناً لدفع الخراج فى الفيضانات المنخفضة .

إلا أنه ظهر بسرعة عدم صلاحية هذين المقياسين . فما إن هدم مقياس عبد العزيز بن مروان سنة ٩٦ هـ (٧١٤ م) حتى أقام أسامة بن زيد التنوخى مقياسه بالروضة بأذرع تعادل فى طولها طول أذرع مقياس النيل القديم .

وقد تكون أبعاد الطاقات التي ظهرت حديثاً عند الكشف على زاوية السلم بحرى المقياس مباشرة هي الأبعاد الأصلية المقررة في طول أذرع مقياس النيل القديم . و يبدو أن هذه الطاقات ترجع إلى عهد أقدم من العهد الإسلامى وربما كشفت لنا الأيام كنهها في المستقبل .

وأسامة هذا هو الذى بنى بيت المال بمصر . وكان عامل الخراج بها . فلما تهدم مقياس عبد العزيز بن مروان سنة ٥٩٦ هـ كتب إلى سليمان بن عبد الملك بن مروان ، وكان قد ولى الخلافة ، ببطلان ذرع هذا المقياس وأن المصلحة بناء مقياس جديد تتفق أطوال أذرع مع أطوال أذرع المقياس الأصلية للنيل . فأجابه سليمان ببناء مقياس في الجزيرة (يعنى الروضة) فبناه أسامة في سنة ٥٩٧ هـ (٧١٥ م) .

وظل مقياس أسامة مستعملاً حتى هدمته المياه أيضاً . وفي سنة ١٩٩ هـ (٨١٤ م) بنى المأمون مقياساً بالبروذات ولم يتمه ، وقد رمم مقياس المأمون هذا سنة ٥٢٣٣ هـ (٨٤٧ م) .

وفي سنة ٢٤٧ هـ (٨٦١ م) فى آخر عهد الخليفة المتوكل على الله جعفر العباسى وفى ولاية يزيد بن عبد الله التركى على مصر ، تم إنشاء المقياس الذى لم يزل موجوداً للآن بجنوب جزيرة الروضة .

وقد أنفذ الخليفة العباسى إلى مصر من العراق محمد بن كثير الفرغانى المهندس القدير للإشراف على بنائه ، وبعد ما تم بناؤه أطلقت عليه الأسماء التالية : « المقياس الهاشمى » و « المقياس الجديد » و « المقياس الكبير » وهو بعينه الذى نسميه الآن « مقياس الروضة » .

وبناء على توقيع من الخليفة المتوكل ، جعل يزيد بن عبد الله التركى أمير مصر ، على المقياس ، أبا الرّداد الفقيه المعلم . ويقال إن أصل أبى الرّداد هذا من البصرة . واسمه عبد الله بن عبد السلام بن عبد الله أبى الرّداد المؤذن .

قال الحافظ ابن يونس : قدم أبو الرّداد مصر وحدث بها وجعل على قياس النيل فلم يزل المقياس من ذلك الوقت فى يد أبى الرّداد وأولاده إلى يومنا هذا .

ومات أبو الرّداد المذكور فى سنة ٥٢٦٦ هـ (٨٧٩ م) .

وبعارة مقياس المتوكل هذا بطل استعمال كل مقياس كان قد بنى قبله فى الوجه القبلى وفى الوجه البحرى ، واستمر الحال على ذلك إلى أن ولى الأمير أبو العباس أحمد بن طولون الديار المصرية . فركب من القطائع فى سنة ٥٢٥٩ هـ (٨٧٣ م) ومعه أبو أيوب صاحب خراجه وبكار بن قتيبة القاضى ، فنظر إلى المقياس وأمر بإصلاحه وقدر له ألف دينار . فعمر وكان لم يمض على بنائه ١٣ سنة فقط .

وكانت هذه أول وآخر عمارة أجريت به إلى أن دخلت مصر فى حيازة الفاطميين . فلما تولى الخلافة المستنصر بالله ،

عمر وزيره بدر الجمالى بناء المقياس سنة ٤٨٥ هـ (١٠٩٢ م) وبني غريبه جامعاً سماه « جامع المقياس »
في مكان كنيسة قديمة للروم الملكيين .

ثم مضت ٤٠٠ سنة تقريباً على عمارة بدر الجمالى لم يذكر فيها شيء عن إصلاح المقياس .

وفي سنة ٨٨٦ هـ (١٤٨١ م) ذكر ابن إياس أن الملك الأشرف قايتباي توجه إلى المقياس ، ودخل إلى
قاعدته ، وأمر بتجديد بعض أماكنه وإصلاح أساسه .

ولما انقضت دولة المماليك الجراكسة ، ودخلت مصر تحت الحكم التركي ، نسب إلى كل من السلطان سليم الأول ،
والسلطان سليمان الأول ، والسلطان سليم الثاني ، إجراء عمارات بالمقياس لم تعرف أهميتها ، ولا تاريخ إجرائها .

وفي سنة ١١٨٠ هـ (١٧٦٦ م) في عهد السلطان مصطفى الثاني ، أمر حمزه باشا الوالى التركى حينذاك
بتجديد العتب الخشبي الأفقي الموضوع على رأس عمود المقياس لتثبيتته في موضعه وضمان عدم اهتزازه .

وفي عهد على بك الكبير سنة ١١٨٣ هـ (١٧٦٩ م) تمت إصلاحات كثيرة بالمقياس .

المقياس في عهد الحملة الفرنسية :

ثبتت هنا المحضر الذى كتبه المسيو « لويير » كبير مهندسى حملة بوناپرت ، عن الترميمات التى قامت بها
الحملة الفرنسية في مقياس النيل بين سنة ١٨٠٠ وسنة ١٨٠١ م :

كان المقياس قد دمر تدميراً عظيماً في أثناء الهجوم على القاهرة ، لا سيما وأن فرقة من الطوبجية أقامت
مدافعها في جواره وجعلت إحدى الغرف التى فوقه مخزناً للبارود . فأمر قائد الحامية الجنرال « مينو » بترميمه
لما علمه من شدة تعلق الأهالى بالأشياء الدينية إذ كانوا يعدون المقياس معبداً دينياً ، ولما رآه من أنه موضع
احترام وإجلال من كافة المصريين .

ولاشك أن جميع مهندسى الحملة قد أعجبوا بالمقياس ، وبما أنهم كانوا يريدون الاستمرار في قياس منسوب
مياه النيل بواسطة ، فقد بحثوا كثيراً ونقبوا عن أمر تقسيمه إلى أذرع وعن طوله الحقيقى ، لأن آراء العلماء والزائرين
والأهلين أنفسهم في هذا الشأن كانت مختلفة اختلافاً عظيماً . فلو وصول إلى الحقيقة ، طهروا البئر إلى قاعها في حضرة
السيد مصطفى سقا باشا وحضرة شيخ المقياس . وقد وصلوا إلى كشف الجزء الأسفل من العمود ، فوجدوا ما يأتى :

أما العمود فينقسم إلى ١٦ ذراعاً ، فالأذرع الست السفلى غير مقسمة ، والعشر العليا مقسمة كل منها إلى
٢٤ قيراطاً . ويبلغ مقدار الذراع من الست عشرة ذراعاً ٥٤ سم بالمقياس الفرنسى . أما طول تاج العمود
فذراع وأربع أصابع وقد ركب عليه عمود آخر ارتفاعه ذراع وأصبعان . ونظراً لأنه في أثناء بضعة القرون للماضية

كان فيضان النيل قد تجاوز في بعض الأحيان الذراع السادسة عشرة فقد قسم تاج العمود والعمود الآخر المركب فوقه إلى أذرع وأصابع فبلغ ١٨ ذراعاً و ٦ أصابع وبذا تسنى معرفة مقياس الفيضانات المفرطة .

وكان الكمر الذي وضعه حمزه باشا قائمقام القاهرة سنة ١١٨٠ هـ (١٧٦٦ م) أعلى عمود المقياس لتثبيتته قد بلى وتداعى للسقوط فأبدلناه بأخر من قطعة واحدة ثبتناه بالسقف من الشرق إلى الغرب وأسندناه إلى رأس عمود المقياس وبيضنا البئر بالبوية ، ولكننا احتفظنا بالنقوش الكوفية والعربية فلم نمسها بشيء . وقد جددنا الحاجز المقام حول البئر والغرفتين المجاورتين له المخصصتين لشيخ المقياس ، وشيدنا بوابة عند مدخل المعهد ووضعنا في قمتها لوحة من رخام أبيض قد نقش عليها بالمداد الذهبي بالفرنسية والعربية ما يأتي :

A.P.F. An : IX (أى الجمهورية الفرنسية . السنة التاسعة من تأسيس الجمهورية) وقد عهدنا بأعمال جميع الترميمات في المقياس إلى المسيو دي شابرول . هـ .

ولما انتهت الحملة الفرنسية وعادت مصر إلى الحكم التركي زار القاهرة المسيو جوبرت الذي كان مترجماً في الحملة فوجد أنهم نزعوا اللوحة المذكورة ووضعوا أخرى بدلا منها وقد نقش عليها ما معناه : « بالرغم من جميع ما قيل في فيضان النيل في سنتي ١٢١٥ و ١٢١٦ هـ فإن البلاد بفضل حكم الباشاوات الجدد سائرة على أحسن مما كانت عليه من قبل » ثم قال : « ويخيل لنا أن الأتراك ظنوا أن غرضنا من وضع هذه اللوحة ما كان إلا لإثبات ما أثرنا ولسكنهم قد تركوا التاريخ الفرنسي للوجود على القمة إما سهواً منهم أو لأنهم لم يفهموا معناه لأنه منقوش بالأحرف اللاتينية .

وقد قاس المهندسون الفرنسيون أذرع المقياس فوجدوها مختلفة بعضها عن بعض كالآتي :

الذراع الأولى	تبلغ	٥٤٠	ملايماً	الذراع التاسعة	تبلغ	٥٤١	ملايماً
» الثانية	»	٥٤١	»	» العاشرة	»	٥٣٦	»
» الثالثة	»	٥٣٥	»	» الحادية عشرة	»	٥٤٨	»
» الرابعة	»	٥٣٦	»	» الثانية عشرة	»	٥٥٠	»
» الخامسة	»	٥٤٣	»	» الثالثة عشرة	»	٥٤٦	»
» السادسة	»	٥٣٨	»	» الرابعة عشرة	»	٥٣٦	»
» السابعة	»	٥٣٦	»	» الخامسة عشرة	»	٥٣٩	»
» الثامنة	»	٥٤١	»	» السادسة عشرة	»	٥٤٠	»

فتكون الحملة ١٨٦٤٦ و٨ متراً

و بقسمة الحملة على ست عشرة ترى أن متوسط ذراع المقياس هو ٥٤١ ملايماً تقريباً . ولا شك في أن ما بين تقاسيم الأذرع من الاختلاف ناشئ عن قلة الدقة في التقسيم .

المقياس من عهد محمد علي باشا الى اليوم

ولما تولى ساكن الجنان محمد علي باشا زمام الحكم بمصر قام بإصلاح المقياس والمحافظة عليه .

وفي سنة ١٣٠٥ هـ (١٨٨٧ م) باشرت نظارة الأشغال العمومية تطهير بئر المقياس ورفع ما تراكم به من الطين والأنقاض حتى بلغت الذراع الثالث من أذرع العمود فوجد بين الأنقاض المستخرجة بقايا الأعمدة التي صنعها الفرنسيون منقوشاً عليها الذراع الثامنة عشرة البالغ ارتفاعها ٥٨.٠٠ من المتر .

كذلك أنشأت نظارة الأشغال مقياساً مترياً جديداً في الضلع البحري لزاوية سلم المرساة بحري المقياس مباشرة وصفر هذا المقياس الذي يعلو سطح البحر الأبيض المتوسط بمقدار $12\frac{1}{4}$ متراً يطابق الذراع الثامنة والقيراط $15\frac{1}{4}$ ، أما آخر تقاسيمه فينتهي عند المستوى الذي يعلو سطح البحر بمقدار ٢١ متراً .

و بعد الفراغ من هذه الأعمال هبط عمود المقياس ١٤ سنتيمتراً فاهتمت لذلك نظارة الأشغال ورمت جدران البئر وجددت عقدى عموده بعد أن ضمت له تاجاً من رخام على مثال التاج القديم الذي كان في عهد الفرنسيين . ثم أثبتت هذه الأعمال في لوح من رخام ثبت في أعلى الحائط الغربي للبئر وعليه تاريخ الإصلاح وهو سنة ١٣١١ هـ (١٨٩٣ م) في عهد الخديوي عباس حلمي الثاني .

وفي سنة ١٣٤٣ هـ (١٩٢٥ م) حدث هبوط في العمود مقداره ثلاثة سنتيمترات ثم زاد إلى ستة سنتيمترات ، فقامت مصلحة المباني الأميرية وتفتيش رى الجزيرة ولجنة حفظ الآثار العربية باتخاذ الاحتياطات اللازمة لإيقاف الهبوط عند هذا الحد تحت إشراف حضرة صاحب العزة كامل غالب بك وكيل وزارة الأشغال إذ ذاك .

فقام عزته بتطهير البئر تطهيراً تاماً حتى انكشفت قاعدة العمود . ثم قام بفك أحجار البئر بعد تنميرها حجراً حجراً لإمكان إعادتها إلى موقعها الأصلي بعد إتمام العمل .

و بعد أن أخلى حول مباني البئر من الخارج ظهرت هناك أبنية بالطوب متقنة الصنع على شكل نصف دائرة وضعت فيها خوابير خشبية لتدعيمها ، كما ظهرت أحجار قديمة من متخلفات معابد منف وعين شمس ، ومن متخلفات الكنائس التي كانت بهذا المكان قبل إنشاء جامع المقياس في عهد بدر الجمالي وزير الخليفة الفاطمي المستنصر بالله . وكانت هذه الأحجار قد أقيمت خلف حوائط البئر لوقايتها وكذا تحت قاعدة العمود ، وذلك في عهد إنشاء البئر وظلت في مكانها إلى أن رفعها غالب بك ورتبها ترتيباً جميلاً في شبه متحف بسلامك سراي المناستري الذي بنى في عهد محمد علي باشا مكان جامع المقياس المذكور سابقاً .

أما في هذا المتحف فكم يبدو جميلاً هذا الفن الدقيق - فن مدينة منف الخالدة ومدينة عين شمس المقدسة المنحوت على هذه الأحجار القديمة - تدقق فيه النظر فإذا به تطرئ بديع منسق تنسيقاً آخذاً . وبجوار هذه الأحجار الفرعونية البديعة تجد بقايا أحجار الكنائس البيزنطية بفنها المنقول الثقيل المتعب في تراكيبه وتفصيله . وبجوار هذه الأحجار وضع غالب بك أنموذجاً مجسماً للمقياس كما كان في عهد الحملة الفرنسية . وقد تقرر إصلاح المقياس وإرجاعه إلى هذه الحالة .

وقد أوشك هذا الإصلاح أن يتم الآن ، فقد أعيد تركيب أحجار البئر وتركيب عمود المقياس على أساسات قوية من الخرسانة المسلحة ، كما تم بناء القبة بالخرسانة المسلحة أيضاً ولم يبق إلا تركيب التكسية الخشبية الخارجية .

ومن الأشياء التي وجدها غالب بك أثناء العمل واحتفظ بها « الخنزيرة » الأصلية التي استعملت في تغويص البئر أيام المتوكل سنة ٢٤٧ هـ (٨٦١ م) أي منذ ١٠٨٢ سنة وهي في الغالب من خشب الجيز . ثم « القاويش » أي الكرة من خشب القرو الثقيل التي وضعت فوق العمود وثبتت أطرافها بمخاطي البئر الشرقية والغربية . وقد ركبت هذه الكرة بعد عهد الحملة الفرنسية مباشرة سنة ١٨٠٢ أي منذ ١٤١ سنة .

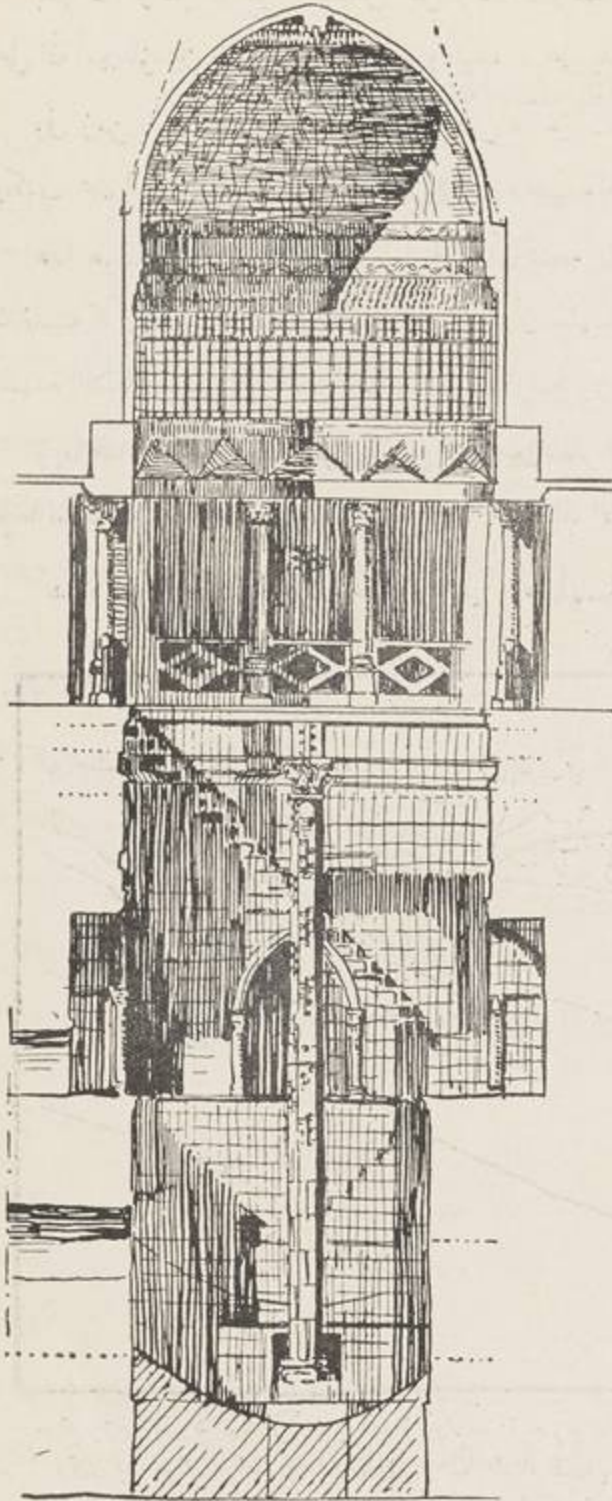
وصف المقياس في حالته الحاضرة

إذا زرت مقياس الروضة الآن تجده جافاً مطهراً نظيفاً وتنزل على درج مركب بجوار حوائط البئر إلى القاع تحت منسوب مياه التحاريق بحوالي ثلاثة أمتار . فتجد مقياس الروضة عبارة عن عمود من الحجر الجيري المتين ، منقول من معبد ، أو من كنيسة قديمة ، ارتفاعه حوالي تسعة أمتار ، وقطره ٤٨ سنتمترًا ، وهو مثن الأضلاع ، وعرض كل ضلع ١٨ سنتمترًا ، والعمود مقسم إلى أذرع وقراريط عددها ١٦ ذراعاً مبينة بحزوز محفورة على العمود ومقسمة إلى أصابع طول حزوزها نصف طول حزوز الذراع .

وقد أفيم هذا العمود على قاعدة مستديرة بوسط بئر مربعة من البناء طول ضلعها ٤ أمتار تقع بالنهاية الجنوبية لجزيرة الروضة تجاه مصر القديمة .

وفوق العمود تاج كورنتي من الرخام الأبيض عليه أثر تقاسيم الأذرع والأصابع . وفوق التاج عمود آخر ارتفاعه ذراع وأصبعان فوقه كرة من الخرسانة المسلحة بشكل « القاويش » القديم ، وذلك لضبط العمود في مكانه حتى لا يتحول . وهذه الكرة مثبتة في الحائط الشرقية والحائط الغربية للبئر .

وتصل مياه النيل إلى البئر بواسطة ثلاثة مجارى . فالجرى الأول مفتوح في الناحية الجنوبية وقاعه باستواء أرضية



مقياس النيل بجزيرة الروضة .

البئر وعرضه ١٠١٠ متراً وارتفاعه ١٣٤ متراً .
والجريان الآخران فتحتهما في الجهة الشرقية
الأسفل تحت آخر درجة من السلم وعرضه
١٢٠ متراً والأعلى فوقه وعرضه متر واحد
وله عقد مقبي . وهذا القبو مكرر في الأوجه
الأربعة للبئر ومكتوب عليه بالكوفي
(ماشاء الله لا قوة إلا بالله) . ويعلو هذا القبو
أربعة ألواح من الرخام الأبيض مثبتة في حوائط
البئر وعرضها ٣٠ سنتمترًا وطولها مختلف .

فاللوح الشرقى طوله ٢١٥ متراً ومكتوب
عليه بالكوفي :

« بسم الله الرحمن الرحيم . ونزلنا من السماء
ماء مباركا فأنبثنا به جنات وحب الخصيد » .

واللوح البحرى طوله ٢٥٠ متراً ومكتوب
عليه بالكوفي :

« وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء
اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج » .

واللوح الغربى طوله ٢٤٩ متراً ومكتوب
عليه بالكوفي :

« ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فتصبح
الأرض مخضرة إن الله لطيف خبير » .

واللوح القبلى طوله ١٩٨ متراً ومكتوب
عليه بالكوفي :

« وهو الذى ينزل الغيث من بعد ما قنطوا
وينشر رحمته وهو الولى الحميد » .

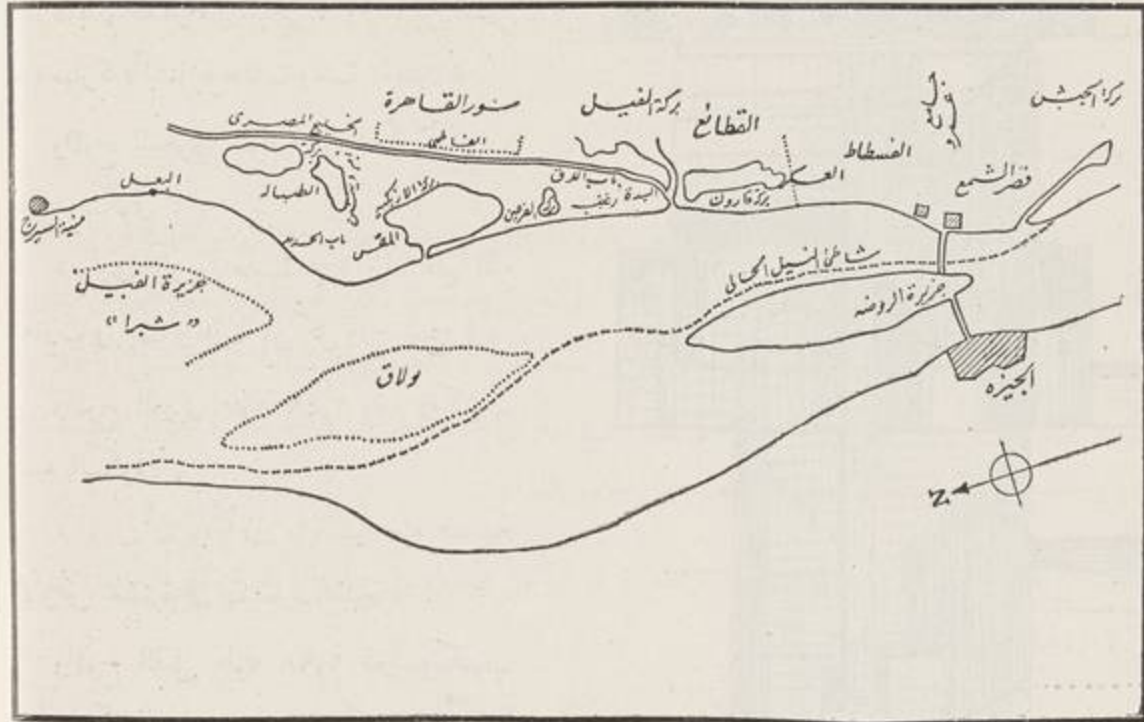
ومن ضمن ما وجد بجذاء الذراع الثامنة عشرة :

بسم الله الرحمن الرحيم . مقياس يُمن وسعادة ونعمة وسلامة . أمر بينائه عبد الله جعفر الإمام المتوكل على الله أمير المؤمنين طال بقاؤه ودام عزه وتأييده . على يد أحمد بن محمد الحاسب سنة ٢٤٧ .
وفي زمن بدر الجمالي وزير المستنصر الفاطمي ، أجريت إصلاحات بالمقياس ، وأزيل اسم الخليفة العباسي ، وكتب محله اسم الخليفة الفاطمي . وكان ذلك في رجب سنة ٤٨٥ هـ (١٠٩٢ م) .

هذا هو مقياس النيل بالروضة ، ونأمل الآن أن تمنحه بلدية القاهرة المقبلة إن شاء الله ، ما يستحق من إظهار شخصيته كأثر له قيمته الفنية وجاذبيته العالمية ، بأن تنشئ حوله الحدائق والبساتين وتمد إليه الطرق والشوارع الممهدة اللائقة وتسهل إليه المواصلات .

وإذا قلنا إنه يحسن إنشاء كوبري على النيل بين مصر القديمة ومنطقة مقياس النيل بدلا من المعديفة الحالية ، فإننا نعتقد أننا نقول حقاً ونرجو إصلاحاً . حقق الله الآمال .

هذه هي جزيرة الروضة وأهم معالمها القديمة والحديثة .



موقع جزيرة الروضة وشاطئ النيل الشرق تجاه مدينة مصر والقاهرة وقت فتح العرب لمصر في سنة ٢٠ هـ (٦٤١ م) . وترى فيها مواقع عواصم الإسلام الأولى . أما المعالم المبنية بالخطوط المنقطه فقد ظهرت في عصور تالية لهذا العصر ووقعت هنا كنقط لتحديد فقط .

فهرست

أهم الصور واللوحات الهندسية

صفحة	
٢١١	مكان بديع فوق جبل المقطم يصلح لإنشاء مدينة صحية وغابات جميلة ومصيف جذاب بالقاهرة !!
٢١٣	خريطة لبيان اتجاهات العمار الخمسة بمدينة القاهرة
٢١٧	طالما انتفع العرب بجبل المقطم وأقاموا فوقه للدين والمساجد والتحصينات
٢١٨	الأشجار الباسقة المحيطة بتكية السلطان عبد الله المغاوري بجبل المقطم خلف القلعة
٢٣٣	هرم خفرع ومعبده الجنائزي والطريق الموصل إلى معبد الوادي وبجواره تمثال أبي الهول
٢٤٠	أحوتب يشرح تفاصيل الهرم المدرج للفرعون زوسر
٢٤٣	الهضبة الليبية التي أقيمت فوقها أهرامات الجيزة
٢٤٦	منزل أحد أعيان منف
٢٥٣	مجموعة الأهرام المعمارية بالجيزة . أو مدن الهرم
٢٥٥	جبل أبو رواش والطريق الصحراوي بين القاهرة والاسكندرية
٢٧٧	خريطة لبيان حقل الأهرام على الهضبة الليبية
٢٧٩	خريطة لبيان موقع مدينة عين شمس والمعبد والمسلة وشجرة العذراء
٢٨٩	خريطة تبين موقع حصن بابلون أو قصر الشمع بقسم مصر القديمة
٣٢١	خريطة لموقع شاطئ النيل الشرقى في عصر الفتح العربى . تفهم منها مواقع الخطط بالنسطاط
٣٣٢	بعض بقايا دور النسطاط
٣٤٣	الخليج المصرى كما كان سنة ١٨٧٠
٣٥٦	قناطر مياه ابن طولون بقرية البساتين
٣٥٧	جامع ابن طولون وحوله مساكن هذا الحى
٣٨٦	تصميم مباني مستشفى فؤاد الأول بجزيرة الروضة
٣٩٥	مقياس النيل بجزيرة الروضة
٣٩٦	خريطة لموقع جزيرة الروضة وشاطئ النيل الشرقى وعواصم الإسلام الأولى
	الح الح

فهرست

الجزء الثاني من كتاب « القاهرة »

صحيفة

تصدير يتضمن آراء الكتّاب والجرائد وقادة الفكر في الجزء الأول من

كتاب « القاهرة » ٢٠٥

رأى مجلة هدى الاسلام بقلم الأستاذ حسن قاسم . رأى جريدة المصرى . رأى جريدة المقطم . رأى جريدة الأهرام .

مقدمة الجزء الثاني من كتاب « القاهرة » بقلم المؤلف ، وتتضمن مشروع

تجميل جبل المقطم ٢١٠

أهم المراجع العربية . مرتبة طبقا للحروف الأبجدية لأسماء المؤلفين ... ٢١٩

أهم المراجع الأفرنجية . مرتبة طبقا للحروف الأبجدية لأسماء المؤلفين ... ٢٢٢

الفصل الأول — مدينة منف ٢٢٤

الفصل الثاني — مدينة منف وفيها المبتكر ٢٣٥

أثر الطفوس الدينية في فن منف . الطراز الفرعونى في فن العمارة . فن منف منذ عهد زوسر . نظام المباني وتنسيق الحدائق في منف .

الفصل الثالث — أهرامات الجيزة وسقارة وبعض آثار منف الأخرى ٢٥٠

من المصطبة إلى الهرم . حقول الأهرام بوادى النيل . أهرام أخرى . مواقع بعض الأهرام . حقل الأهرام الكبرى بالهضبة الليبية . هرم خوفو . هرم خفرع . هرم منكاورع . هرم سقارة المدرج . متون الأهرام . تمثال أبى الهول . تمثال آخر لأبى الهول بسقارة . المصاطب . مصاطب الجيزة . مصاطب سقارة : ١ — مصطبة تى . ٢ — مقبرة خا — چمنا . ٣ — مقبرة ميربروكا . ٤ — مقبرة أخت — حتب وبتاح — حتب . ٥ — مصاطب أخرى . بيت ماريت باشا . مقبرة العجول أو السرايوم . دير أنبا أرميا . تمثالا رسميس الثاني : التمثال الأول . التمثال الثانى . ملاحظات هامة على أهرام الجيزة .

الفصل الرابع — مدينة عين شمس ٢٧٨

معبد رع بعين شمس . جامعة عين شمس .

٢٨٦ الفصل الخامس - مدينة مصر

حصن بابلون أو قصر الشمع . أم معالم الحصن القديمة . الحصن منذ عهد الحملة الفرنسية . أبراج الحصن وأبوابه . حصن بابلون اليوم . القبط والفن القبطي . طراز كنائس مدينة مصر . كنيسة المعلقة . رموز كنائس مدينة مصر . كنيسة أبي سرجة . كنيسة الست بربارة . كنيسة مار جرجس للراهبات . كنائس مدينة مصر الواقعة خارج أسوار الحصن الروماني . دير أبي السيفين . كنيسة أنبا شنودة . كنيسة أبي السيفين . كنيسة العذراء الدمشيرية . كنيسة مار مينا . المتحف القبطي . تطورات الفن القبطي .

٣١٥ الفصل السادس - مدينة الفسطاط

موقع الفسطاط . تخطيط مدينة الفسطاط . مباني الفسطاط . مواقع الخطط بمدينة الفسطاط . أمراء الفسطاط في عهد الخلفاء الراشدين . عمرو بن العاص . أمراء الفسطاط في عهد دولة بني أمية . مدينة الفسطاط في العصر الأموي . مدينة الفسطاط في العصر العباسي . مدينة الفسطاط في عصر الفاطميين والأيوبيين . دور الفسطاط . آثار الفسطاط . موت الفسطاط . أم معالم مدينة الفسطاط القديمة وما أصبحت عليه الآن . جامع عمرو بن العاص . خليج أمير المؤمنين . دار الصناعة . ميناء الفسطاط . القرافة . خندق القرافة .

٣٤٧ الفصل السابع - مدينة العسكر

٣٥٢ الفصل الثامن - مدينة القطائع

أحمد بن طولون . سياسته الداخلية والخارجية . موقع مدينة القطائع وخطوطها . قصر ابن طولون . قناطر ابن طولون بقرية البساتين . تخطيط مدينة القطائع . جامع ابن طولون . المحراب . المنبر . دار الأمانة . القبة وسط الصحن . المنارة . الأساس . أعمال الإصلاح . أعمال أخرى لابن طولون . مارستان ابن طولون . مخارويه ابن أحمد بن طولون . نهاية حكم الطولونيين . مصر تحت حكم العباسيين للمرة الثانية . مدية القطائع في عهد العباسيين الثاني . مدينة مصر الفسطاط في نهاية الحكم العباسي وفي عصر الأخشيديين . عمارة مصر .

٣٦٧ الفصل التاسع - الحياة الاجتماعية في عواصم الاسلام الأولى بمصر

نظام المجتمع في عصر الخلفاء الراشدين من سنة (٢١ - ٥٣٧) (٦٤١ - ٦٥٧ م) . عمرو بن العاص يصف مصر للخليفة عمر بن الخطاب . خطبة عمرو في مسجده يوم الجمعة من أيام عيد الفصح سنة ٢٤ هـ (٦٤٤ م) . جباية الخراج في عصر الفتح الاسلامي . نظام المجتمع في عصر الأمويين من سنة (٣٧ - ١٣٢٢ هـ) (٦٥٧ - ٧٤٩ م) . نظام المجتمع في العصر العباسي الأول من سنة (١٣٢ - ٣٥٤ هـ) (٧٤٩ - ٨٦٨ م) . نظام المجتمع في عصر الطولونيين وفي العصر العباسي الثاني وفي عصر الأخشيديين . حريق مدينة مصر . تأثير نهر النيل في حياة عواصم الاسلام الأولى . نزول القطة . مهرجانات وفاء النيل .

الفصل العاشر — جزيرة الروضة وأهم معالمها القديمة والحديثة ... ٣٨١

جزيرة الروضة منذ عهد محمد علي باشا إلى الآن . قصر الأمير محمد علي بمنيل الروضة .
منيل الروضة في ثلاثين عاما . مستشفى فؤاد الأول . كوبري محمد علي . كوبري الملك
الصلاح . كوبري عباس الثاني . مقياس النيل بجزيرة الروضة . المقياس في عهد الحملة
الفرنسية . المقياس من عهد محمد علي باشا إلى اليوم . وصف المقياس في حالته الحاضرة .

فهرست أهم الصور واللوحات الهندسية ... ٣٩٧

وها قد انتهينا من دراسة ٢٢ فصل من فصول كتاب « القاهرة »
في جزئين كل جزء منهما ٢٠٠ صفحة

هنا ينتهي الجزء الثاني من كتاب « القاهرة »
ويليه الجزء الثالث

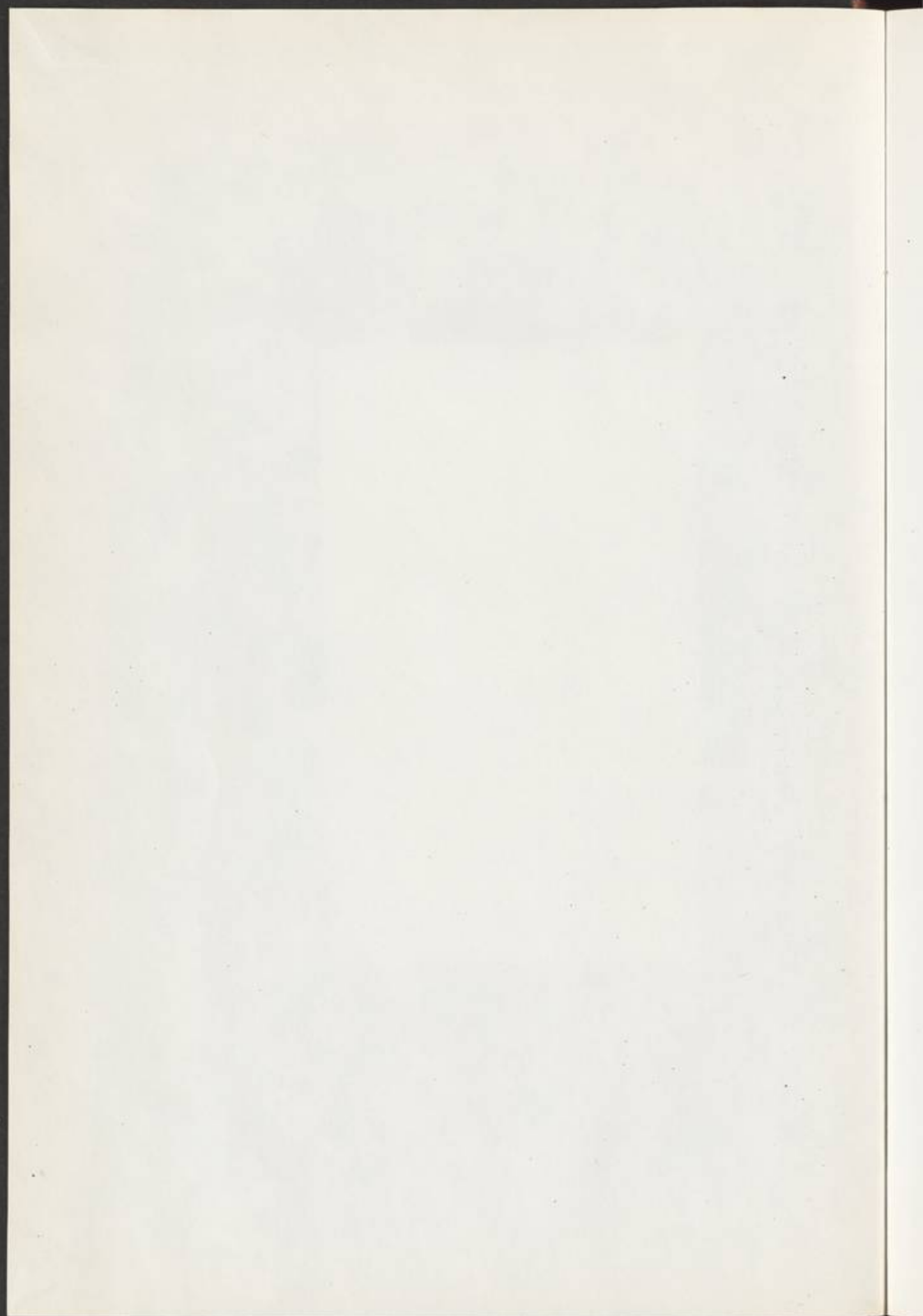
١٩٤٤/٤/١/١٢٠٦

7821 - 10-3
02

381

397







**Elmer Holmes
Bobst Library**

**New York
University**

